

مَجَلَّةُ
العِلْمِ الاجْتِمَاعِيَّةِ

جَمِيعَ الْحُقُوقِ مَحْفوظَةٌ

العلوم الاجتماعية - بيروت

مجلة فصلية - مرتنتاً نصف سنوية - أكاديمية - ثقافية - متخصصة
تصدر عن معهد العلوم الاجتماعية
(الفرع الأول) - الجامعة اللبنانية

الإشراف الإداري :

د. محمد شيا

د. نبيل سليمان

الإشراف العلمي :

هيئة تحرير المجلة

سكرتير التحرير :

أحمد ياسين

• العنوان :

بيروت - ساقية الجزر - شارع عبدالله المنشوق -

بنية الغندور

ص.ب. : ٦٠٥٩/١٤

تلفون : ٨٠٩٧٠٠ - ٨٠٩٧٠٤

ملاحظة : إن الآراء الواردة في المقالات لا تعبر بالضرورة عن رأي هيئة التحرير أو معهد العلوم الاجتماعية.

العلوم الاجتماعية

بَيْرُوتُ

الفَهْرُسُ

١.	كلمة العدد
٢.	في منهجية التفكير - مثال ديكارت : محمد شيئاً
٣.	الانتروبولوجيا علم الماضي في الزمن الحاضر : محمد ذكروب
٤.	مخاطر التبعية الغذائية على البلدان النامية . صابر بو ضرغم
٥.	الساحر وسحره : كلود ليثي ستروس (ترجمة حسن قبيسي)
٦.	البرامج ومشاكل تطويرها في معهد العلوم الاجتماعية: دولة خضر خنافر
٧.	سوسيولوجيا الفن - المسرح إزاء التلفزيون : عصام الجوهري
٨.	التربية في لبنان بين التفجير والتغيير: خضر الضو
٩.	مراجعات ، نقد
١٠.	مؤتمرات ، ندوات
١١.	- التهجير والإماء: بطرس لبكي
١٢٥.	- قضية الحرب والتهجير في لبنان من منظار مختلف : عبدالله ابراهيم
١٣٣.	- المشكلات الاجتماعية للأسرة - دراسة ميدانية حول أوضاع الشباب : اسعد الآيات
	- الحرب الأهلية في السودان بين ضرورة التعدديّة وايديولوجيا الفتنة :
١٥٩.	حيدر ابراهيم علي
١٧٧.	١١. نشاطات المعهد
١٨٠.	١٢. نقاش اطروحة دكتوراه :



في عادات المطبوعات والدوريات ، وربما من قواعدهما ، أن يكون العدد الأول مسبوقاً بالعدد صفر . وهذه العادة أو العرف ، أو القاعدة ، موجبات وضرورات . فهي المحاولة والتجربة والنسخة الأخيرة المغفاة من ضرورة النقد والمحاكمة العلنية وهي حذر واستدراك في محلها كما يأني العمل كاملاً غير منقوص ، مضموناً وشكلًا وإلى أقصى ما تسمح به الإمكانيات والظروف العامة والخاصة .

هي ذي تقاليد النشر ، التي خالفناها في مجلة «العلوم الاجتماعية - بيروت» حين دفعنا إلى القراء بالعدد الأول من مجلتنا ، غير مسبوق بالعدد صفر ولا بالعدد / التجربة . ولم تجرب الأمور ، وبالتالي دون مشاكل ، صغيرة والحمد لله ، من مثل أن الحرف في فهرسة عنوانين الغلاف الخارجي كان أكبر مما أردناه ، إلى مشاكل صغيرة أخرى يمكن توقعها على الدوام في مجال المطبوعات وبخاصية الأكاديمي منها ، إلا أن النجاحات والإنجازات كانت أكبر بكثير من المهنات فخرج العدد الأول إلى أيدي القراء ، من أساتذة وبحاثة وطلاب وقراء عموماً ، في حالة فخمة قشيبة ، شكلاً ، وفي اكتئاز وغنى في المضمون والمادة وصادف وبالتالي من الترحيب والتقدير ما جاور مخاوفنا وفاق توقعاتنا .

وكان من باب التقدير الاحتفال التكريبي الذي أقامته الجامعة اللبنانية لمناسبة صدور العدد الأول من المجلة ، تحت رعاية معالي وزير التربية الوطنية الأستاذ بطرس حرب مثلاً رئيس الجامعة اللبنانية (بالتفويض) الدكتور هاشم حيدر ، فأعطيت كلمته والكلمات الأخرى في الاحتفال ، تشجيعاً معنوياً هو في صلب حاجة كل مطبوعة جديدة . أما ذرة الامتنان الذي صادفناه ، فهو الترحيب الذي لاقه مجلتنا في جامعتنا الوطنية كما في المعاهد والأوساط العلمية والثقافية ، المحلية والعربية ، في الجامعة اللبنانية ، في الجمعية

اللبنانية لعلم الاجتماع ، في الجمعية العربية لعلماء الاجتماع وفي غيرها من المراجعات العلمية
الرصينة والأساسية .

هذه التجربة الأولى نحملها ، بما فيها نثري بها خبرات مجلتنا الناشئة ونطمح إلى أعداد
أخرى أحسن تبويباً وشكلًا وأغنى مادةً ومضموناً .

هيئة التحرير

في منهجية التفكير - مثال ديكارت -

د. محمد شيئاً

أولاً : في تاريخ المنهجية

في المنهجية ، كما في كل علم ، مضمون وشكل . المضمون هو مادة العلم والشكل هو طريقة تنظيم تلك المادة وطريقة تناولها بالدرجة الثانية . فالمنهجية كمادة أو كموضوع موجودة على الدوام أمّا كشكل أو كعلم ، فهي حديثة . نقول ان مادة المنهجية موجودة على الدوام لأن الإنسان مذ بدأ تواصله مع الآخرين ومع الطبيعة ، حاول باستمرار أن يطور أفضل أشكال ذلك التواصل عن طريق تحسين مستويات تعبيره عن مشاعره ورغباته ومصالحه ، وتحسين مستويات فهمه للآخرين ، وأخيراً تحسين مستوى سلوكه وأدائه العلمي وصولاً إلى تحقيق إرادته في الحياة وحياة أفضل باستمرار ١ .

ولم يكن ممكناً في هذه المرحلة البدائية ، حيث وعي الإنسان ، كما لغته وعلمه ، ما زالت جميعاً في أشكالها البدائية الأولى ، توقع قيام منهجية رصينة هادفة . فالامر كان فوق قدرة إنسان تلك المرحلة الأولية . لكن الإنسان كان في سعي دؤوب نحو تجاوز تلك المرحلة يفعل حاجاته الفطرية من جهة وما يعرض له يومياً من مسائل وألغاز تقدمها الطبيعة وتحتاج إلى حل ومعالجة . كان لزاماً على الإنسان أن يتقدم في طريق المعرفة – سبيل بقائه وحياته – لكن ذلك التقدم في المعرفة كان يستدعي في الآن نفسه توسعًا في ملاحظاته ومشاهداته وتجاربه وتطوراً لأساليب تفكيره واستنتاجه . هذه العلاقة الموجبة المتباينة بين المعرفة من جهة

١. راجع على سبيل المثال :
- محمود زيدان ، *مناهج البحث الفلسفى* ، بيروت ، دار النهضة ، ١٩٧٤ .
- عبد الرحمن بدوى ، *مناهج البحث العلمي* ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، ١٩٧٧ .
- ماجد فخرى ، «*في إشكالية المنهج*» ٩ بحث في مجلة الفكر العربي ، بيروت ، العدد ٤٢ ، ١٩٨٦ .
- * مدير معهد العلوم الاجتماعية (الفرع الأول) .

وشروطها من جهة ثانية ، كانت – ولا زالت – القاعدة الأساسية والمضمون الرئيسي في كل منها .

وبقدر ما كانت تتحسن مشاهدات الإنسان وتطور أساليب تفكيره ، كانت معرفته تتقدم أفقياً وعمودياً ، كمّا ونوعاً ، والعكس صحيح . كان الإنسان يمارس على الدوام إذاً قدراً ما من المنهجية ، يتحسن ويتطور باستمرار . ووجدت بدايات المنهجية أعلى أشكالها الأولى مع مفكري اليونان ، ومع سocrates وأرسطو بالذات . يقوم منهج سocrates في استنباط الحقيقة ، في المسائل النظرية والعملية ، على اصطلاحه الجهل في البداية ثم استدراجه خصمه (أو جره) خطوة خطوة ، عبر دفعه إلى قول كل ما عنده ثم إثارة شكوكه في ما قاله وفي معتقداته ، وإذ بثبت للخصم زيف آرائه وتناقضها وتشوشها تصبح الفرصة سانحة لسocrates لعرض آرائه بطريقة متاسكة ومتربطة ومقنعة ، ويرتفع بقناعات خصمه رويداً رويداً إلى أن تصبح قناعات سocrates قناعات لخصمه – يبطل إذ ذاك خصماً بالطبع – ويعينه بالتالي على تبين الصواب وبلوغ الحقيقة .

لكن منهجاً كهذا يبقى قاصراً ، لأنه ذاتي ولا يستند إلى قواعد محددة وإنما إلى القدرات الشخصية التي يجب أن توفر في المخاور وإلى تمرسه بها . فكان لا بد بالتالي من وضع قواعد محددة للمنهج يسهل تطبيقها ؛ وكانت بالتالي خطوة المنهج الكبرى إلى الأمام مع أرسطو أعظم الفلسفه الأولي على الإطلاق^٢ . أما إسهام أرسطو الأعظم ، إضافة إلى الكثير في مسائل الميتافيزيقيا والطبيعة والأخلاق والسياسة ، فهو ما أحدهه من إنجاز في علم المنطق إذ بلغ بالمنطق شكلاً عالياً متقدماً وبلغ بالمنطق الصوري بالذات ذروته فأفلل على كل مسائله ولم يصف إليه بعد ذلك شيء يذكر . أسمى أرسطو منطقه «الأورغانون» أي آلة الفكر ؛ مما يشير بوضوح إلى أنه ليس غاية في ذاته وإنما هو آلة للفكر تحمل إليه الدقة وال موضوعية والثقة في تحصيل المعرفة والحقيقة . لكن النقد الذي يوجه إلى منطق أرسطو هذا ، هو أنه صوري ، شكلي ، لا يتناول معطيات الحس والواقع وإنما معطيات الفكر وأنه استعراض بالاستدلال العقلي عن كل تجربة أي أن صدق نتائجه يستند إلى كونها مستنيرة بشكل منطقي بمعزل عن اتفاقها واختلافها مع الواقع الحس والطبيعة . غير أن أرسطو ليس مثالياً أو

٢. راجع بحثنا في منهج أرسطو وما تلاه من تحولات في «في شكل الكتابة الفلسفية العربية» مجلة الفكر العربي ، عدد

صوريًا إلى هذا الحد ، بل هو يقترب ، في استقراره بالذات ، من التجربة والواقع التي تقدمها الطبيعة ويعين لها الأساليب الكفيلة بقيام استقراء صحيح ؛ إلا أنه يبقى ، وذلك صحيح ، استقراءً ناقصاً أي ، بكلام أوضح ، غير كامل ، إذ يستحيل قيام استقراء تجربىي كامل في الطبيعة .

لم يبن المنهج حتى الآن ، رغم مارسته ، الوعي المطلوب الذي يتناسب مع أهميته وأولويته . يعتبر ديكارت رائد الفلسفة الحديثة أول من وسع بعمق أولوية مسألة المنهج ، إذ هي الخطوة الأولى الأهم وكل ما يلي ذلك إنما يتقرر على ضوئها . ويقدم ديكارت تعريفاً للمنهج يعكس بوضوح وعيه لمسألة المنهج : «المنهج هو مجموعة من القواعد اليقينية البسيطة التي تكفل لمن يراعيها بدقة ألا يتورّم الصدق في ما هو خطأ ، وألا يهدى بجهوداته الفكرية دونما هدف ، بل سيزيد من معرفته تدريجياً فيبلغ معرفة حقيقة في كل ما يمكن معرفته . هذه الحقيقة الشاملة التي كان يطلبه ديكارت من خلال منهجه أصبحت الآن مجزأة وموزعة على ميادين وعلوم مختلفة .

هناك إذا حاجة لمنهج لبلوغ الحقيقة ، أما بدون ذلك فشلتنا ، يقول ديكارت ، مثل بعض الناس يختارون شوقاً للعثور على كثر فيجبون الشوارع عليهم يغترون على شيء تصادف أن سقط من عابر سبيل . ويقدم ديكارت قواعد منهجه الذي يقوم على تحليل ما هو مركب إلى أجزاء بسيطة ، واستبعاد كل ما ليس بيقيني وموثوق ، وأن يجري ذلك كله في ضوء سلطة العقل وحده ولا شيء غير العقل .

هذه الشمولية الفلسفية التي تحكم بمنهجية ديكارت هي الشمولية الميتافيزيقية ، مرحلة ما قبل التجربة والاختبار والعلم .

ولا يعنيها من ديكارت إلا وعيه العميق لمسألة المنهج وتشميشه لأولويتها في كل بحث وعلم ، أما التفاصيل التي يقرّرها فلا تصلح الآن إلا إطاراً عاماً للمعرفة لا أكثر^٣ .
تطورت المنهجية بعد ديكارت ، محتفظة بكل الأهمية التي نالتها ، لكنها انقسمت وتفرّعت بتفرّع المعرفة وتشعبها إلى منهجيات تمتلك مبادئ عامة مشتركة لكنها تتفرّع حسب تفرّع العلوم تسلير إنجازاتها وتروّدها بأساليب أكثر فاعلية وإنتجاجية ، وهو ما سيجري تفصيله

٣. في فلسفة ديكارت ، راجع بحثنا «ديكارت والديكارتية» ، في الموسوعة الفلسفية العربية ، ج ٢ ، (معهد الإنماء العربي ، بيروت) .

وتطوريه في محاولات لاحقة أكثر تنوعاً وأكثر راديكالية في آن . المنهجية ، إذا ، هي جزء من نظرية المعرفة (الابستمولوجيا) التي تعنى بشروط المعرفة وحدودها ومصادرها . وهي تعنى على وجه التحديد ببيان الشروط والسبل التي تكفل فاعلية أكثر في نشاطات الذهن وتحقيق غاياته . ولذلك فهي تتصل بالمنطق ، علم قوانين التفكير ، كما أنها في النهاية ميدان فلسي يتسلح بأدوات الفلسفة وغایاتها وقيمها .

ثانياً : المنهج عند ديكارت

كان ديكارت شاهداً على تحولات عصره ، كانت حقبة جديدة تولد تدريجياً وكان هو في صلبها .

ولد رينيه ديكارت سنة ١٥٩٦ في ضواحي مدينة تور بفرنسا . دخل ، في الثامنة من عمره ، مدرسة الآباء اليسوعيين وتخرج في سنّ السادسة عشرة بعدما أكمل برنامجاً صارماً درس فيه أقسام فلسفة أرسطو المختلفة ، والطبيعيات ، مع ميل متزايد باتجاه الرياضيات لدقتها وأحكام نتائجها وأنظمتها .

توجه ديكارت ، بعد مغادرته المدرسة ، إلى باريس حيث تقلب بين أكثر من بلاط كسيد (جنتلمان) من أصل نبيل ، ثم غادر باريس حوالي سنة ١٦١٨ متسللاً ، كمحارب متقطع ، في جيوش عدد من الأمراء ، لكن الأمر لم يطل به ، إذ ما لبث أن ترك سنة ١٦٢٨ ، وهو في الثانية والثلاثين من عمره ، هذا النط من الحياة منسحباً من شؤون دنياه نحو ذاته وفكره يبحث فيها عن اليقين ، ومات سنة ١٦٥٠ في البلاط السويدي بعد سنة من مجئه بناءً لدعوة من الملكة كريستين . خارج حياة يومية عملية تقاد تخلو من أية حادثة بارزة ، كانت رحلة ديكارت الحقيقة داخل الذات ، سلسلة من الكشفات العقلية كما يصفها ، في «مقالة حول المنهج» و«الاعترافات» في «مقالة حول المنهج» يقول ديكارت في حال المعرفة التي ورثها أو تعلمها : «حالما أنهيت برنامج دراستي الكامل ، حيث يفترض بالمرء أن يبلغ به درجة المتعلمين ، وجدت نفسي تحت وقع شكوك وأخطاء عديدة ، كأنما ما تعلمهه لم يكن إلاً كشفاً متزايداً عن مدى جهلي» .

كانت شكوك ديكارت تتزايد في صدق ما تعلمه ، وخصوصاً ان الفلسفات التي درسها

لم تخلُ من تناقض وجدل رغم أنه توفر لها ، كما يقول ، أكثر العقول نباهة . لم يكن سبب التشوش قصور في العقل أو قصور في الجهد . كان هناك قصور في المنهج ، أو قل لم يكن هناك من منهج حقيقي على الإطلاق . ولا شك ان حكم ديكارت هذا على المنهج الفلسفي ، يوضح مدى تأثره بدقة العلم الرياضي ومناهجه ، وتوقفه بالتالي لصياغة منهج فلسفى ، فيه دقة الرياضيات ، يبعد عن الفلسفة والعلم متاهات الجدل الفارغ والتلوиш والارتباك ، ويعيد إلى الذات الثقة واليقين ، ويسمح للعلم في الآن نفسه أن يكون أداة ذات نفع في بواكير الصعود التاريخي ، العلمي والعملي والتقني ، التي كانت تهبّ على أوروبا الجنوبيّة الغربية في تلك اللحظة .

كان تثمين ديكارت العالى للمنهج ولضرورته ، إنما حقيقة لا شك فيه . يقول ديكارت في القسم الأول من المقالة :

« بين كل أشياء هذا العالم ، يبدو أن الحسر الصحيح هو الأكثر مساواة في التوزيع ، إذ يعتقد كل إنسان أنه يمتلكه ... »^٤ .

إن ملكة تشكيل الحكم الصحيح وتمييز الصواب من الخطأ ، أو ما يسمى بالحسن الصحيح أو العقل ، هي ملكة متساوية ، طبيعياً ، بين كل الناس ... فاختلاف الأفكار لا يعزى إذا إلى كون بعض الناس أكثر عقلاً من البعض الآخر ، بل لكون أفكارنا تمرّ في أقنية مختلفة ولأن الموضوعات تُعبر من وجهات مختلفة فامتلاك قوى عقلية سليمة ليس كافياً ، ولكن المسألة الجوهرية هي استخدامنا الصحيح لها ...

ولا أتردد في القول أنني منذ طفولتي ، قد استترت على الدوام ، ولحسن الحظ ، باعتبار وقواعده ينبع منها منهجاً ، والذي أستطيع به أن أمتلك الوسائل التي أزيد بها معرفتي تدريجياً والارتفاع بها إلى أعلى نقطة ممكنة يسمح بها ضعف مواهبي وحياتي القصيرة ...

- هوذا إذا ، المنهج الديكارتي . فهو ليس ترقاً فكريّاً ، ولا إبداعاً يبقى في إطار الذات ، بل هو يستجيب ، على العكس ، لحاجات فعلية اختبرها ديكارت وعاني منها (وربما اختبرها الكثيرون كذلك) . لم يجد ديكارت في الفلسفة ما لا يطاله الشك والجدل ، ولم يجد في كل العلوم التي تشتق مبادئها من الفلسفة ، ما هو أعلى من الشك والخطأ ، إذ لا

٤. كل النصوص الديكارتية التي سترد في متن هذه المقالة تعود إلى كتابيه : مقالة في الطريقة ، وتأملات في الفلسفة الأولى ، وعليه فسائجنب العودة التفصيلية في إسناد النصوص .

شيء صحيحًا يعني على أساس غير صحيح. فإذا مكن الحاجة إلى منهج ، كما رأينا ، يعيننا في زيادة معارفنا والثقة بها . ويعرف ديكارت ، بعبارة أفضل ، منهجه في «قواعد لتجه العقل» : «إن المنهج هو مجموعة من القواعد اليقينية البسيطة التي تكفل لمن يراعيها بدقة ألا يتورّم الصدق في ما هو خطأ ، وألا يذر بمجهوداته الفكرية دونما هدف ، بل سيزيد من معرفته تدريجياً ، فيبلغ معرفة حقيقة في كل ما يمكن معرفته». - يمكن اعتبار هذه الصياغة الديكارتية ، تعريف ديكارت للمنهج ، كما يمكن القول أن منهج ديكارت هو ، باختصار ، مجموعة القواعد التي تكفل لمن يراعيها بلوغ المعرفة الحقيقة .

- ولكن ما هي هذه القواعد التي يتكون منها منهج ديكارت ؟
- يعّين ديكارت في «قواعد لتجه العقل» احدى وعشرين قاعدة ، يتكون منها منهجه ، يمكن اعتبار القواعد التالية أكثرها أولوية وأهمية :

القاعدة الثالثة :

- على بحثنا أن لا يتجه ، في الموضوعات التي نتفحصها نحو ما فكر به الآخرون ، أو ما نتوهّمه نحن ، بل نحو ما يمكن أن نستخلصه بدقة ، ولا يمكن نيل المعرفة بأي طريق آخر .
- هناك وسائلان لهذا معرفة يقينية : الحدس والاستنباط ؛ والحس ، هو إدراك عقل مستنير يقود إلى حقائق واضحة ، متميزة وأعلى من الشك والخطأ والوهب ، إنه بصيرة العقل والمعرفة المباشرة لطبيعة الموضوع .
- أما الاستنباط ، فهو يعتمد على الحدس ، أو التقدم من حقائق ثبت صحتها بواسطة الحدس ، إذ إن أموراً كثيرة تبدو يقينية ، رغم كونها ليست بدھية بذاتها ، بل مستنبطة من مبادئ معروفة وواضحة ، وذلك من خلال تسلسل من خطوة إلى أخرى .
- تلك هي القاعدة الأهم في منهج ديكارت ، حيث الواضح (والتميّز) هو علامة اليقين . فالمعرفة الواضحة المتميزة هي المعرفة اليقينية . وهي معرفة ما يمكن معرفته حقاً ، أي هو يخرج من إطار المعرفة اليقينية كل ما لا يمكن تبيينه حقاً مثل الأوهام والتخيّل والقوى المفترضة تقليدياً الخ ... هو تحرير للعقل من كل سلطة عدا سلطة الحقيقة .

القاعدة الرابعة :

- هناك حاجة لمنهج في سبيل بلوغ الحقيقة ، أما بدون ذلك فمثلنا يضيف ديكارت ، مثل بعض الناس يتحرّقون شوقاً للعثور على كثر فيجوبون الشوارع علّهم يعثرون على شيء تصادف أن سقط من عابر سبيل ، هي طريقة الكيميائيين وبعض المشتغلين بالهندسة وبعض الفلاسفة ولا شك أن مثل هذا البحث غير المنظم يفسد نور بصيرتنا ويعمي قدراتنا العقلية .

- هناك حاجة لمنهج يتربّك من خطوات محددة ومدركة كفيلة أن توصلنا الحقيقة ، أما دون ذلك فالبحث العشوائي مضلل ، مرّبك ولن يبلغ حقيقة .

القاعدة الخامسة :

- يتّألف المنهج ، إذا ما أُريد بلوغ الحقيقة ، من تقسيم وتحليل للموضوع الذي نبحثه ، وذلك طليباً للوضوح . وذلك «بردّ حديسي لكل ما هو بسيط وواضح». الهدف من هذا التحليل هو الحصول على معرفة يقينية لكل خطوة ثم قيام معرفة تكون جموع هذه المدوس الواضحة .

القاعدة السادسة :

- حتى يمكن فصل ما هو بسيط عمّا هو مركّب ولترتيب القضايا منهجاً ، علينا في حال كل سلسلة ، حيث استنبطنا الحقائق الواضحة واحدة من الأخرى ، أن نتبين ما هو بسيط . وبيان ذلك ، كما يرى ديكارت ، هو أن كل الحقائق يمكن أن تترتب في نظام منهجي . وإذا استندنا إلى «المقالة» لأضفنا أن هذه الخطوة هي لحظة التركيب للحقائق من بعضها البعض ، وبشكل ضروري ، وصولاً إلى المعرفة .

القاعدة الثامنة :

- إذا ما بلغنا ، في المسائل التي تغمس ، خطوة في السلسلة يبدو إدراكنا لها غير كاف لأن يكون حدساً إدراكيًّا ، فعلينا أن نقف عندها . علينا أن لا نحاول فحص ما يليها ، إذ سيكون عملاً لا طائل تمنه .

- يختصر ديكارت في «مقاله حول المنهج» ، هذه القواعد في أربعة هي على التوالي : الأولى : أن لا أقبل شيئاً على أنه صحيح ما لم أتبين بوضوح أنه كذلك ... وأن لا

- أفترض فيه أكثر فما أرى فعلاً، بحيث لا يبقى مكان للشك ...
- الثانية : أن أجزئ المسألة التي أبحثها إلى أكبر عدد مطلوب ومحكم من الأجزاء ، حتى تتحل في أفضل صيغة يمكن إدراكها .
- الثالثة : أن أرتفع بمعروفي من الأكثر بساطة وتجزيناً ، رويداً رويداً ، إلى ما هو أعلى من ذلك ، بنظام وترتيب دقيقين .
- الرابعة : أن أقوم في كل الأحوال بمراجعة لما أنجزته حتى أظل متأكداً من أنني لم أرتكب خطأ .
- هذه بعض أهم «قواعد المنهج الديكارتي» ، وهي تعكس بجملها ميل ديكارت نحو الوضوح والدقة . وإذا ما وضعنا جانباً شوق ديكارت نحو الوضوح مذ كان طفلاً كما يقول ، يتبيّن لنا أن هذا الميل قد نمى تحت ضغط عاملين إثنين :
١. تبرّم ديكارت من سفسطة الفلسفة وادعاءاتهم والادعاءات المضادة ، في خضم من الحجج والبراهين التي تعجز معها عن تبيّن الحق من الباطل .
 ٢. إعجاب ديكارت بالمنهج الرياضي ، نموذجاً للوضوح والدقة والموضوعية وما منهجه إلا محاولة في الاقادة من دقة الرياضيات ووضوحيتها ، خارج الغايات العملية المباشرة التي كانت مكرّسة لها .
- لم يكن ديكارت ، بالطبع ، أول من اكتشف الحاجة إلى قيام منهج جديد فنقد المنهج الأرسطي كان أمراً شائعاً قبل ديكارت ، وشكلية القياس الأرسطي وعجزه عن أن يقدم أية معرفة جديدة ، كانت حافزاً «لدافتشي» و«بيكون» ، وغيرهما قبل ديكارت . كما أن ميل ديكارت إلى النظام وتأكيده أن لا معرفة بدون تنظيم ، يمكن أن يفسر بوضوح من خلال تعلمذه لليسوعين ، وهم أهل نظام وترتيب وقواعد ، في المعرفة كما في السلوك .
- لكن ذلك لا يلغى ، بحال من الأحوال ، أصلالة العمل الديكارتي في البحث عن المنهج وفي ضرورة المنهج .
- لقد تمثل ديكارت ، بعقله الثاقب النظرة ، حاجة العصر وفي ميدان الفلسفة بالذات إلى منهج يكون سبيلاً نحو اليقين ، فآمن ، كما رأينا ، أن ملكة المعرفة موجودة في كل إنسان ، وإن كل إنسان قادر ، فيما لو أحسن استعمالها ، أن يعرف ، وأن تكون معرفته يقينية ، وخطاب ديكارت ، وبالتالي ، هذه الملكة في كل فرد .

وكم يبدو هذا تجديداً أصيلاً، إذ يختلف جذرياً عن طروحات الفكر القروسطي في تمييزه الت Tessif بين من هو قادر على المعرفة وبين من لا يقدر، وفي تمييزه كذلك بين ما يمكن معرفته وما لا يمكن، وهو لذلك تجديد ديمقراطي بمقاييس عصرنا. وعلى المستوى المنهجي التطبيقي حاول ديكارت كما سرني أن يصل إلى معرفة، إلى علم، يحوز شروط المنهج، أي شروط اليقين الذي لا يطاله الشك.

ثالثاً : من الشك إلى اليقين

- يبدو بدليهياً ، بعد أن امتلك ديكارت المنهج ، أن يتقدم ، مستخدماً قواعده خطوة أخرى إلى الأمام بجناً عن الحقائق اليقينية التي وحدتها تصلح أن تكون معرفة. أما دلالة اليقين عند ديكارت فهي الواضح والبساطة والتميز ، أي ما يبدو للنفس واضحاً بسيطاً متميزاً ، أي ما يبدو ، في أعلى شكل لها ، بدليهياً (أو بكلام آخر ما لا تستطيع إلا أن تسلم بداعه بصدقه). وإذا أردنا أن نفهم ذلك بصورة أفضل علينا أن نستعين بقواعد الرياضيات (نموذج اليقين الدائم) . فكما نبدأ في الهندسة بمبادئ مطلقة ، واضحة بنفسها ، متميزة ولا يرقى إليها شك مثل القول «إن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين» ، كذلك علينا أن نبدأ في الفلسفة ، فيما لو أردنا اليقين ، بمبادئ مطلقة ، واضحة بنفسها ، متميزة ولا يرقى إليها الشك ، ثم نبني على أساسها مبادئ وقواعد أخرى وصولاً إلى المعرفة اليقينية التي ننشدها .

أين هي تلك المبادئ الأولية المطلقة الواضحة؟

وكما يجد ديكارت تلك المبادئ ، يخضع كل معتقداتنا ومعارفنا لعملية فحص شاملة ، عملية نقد معرفته ، لمعرفة مدى صدقها ومدى انسجامها ومعيار اليقين الذي يقترحه ديكارت. هذه العملية هي جوهر الشك الديكارتي :

- * الشك في كل ما يحتمل شكًا ، أي في كل ما هو قابل للشك.
- * الشك إذاً ، ليس هدفًا في ذاته ، هو ليس شكًا في سبيل الشك – كما شك بروتااغوراس وبيرون وغيرهما من قدماء مفكري اليونان.

الشك الديكارتي هو خطوة في سبيل تحصيل المعرفة الحقيقة ، هو الوجه السلبي لعملية

اكتشاف المعرفة وبنائها . هو النبي الذي ينفي كل ما هو غامض وبائس ، ويلغي كل ثغرات الببلة وعدم الوضوح ، وذلك من أجل تأسيس قاعدة للمعرفة ، صلبة ، وواضحة ومتميزة . وممقاصد ديكارت من شّكّ جلّيّة في قوله التالي :

« أما في ما يتعلق بكل الآراء التي تعلّمتها حتى الآن ، فاني لا أجد أفضل من كنسها ، جميعاً ، بعيداً ، كما يمكن استبدالها في ما بعد بأفضل منها أو بالإبقاء عليها حين ثبت يقينيتها ».

وهكذا يبدأ ديكارت شّكّاً منهجاً واعياً ومقصوداً . يمكن أن نتبين بوضوح أن كل الأفكاير والمعتقدات والآراء التي تعلّمناها ، قابلة لأن يشك فيها ، فهي أدنى من درجة اليقين إذ تبدو مشوّشة ، غامضة ومتناقضه . غير أن إحساساتي تبدو أكثر وضوحاً وأكثر يقيناً : « فأنا لا أستطيع أن أشك ، اني هنا قرب المدغاة مرتد ثيابي وهذه الورقة بين يدي ... ثم كيف أني أن هاتين اليدين وهذا الجسم هنا لي ...

(ولكن) أتذكرة أني اعتدت أثناء نومي ، أن أتمثل في أحلامي نفس الأمور التي أراها في يقظتي ... فلتتوهم أنتا نياً وأن كل هذه الجزئيات ، مثل أن نفتح أعيننا ، نهز رأسنا نمد أيدينا وهكذا ، وان كلها أوهام كاذبة ، ولكن لنعرف ، مع ذلك ، أن هناك أموراً أكثر بساطة وأكثر شمولاً وهي حقيقة وصادقة . فالحساب والهندسة وما شابه من العلوم تعالج أموراً بسيطة وكلية جداً ، دونما أن تعني بوجودها الفعلي أو عدم وجودها ، ولهما مقاييس واضحة ، فاثنان وثلاثة يساويان خمسة ، في يقظتي كما في منامي ، وكذلك المربع لا يمكن أن يكون له أكثر من أربعة أضلع ، ولا يمكن أن يتتاب هكذا حقائق واضحة وبينة شك أو ظن خطأ . ثم يخضع ديكارت هذه الحقائق الواضحة والبيئة لشك من نوع آخر إذ لعل خالي ، « الله البالغ العظمة » ، جعلني أرى ما أرى وجعلني أخدع كلما جمعت إثنين إلى ثلاثة .

ولكن كيف يمكن ، لله ، يتساءل ديكارت ، أن يريد بي ذلك وهو الخير الأعظم ، إن ذلك يتناقض مع مفهوم الله وتعريفه وطبيعته ، ولا يمكن أن يسمح بخداعي .

لكن هذا يفتح نافذة شك أخرى ، إذ لا برهان واضحًا ان الله هو خير ، كما يوصف ، وأنه الحقيقة كلها ، « إذ قد يكون شريراً عبقرياً لا يقلّ خداعه عن قوته ، حيث وظّف كل طاقاته لخداعي ... » وطبعاً لذلك يتباهي الشك في الأرض والسماءات وما عداها إذ قد تكون أوهاماً وأحلاماً ، جعلها ذلك العقري تبدو لي أشياء موضوعات وأرضاً وسماء... ويضيف

ديكارت «وأخيراً فإني أعرف أن لا شيء ، مما كنت أعتقد صادقاً وحقيقياً ، ألا ويكن
بشكل أو باخر ، أن أشك فيه...».

هناك شك إذاً يطال كل شيء وكل موجود ، ولكن فهو حقيقة شك مطلق؟ أما من أمر
يقى خارج هذا الشك ولا يرقى إليه شك .

بل هناك أمر واحد يقى خارج الشك ولا يرقى إليه شك .

إذ وسط هذا الشك الشامل ، هناك حقيقة واضحة لا يمكنني الشك فيها ، وهي أنني
أشك . وتبقى هذه حقيقة واضحة حتى لو اعترضت أسوأ الاعتراضات فلو افترضت أن
هناك إلهاً خادعاً ، وأنه يخدعني في ما أرى وأحس وأفكر وانه يخدعني في يجعلني أرى أن
 $3 + 2 = 5$ ، لكنه لا يستطيع أن يخدعني في مسألة وجودي ، إذ يجب أن تكون موجوداً
حتى أُخدع . ومما يبلغ الشك ، حتى لو شككت في وجودي ، فذلك يؤكد تلك الحقيقة
الواضحة ، على أن تكون موجوداً حتى أشك (حتى في وجودي) .

«لا شك أنني موجود حتى ولو خدعني ، وليخدعني ما طاب له ذلك ... وهكذا
وبعد تفكير وفحص دقيق لكل الأشياء نصل إلى نتيجة محددة هي أن الفرضية ، أنا
أكون أو أنا موجود ، هي صادقة بالضرورة كلاماً ألتلفظ بها ، واني أدركها ...» .
وهكذا يصل ديكارت ، وبعد أن شكل في كل ما يمكن أن يشك فيه ، إلى الحقيقة
الأولية الواضحة التي لا يمكن الشك فيها . لقد استطاع أخيراً وبتطبيق منهجه ، أن يبلغ
ذلك ، «المطلق» البسيط الواضح . وذلك المطلق هو الذات ، التي تحول عند ديكارت إلى
القاعدة الصلبة الصحيحة لكل فلسفته . والطريق نحو اكتشاف تلك الحقيقة الأولية لم يكن
غير الشك ، الشك في كل ما يمكن ، أو في كل ما يتخيّل أنه يمكن ، الشك فيه وصولاً إلى
اليقين المطلق الذي لا مكان فيه لاحتمالات الشك والتوهّم . ويصل ديكارت إلى قضيته
اليقينية الصادقة بالضرورة : «أفك ، إذن ، أنا موجود» .

هذا اليقين لا يمكن أن تكون فيه خطأً أو منخدعاً ، فكوني أشك أو كوني أفك
متضمن ضرورة كوني موجوداً . فكوني أفك يقود ضرورة إلى تأكيد هذه الكينونة أو الأنـا ،
أو الذات : الحقيقة الأولية الواضحة البسيطة التي ستتصبح نقطة البداية في فلسفة ديكارت
في الأقسام التالية .

٥. تأملات حول الفلسفة الأولى.

نكتفي بهذا الجانب من الفلسفة الديكارتية ، إذ إن الجوانب الأخرى لا تعنينا في المجال المحدود الذي اخترناه موضوعاً لهذه المقالة .

وأخيراً ، هل نجح ديكارت في صياغة قواعد منهجية تستجيب لمطالب العصر والمنطق في آن .

هل تكون قواعد المنهج التي أقترحها سبيلاً عملياً وتطبيقياً ، يمكن تطبيقه من جهة ويمكن الإفادة منه ، من جهة ثانية ؟ أو أنها مجرد نظرية أخرى ، أو « وصفة » نظرية أخرى نسبتها بعنابة ودقة وجلال ثم نقف خارجها أو إلى جانبيها ، كما لاحظ ، بحق ، سورين كيركجارد الفيلسوف الوجودي الدانماركي ؟ (هل تمكن ديكارت منذ الالتزام بقواعد المنهج في المذهب) ؟

إن مياهاً كثيرة قد جرت تحت الجسور ، علمياً ومنهجياً ، بعد ديكارت^٦ ؛ لكن هذه التحولات لم تذهب بأهمية ما أنجزه ديكارت على مستوى المنهج ؛ وهي إشكالية أخرى تحتاج إلى تحليل مستقل وسنحاول الإجابة عليها في مقالة لاحقة .

٦. راجع على سبيل المثال ترجمتنا لكتاب بيتر مدور في المنهجية : « الاستقراء والحدس في البحث العلمي » ، بيروت ، ١٩٩١

الأنتروبولوجيا علمُ الماضي في الزمن الحاضر

محمد حسين دكروب

خلال القرن التاسع عشر ، تكرّست الأنتروبولوجيا كميدان علم مستقل ، له تقنياته الخاصة ومحال بحثه المتميز : المجتمعات المسمة « بدائية ». لقد شكّلت ولادة هذا العلم الجديد عن الإنسان ، إسْطِرَاداً لمنحي تاريخي قديم : الإكتشاف المتدرج أو التدرجي من قبل أوروبا للمجتمعات « الأخرى » أي المختلفة وغير الصناعية^١.

في الحقيقة ، إن الأضواء سلطت منذ القرن التاسع عشر على تنوع واختلاف الأعراق البشرية وأشكال تنظيماتها الإجتماعية ، وذلك حين بدأ الرحالة والمكتشفون الأوائل في أوروبا الغربية بالتعرف الأولى على أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى ؛ وأحد أشهر هؤلاء ، كان الرحالة الإيطالي ماركو بولو Marco Polo (١٢٥٤ - ١٣٢٤) الذي زار الصين وأقام فيها مدة ستة عشر سنة ، أطلق بعدها كتابه الشهير « عجائب الدنيا » الذي لا يزال يلاقي نجاحاً كبيراً حتى اليوم.

هذا الاهتمام بالمجتمعات « الخارجية والغربية » ، إزداد منذ عصر النهضة في أوروبا ، خاصة خلال مرحلة التوسيع الإستعماري ، الإقتصادي والسياسي الملائم لنمو الرأسمالية المادفة للتفضيش عن مصادر جيدة للمواد الأولية الضرورية للتطور الصناعي ، وعن أسواق إستهلاكية جديدة لتصريف بضائعها^٢ ؛ لذا ومع الحملات العسكرية والت التجارية كثرت المؤلفات والروايات التي تصف مجتمعات القارات الأخرى وأنواع البشر الذين يعيشون فيها ؛

١. من المفيد العودة في إطار تاريخ هذا الميدان ، موضوعاته وإنماهاته المختلفة إلى كتاب Paul MERCIER, *Histoire de l'anthropologie*, P.U.F. Paris 1971.
٢. حول علاقة الأنتروبولوجيا بالسياق التاريخي للتوسيع الإستعماري الغربي ، يراجع بهذا الصدد كتاب : جيرار لوكلرك، الأنتروبولوجيا والإستعمار ، ترجمة د. جورج كورة ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ١٩٨٢. أو كتاب د. حسين فهيم ، عالم المعرفة ، بعنوان « قصة الأنتروبولوجيا فصول في تاريخ علم الإنسان » ، عدد ٩٨ ، الكويت ١٩٨٦.

ومع بداية القرن الثامن عشر تابعت وترابطت جهود البحث في هذا الإطار وتم إكتشاف المجتمعات «المحيطية» التي أُلْحِقَت بال التالي بخارطة العالم ، إضافةً لمواصلة التوغل في إكتشاف شمال شرق آسيا ، مع التعمق في مجالات مجهرة في القارة الأفريقية.

ان محمل الإكتشافات والمعطيات التي جُمعت عن المجتمعات غير الأوروبية ، كانت في البداية دافعاً لتجديف الفكر الفلسفى عن الإنسان وطبيعة وجوده ، هكذا فإن موضعية الإنسان «المتوحش الطيب» الذي يمثل نقىضاً للإنسان «المتمدن الحديث» قد شغلت حيزاً كبيراً من اهتمام فلاسفة كبار أمثال ديدارو Diderot ، برناردين Bernardin ، سانت بيير Saint-Pierre وروسو Rousseau مع ما أفضت إليه من ظهور أفكار فلسفية كثيرة حول وجود تطور إنساني آحادي الوجهة ، يبدأ من حالة بدائية أصلية ويتهمي في الأشكال المعقّدة التي يجسدها المجتمع الصناعي .

نستطيع القول إذاً ، إن كلمة الأنثروبولوجيا قد استعملت منذ نهاية القرن الثامن عشر ، بهدف الرد على محمل الأسئلة المتعلقة بالأصول ، التشابهات والإختلافات القائمة بين مختلف المجتمعات البشرية المعروفة حتى ذلك الحين ، وهي بهذا التحديد كانت تعنى ولا تزال بالإنسان في مختلف أشكال إرتقاءه وتطوره وإنتظامه على مختلف الأصعدة ، من الفيزيولوجي السلالي إلى الإيديولوجي مروراً بالإقتصادي والسياسي والقرابي ، بلوغاً للرمزي والأسطوري ، المعتقد والديني^٣ ، إنها والتعرّيف من الأنثropolجي البريطاني الكبير راديكليف براون Radcliffe Brown : «دراسة طبيعة المجتمع الإنساني دراسة منهجية منظمة ، تعتمد على مقارنة الأشكال المختلفة للمجتمعات الإنسانية ، بالتركيز على الأشكال الأولية للمجتمع البدائي»^٤ .

مع تطور هذا الميدان العلمي الجديد ، اختلفت التسميات التي أطلقت عليه ، وذلك باختلاف المعاني والدلائل التي أعطيت له من قبل الباحثين الغربيين على تنوع جنسياتهم ، ثقافتهم ولغاتهم هكذا أصبح هناك لُبُسٌ بين مصطلحات من مثل الأنثغرافيا Ethnographie والأأنثولوجيا Ethnologie والأأنثروبولوجيا Anthropologie ؟ هنا لا بد من التوضيح أن الفارق في الاستعمال بين مصطلحـي الأنثـولوجـيا والأـنـثـرـوبـولـوجـيا هو

٣. د. محمد حسين دركوب ، الأنثروبولوجيا ، الذكرة والمعاشر ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ٥.
٤. Radcliffe BROWN, *Method on social anthropologie*, Chicago 1958, p. 133.

فارقٌ في الإستخدام اللغوي المادف لإعطاء مضمون هذا العلم الدقة اللازمة والإطار الواضح ، ففي حين إستخدم الإنكليز مصطلح الأنتروبولوجيا بمعنى علم الإنسان بشموليته وسعة آفاقه ، نرى أن الأميركيين والفرنسيين قد إستخدموا مصطلح الأنثropolوجيا بمعنى علم الشعوب بما تحتويه من تميزاتٍ عرقيةٍ ، ثقافية وحضارية ، ولكن وبغض النظر عن هذه المسألة ، فإن التفارق العلمي هو أساساً في كيفية إستخدام كلاً من مصطلحي الأنثروغرافيا والأنثروبولوجيا أو الأنتروبولوجيا وعدم جواز الخلط بينها :

الأنتوغرافيا : تقوم على مراقبة بعض الجماعات البشرية من خلال المشاهدة الحقلية المباشرة ، وهي بهذا تلجم إلى وصفِ دقيقٍ وتجمّعٍ لكل المعطيات التفصيلية والجزئية المتعلقة بحياة مجموعةٍ ثقافيةٍ محددةٍ في الزمان والمكان إستناداً إلى منهج الدراسة الحقلية المفردة Monographic بهدف تسجيل كل مظاهرها على مختلف الأصعدة (البيئة ، التقنيات ، الاقتصاد ، السياسة ، الدين ، القرابة) الأنثروبولوجيا أو الأنتروبولوجيا : فهي تقوم بالمعنى الحصري المعاصر لها على الدراسات التوليفية والتحليلية مع ما يتربّع عليها من نتائج نظرية ، وذلك إستناداً إلى التوثيق الأنتوغرافي السابق الذكر ، والذي يهدف بشكلٍ مخصوص نحو مسائل الإنتشار ، الإتصال ، التواصل والأصل بالمعنى الثقافي العام ، إضافة إلى التراكيب الاجتماعية القائمة على بنى ومفاصل متنوعة الوظائف والحركيات .

نستطيع القول على الإجمال ، أن المنهج في الأنتروبولوجيا يستند إلى الدراسة العينية المباشرة ، وذلك من خلال حضور الباحث ومعايشته لعقل المجتمعات أو القبائل موضوع الإهتمام ؛ والمبدأ الرئيسي لهذا التوجه العلمي هو ما يسمى المشاهدة المشاركة Observation participante) التي تتطلب شروطاً تقنيةً وتجريبيةً شخصية تكوينية لدى الباحث ، تسمح له بالإخراط اليومي في زمن النسيج الاجتماعي بما يحتويه من علاقاتٍ وقيمٍ ومعتقدات ؛ مع القدرة على فهم وإستيعاب أشكالها ومضامينها وبالتالي الربط والتوليف اللاحقين بينها توخيًا لنتائج نظرية عامة يتشكل منها بمحمل الإرث العلمي والمنهجي الذي عرفه الميدان حتى اليوم .

للأنتروبولوجيا إذن طموحٌ كلي ، شمولي في النظر إلى الإنسان وذلك بقدر ما تتيحه خاصية التنوع الحضاري والإختلاف الثقافي من رؤية وتبصر ؛ كيف السبيل إلى هذا المهدف وما هي خاصية السياق التاريخي الذي جعل من هذا الميدان علمًا يختص بدراسة ما يسمى

بالشعوب «البدائية»، «اللاتاريجية» كما يُقال، حيث التدوين المكتوب يختفي أمام الحضور الدائم لفعل التواصل بين الماضي والحاضر والمستقبل؟! (الذاكرة).

هنا نتساءل مع الأنثropolجي البريطاني الكبير إيفانز بريتشارد Evans Pritchard ، ماذا يقصد بالشعوب «البدائية»؟ ولماذا تدرس هذه الشعوب؟ إن كلمة «بدائي» بالمعنى الذي تستخدم به في الكتابات الأنثروبولوجية لا تعني أبداً أن المجتمعات التي توصف بها أسبق في الزمن أو أدنى متزلاً من أنواع المجتمعات الأخرى. فمن المعروف أن لتلك المجتمعات تاريخاً طويلاً قد يماثل في طوله تاريخ المجتمعات الأوروبية نفسها ، وأنه إذا كانت هذه المجتمعات لم تتطور في بعض النواحي بنفس النسبة التي تطور بها المجتمع الأوروبي فإنها تفوقه تطوراً في الواقع في نواحٍ أخرى^٦.

لقد تحفظنا كما هو ملاحظ حول استعمال مصطلح «البدائية» وصفاً للشعوب التي تتناولها الأنثروبولوجيا بالدراسة ، لقد وضعناه بين مزدوجين حذراً وتبنهاً لعدم جواز ومشروعية قياس درجة تطور بعض الشعوب نسبةً لما هو حاصل عند شعوبٍ أخرى ؛ ف مجرد تسمية هذه الشعوب «بدائية» ، تكون قد لجأنا إلى حكمٍ تقييمي مسبق بصدق هذا «الآخر» المختلف نسبةً لما «نحن» عليه من حال ، مما يدفع للتساؤل : نسبةً إلى أي مقياس هذا «البدائي» هو «بدائي»؟ وإستناداً إلى أي منظور علمي أو تاريخي أو أخلاقي يستطيع العلم - أي علم إنساني - اللجوء إلى قياس «الآخر» إنطلاقاً من الذات (هنا الذات الحضارية الأوروبية)؟ ! ذلك أن كل جماعة بشرية تتطور نسبةً لما يمليه عليها نسقها الحضاري الخاص من محددات ومن حركةٍ تاريخية - مرئية كانت أم كامنة ، متسرعة أو بطيئة - وهذه الظروف هي قطعاً مختلفة ومتعددة بمقدار اختلاف وتتنوع أنماط إنتظام الإجتماع البشري والحضاري^٧.

هنا أرى من المفيد التنبيه إلى ضرورة التمييز بين المعنى اللغوي لمصطلح «بدائي» وبين المعاني والمضامين التي أعطيت له بما وُسِّمت به المجتمعات المندرجة في إطاره ، من مواصفات ومعايير تقويمية ؛ إذا كان هناك إصطلاح يرتبط بالأنثروبولوجيا دائمًا فهو

٥. د. محمد حسين دكروب ، المرجع السابق ، ص ٦.

٦. إيفانز بريتشارد ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، ترجمة د. أحمد أبو زيد ، هـ. م. ع. ، الإسكندرية ١٩٨٠ ، ط ٦ ، ص ٢٦.

٧. د. محمد حسين دكروب ، المرجع السابق ، ص ٧.

إصطلاح «البدائية» الذي يستعمل لوصف معلومات وجدتها الأنثربولوجيون بقاع العالم. فهناك علم بدائي ، ودين بدائي ، وإقتصاد بدائي ، وعقلية بدائية بدائية ، ومجتمعات وثقافات بدائية^٨؛ أما المعنى اللغوي المعجمي لكلمة المشتقة من Primitif الفرنسية ، المشتقة من الكلمة Primus اللاتينية ، Primus ومعناها ، [الأول] : ما يتعلّق بالبداية أو الأصل ، الأقدم في الزمن الأصلي ، مثل العصور الأولى الدين ، أجدادنا الأوائل^٩؛ بمعنى أن الأشكال المجتمعات البدائية هي أشبه ، من حيث خصائصها العامة ، بالخصائص التي سادت في الثقافات الأولى لطفولة البشرية^{١٠}.

من الواضح إذن ، إن ما يحتمله هذا المصطلح من مضمون ومحنتى ، تقويم المجتمعات المكتشفة «حديثاً» من قبل أوروبا ، قياساً إلى معايير الارتفاع وعرفها التاريخ الحضاري لهذه الأخيرة من مراحل تسم بسيادة مواصفات عدة الإجتماعية والثقافية والتكنولوجية ، وبمعنى في هذا الصدد القول ، أن الأنثربولوجيين يستخدمون هذا المصطلح فإنهم يقصدون بها الإشارة إلى المجتمعات الصغيرة سواء السكان أو المساحة أو تشعب العلاقات الإجتماعية ؛ والتي تمتاز ببساطة الفعل والإقتصاد وقلة التخصص في الوظيفة الإجتماعية إذا ما قورنت بالمجتمعات المتقدمة بعض الأنثربولوجيين أن يضيفوا إلى ذلك مقاييس ومعايير أخرى أهمها عدم و مكتوب وبالتالي عدم وجود أي فن أو علم أو لا هوت منهجي منظم^{١١} ؛ إن أكثر للدلالة عن نظرية الأوروبيين لهذه المجتمعات في اعتبارها :

sans foi	sans roi	sans loi
بدون إيمان	بدون ملك	بدون قانون

وذلك بالإستناد طبعاً ، إلى مقارنة الأشكال والنظم ، المؤسسات ، القيم «البدائية» هذه ، بتلك السائدة في المجتمعات «المتقدمة» و «المتطورة».

٨. تحرير أشلي مونتاغيو ، عالم المعرفة ، «البدائية» ، ترجمة د. محمد عصافور ، رقم ٥٣ ، الكويت ١٩٨٢
٩. المرجع السابق ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .
١٠. المرجع السابق ، ص ١١٢ .
١١. Robert REDFIELD, "The folk society", *The American Journal of Sociology*, 1947. ورد في كتاب إيفانز برتراند ، ص ٢٧ .

ان من الضروري حتى الآن ، القيام بهذه التوطئة التمهيدية في التعريف الأولى هو علم « الأنثروبولوجيا » ، وذلك تسهيلاً على القارئ غير المتخصص اللوّج إلى صoux الذي نعاشه في هذه المقالة المنهجية والمتعلق أساساً بطبيعة العلاقات التي ن علم التاريخ وعلم الأنثروبولوجيا ، أين هي المشكلة في هذه العلاقة؟ ما هو موقع خ من دراسة المجتمعات « البدائية » وهي التي لا تعرف أصلاً فن كتابة هذا وهل أن غياب الكتابة أو الجهل بها يؤديان إلى غياب ونفي التاريخ عن هذه التي تصبح كذا ذهب بعض الإتجاهات في الأنثروبولوجيا ، المجتمعات لا ما هو السبيل إذاً لتحديد تاريخ هذه المجتمعات ومعرفته طالما لا وجود أصلاً بوجيا ولتدوين مراحل التطور التاريخية التي عرفتها؟ ! بإختصار نقول ماذا يستطيع يوجيا الحال كذلك أن يقدم إلى علم التاريخ؟ !

دبيهي القول بأن كل الحضارات والمجتمعات التي عرفتها البشرية حتى الآن ، هي ومجتمعات تاريخية ، إذ أن القول بإنداد التاريخ عند إحدى هذه المجتمعات ، ورقة القول بإنداد وجودها نفسه ، وبالتالي فإن المجتمعات « البدائية » هي بالضرورة منها ، المجتمعات تاريخية ولو أنها لا تعرف فن كتابة تاريخها الخاص ، ولا يصح بصفة « اللاتاريخية » إنطلاقاً من أنها لا تمتلك وثائق مكتوبة تدويناً لهذا التاريخ . هذا الموضوع فتح الباب أمام أكثر الإشكاليات المعاصرة بعلاقة التاريخ رجيا ، والتي عبر عنها الأنثولوجي الفرنسي الكبير كلود ليثي ستراوس بقوله ؛ إن الأثنولوجي هي : « في إعادة بناء ماضٍ يتعدّد الوصول إلى تاريخه أو كتابة ضر لا ماضي له »¹² .

كيف يمكن لعلم التاريخ أن يتناول المجتمعات « البدائية » موضوعاً لبحثه ، طالما أن ماضيها ، تركيبه وتحليل أنساق إرتقاءه وتطوره هو مسألة متعددة أصلاً لعدم توافر نصاري المكتوب المعبر عنه ، أي عدم توافر التاريخ المكتوب ، المدون والموثق ،

ني ستراوس ، الأنثروبولوجيا البنوية ، ترجمة د. مصطفى صالح ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٦

مرجعاً للدراسة والتحقيق؛ هذا من جهة، أما من جهة أخرى، فكيف الأنتروبولوجيا الإنطلاق في مقاربة تلك الحقيقة الحضارية المعاصرة والمسماة بـ «هدف كتابة تاريخها الحاضر فقط، وذلك بالإنقطاع عن شرط التواصل الضروريين مع بعدها الزمني الماضي، مما يؤدي بكل بساطة إلى إلغاء تاريخ هذه أي إستطراداً إلى إلغاء وجودها بالذات؟» ؟ ذلك أننا حينما نقتصر على اللحظة احياة مجتمع ما، نكون أولاً ضحية وهم: لأن كل شيء تاريخ؛ فما قيل بالأمس قيل قبل دقيقة تاريخ؛ لكننا نحن نحكم على أنفسنا وعلى وجه الخصوص بعدم الحاضر، لأن التطور التاريخي وحده هو الذي يتتيح بروز عناصر الحاضر وعلاقتها المتباينة.^{١٣}

ماذا يعني ما تقدّم؟ هل يعني أن الأنتروبولوجيا ذات علاقة سلبية ببعد الشعوب، أي أنها اختصت لنفسها عبء معاينته ما هو لا تاريخي من الوجود للشعوب؟ أو ما هو ثابت من بنية إجتماعها ثبات الدورة التكرارية لزمنها؟^{١٤} هالمفید أن نطرح أمام القارئ غير المتخصص بعضًا من الخطوط الرئيسية العامة التعاطي المنهجي مع هذه المسألة، وذلك من قبل الاتجاهات النظرية الكلاسيكية التي عرفها الميدان العلمي الأنتروبولوجي حتى الآن، ونحن إذ نلجم هذه الطريقة الموضوع فإنما نهدف إلى تسهيل الطريق أمام الإستنتاجات الأولية للحلول بصدد.

الخيار التطوري^{١٥}، وهو يقوم على اعتبار «الآخر» هو شكل أدنى ومتاخر تطور «الذات الحضارية» الغربية، وحيث أن التطور التاريخي لا بد له أن يتم حتمي وضروري إتجاهًا عددًا (إتجاه التطور الأوروبي) فإن قدر المجتمعات الراهنة، بما هي تعيش حالة متأخرة داخل أحد مراحل التطور التاريخي

.١٣. المرجع السابق، ص ٢٩.

.١٤. د. محمد حسين ذكروب، المرجع السابق، ص ٢٢.

.١٥. ظهرت الأعمال الكبرى لهذا الاتجاه وتكرست كمدرسة في الفترة التاريخية ما بين ١٨٦٠ - ١٨٨٠ مؤلفيه، لويس مورغان في كتابه عن أنساق روابط الدم والمصاهرة في العائلة الإنسانية (١٨٧١)؛ بـ عن حق الأم (١٨٦١)؛ تايلور في كتابه عن أبحاث في التاريخ القديم للجنس البشري، (١٨٦٥)؛ عن القانون القديم (١٨٦١)؛ جاكلينان في كتابه عن الرواج البدائي (١٨٦٥) الخ.

، البربرية ، المدنية) هو الوصول آجلاً أم عاجلاً إلى مرتبة تطور المجتمعات المعاصرة ؛ ولقد علق هذا الاتجاه التطوري في الأنثروبولوجيا أهمية فائقة في أبحاثه عات «البدائية» لإثبات أن الأشكال الاجتماعية السائدة فيها ، ليست سوى تعبيرات من الجحود التاريخي سبق للتاريخ الاجتماعي الأوروبي أن مر بها وتجاوزها إلى حرى أكثر رقىً . إذا فالتأكيد على الشمولية التاريخية للإنسان الأوروبي ، تجعل من البدائي « في حالة تماثل مع « الطفولة الإنسانية الأوروبية » ؟ ... وهنا يأخذ العلم بجي دوره في « تهيئة » هذه المجتمعات المتأخرة لاستقبال مراحل التطور ! ٩

إِسْتَنْتَاجَاتُ النَّظَرِيَّةُ الْعَامَّةُ وَوِجْهَةُ التَّحْلِيلِ الَّتِي أَرْسَاهَا هَذَا الْخِيَارُ التَّطُورِيُّ ؛ قَدْ سَاسَ الْعِلْمِيُّ لِنْوَ الْتِيَارِ الْمَارْكُسِيِّ الْأَنْتَرُوبُولُوجِيِّ لَاحِقًاً ؛ أَيْ مِنْذَ مِنْتَصْفِ هَذَا بَيْانًاً فِي فَرْنَسَا عَلَى وِجْهِ الْخَصْصُوصِ ؛ إِنَّ الْأَنْتَرُوبُولُوجِيِّينَ الْمَارْكُسِيِّينَ مِنْ أَمْثَالِ كَلُودِ مُورِيسِ غُودُولِيَّيِّ ، إِمَانُوِيلِ تِرَايِ وَبِيَارِ فِيلِيبِ رَايِ ، قَامُوا بِإِنْتَاجِ بَعْضِهِمْ عَلَى الْمُحَصَّلَةِ الْعَامَّةِ لِمَا يُسَمِّيُ الْيَوْمَ بِالْأَنْتَرُوبُولُوجِيِّ الْإِقْتَصَادِيِّ ؛ إِنَّ الْمُفَصِّلَ الْمَنْهَجِيَّ كُلُّ هَذَا الْجَهَدِ الْمَارْكُسِيِّ ، يَحْدُدُ قَاعِدَتِهِ الْعِلْمِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ فِيهَا بِلُورِهِ ، أَحَدُ مُؤْسِسِيِّ رَكْسِيَّةِ عَنِ الْجَمَعِ وَالتَّارِيخِ ، فَرِيدِيرِيكِ إِنْجِلْزِ ، فِي كِتَابِهِ الْمُشْهُورِ « أَصْلُ الْعَائِلَةِ ، نَاسِيَّةُ وَالْدُّولَةِ » وَذَلِكَ إِنْطَلَاقًاً مَا قَدْ تَوَصَّلَ إِلَيْهِ كَلَّاً مِنْ مُورِغَانَ وَتَايِلُورَ ، الَّذِينَ شَمُولِيَّةِ لِقَوْانِينِ التَّطُورِ الْبَشَرِيِّ التَّارِيَخِيِّ وَأَقَامُوا عَلَى أَسَاسِهَا تَرْسِيمَةِ مُتَدَرِّجَةِ لِسَمْ لِلْحَضَارِيِّ الْبَشَرِيِّ ، وَضَعُوا فِيهِ كُلَّ الْمَجَمُوعَاتِ الْخَارِجَةِ عَمَّا إِسْتَقَرَ عَلَيْهِ النَّسْقُ الْأَوْرُوبِيِّ ، عَلَى درَجَاتِ أَدْنَى ١٧ .

يُنَّ عَلَى هَذِهِ « الشَّمُولِيَّةِ التَّارِيَخِيَّةِ » لِقَوْانِينِ التَّطُورِ الْبَشَرِيِّ الَّتِي أَنْتَجَهَا الْمَارْكُسِيَّةُ التَّارِيَخِيَّةُ) فِي سِيَاقِ تَحْلِيلِهَا لِلتَّشْكِيلَةِ الإِجْمَاعِيَّةِ الرَّاسِمَالِيَّةِ فِي أُورُوباِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ الْهَاجِسِ الْمَركِزِيِّ لِلْأَنْتَرُوبُولُوجِيِّينَ الْمَارْكُسِيِّينَ ، يَكُونُ فِي كِيفِيَّةِ الْوَصْولِ إِلَى صِيَغَةِ هَذِهِ الْقَوْانِينِ خَارِجَ الْمَحَالِ التَّارِيَخِيِّ الْأَوْرُوبِيِّ ، أَيْ فِي التَّشْكِيلَاتِ الإِجْمَاعِيَّةِ إِلَى الإِنْتَاجِ الرَّاسِمَالِيِّ ، إِنَّهُ تَحْدِيدًا هُمُ الْوَصْلُ بَيْنَ « شَمُولِيَّةِ التَّارِيخِ الْأَوْرُوبِيِّ »

دَ حَسِينَ دَكْرُوبَ ، « الْأَنْتَرُوبُولُوجِيُّ وَالْأَنْدِيَّةُ الْحَضَارِيَّةُ لِلْغَرْبِ » ، مجلَّةُ الْفَكْرِ الْعَرَبِيِّ ، عَدْدُ ١٩ ، ١٩٨١ ، صَ ٦٠ .
دَ حَسِينَ دَكْرُوبَ ، الْذَّاكِرَةُ وَالْمَعَاشُ ، صَ ١١٦ .

«خصوصية تمثيله» في المجتمعات الأخرى المختلفة^{١٨}. هكذا، فإن المشكلة التي طرحتها هذا التيار الماركسي في تعامله مع المجتمعات «البدائية»، تكون أساساً في كيفية إستعمال مفاهيم مثل (أسبيقية القوى المنتجة، الملكية، تحديد نمط الإنتاج، أولويات الصراع الطبقي وأشكال التعبير عنه، تفعيل القوى المنتجة على علاقات الإنتاج). إذن، هناك ضرورة تاريخية للت Burgess الاجتماعي الفعلي لمفهومي التناقض والصراع في كل التشكيلات الاجتماعية التي عرفتها البشرية حتى الآن؛ ولكن ما العمل إذا كان «قدر» آلاف المجتمعات «البدائية» أن تستعصي أبداً على هذين المفهومين، على الرغم من محاولات القرب الكثيفة لتصدير «جريدة» الإنقسام الاجتماعي الأفقي، بالمعنى الاقتصادي للكلمة تحديداً، إلى الجسد البدائي مستحلاً لهذه الغاية كل ما أنتجهت عقريته العلمية والتكنولوجية من وسائل: أسلحة فتاكة، عسكر، إرساليات دينية، إدارات وأجهزة، إبادة جسدية وحضارية الخ...^{١٩}.

للحقيقة يُقال، إنها المنطق الاقتصادي لم يكن بمقدوره إغواء الأنثروبولوجيين، بقدر ما كان عاجزاً عن إعطاء صورة واضحة عن الوظائف الاجتماعية المعقّدة السائدة في المجتمعات «البدائية»، بما تحتويه من عناصر متناقضة، سياسية، قرائية، أسطورية... وفي الوقت الذي كانت الماركسية فيه تتجه نحو دراسة اختلالات التوازن، الإرجاجات والهزات، عمليات الإنقطاع والإنتقال بالمعنى الاجتماعي - التاريخي، داخل النسيج الحضاري «البدائي»؛ فإن الأنثروبولوجيا كانت تتجه من ناحيتها نحو رؤية عناصر الديمومة والثبات فيه، وليس في الأمر أي غرابة طالما أن الماركسية كما هو معلوم أصلاً، قد ولدت في إطار تفكير نظري وممارسة سياسية حول المجتمعات أو التشكيلات الاجتماعية الرأسمالية.^{٢٠}.

ال الخيار الوظيفي في الأنثروبولوجيا^{٢١}

لقد شابت نظرية التطوريين إلى المجتمعات البدائية تحديداً، وإلى محمل المجتمعات البشرية على العموم، منحي تأملي، ظني قائم على التخمين يستناداً إلى معلوماتٍ غير

١٨. د. محمد حسين ذكروب، «الأنثروبولوجيا والأندية الحضارية للغرب»، ص ٦٤.

١٩. د. محمد حسين ذكروب، «الذاكرة والمعاش»، ص ١١٢.

٢٠. المرجع السابق، ص ١١٧.

٢١. شكل الإتجاه الوظيفي في بدايات هذا القرن، المنحى الأنثروبولوجي المسيطر، من أبرز مؤسسيه، برونيسلاي مالينوسكي، راديكليف براون، وإيانز بر بشارد.

حقيقة ، وتقارير الرحالة المبشرون والإداريون والتجار ؛ مما أثار حول مفاهيمهم وإستنتاجاتهم عدداً كبيراً من الأسئلة العلمية . المنحية منها والنظرية ؛ إذ كيف نفسر التطور غير المتوازي بين الشعوب والثقافات المختلفة ، بالإستناد إلى الافتراض التطوري القائل بوحدة التكوين الفيزيولوجي والسيكولوجي والسوسيولوجي للإنسان ؟ وإذا ما كان قدر المجتمعات البشرية الحتمي أن تمر [بالضرورة التاريخية] في نفس المراحل الإرتقائية كما لحظها [التاريخ] التطوري لأوروبا ؛ كيف نفسر بالتالي التفاوت في وتيرة التطور الزمني بين مجتمع وآخر ؟ لماذا اندثرت بعض الحضارات وتختلفت أخرى ، وتقدم البعض الآخر وازدهر ، والأهم من كل ما تقدم ذكره ، هو السؤال عن مدى الفعالية العلمية التي تبقى لعلم التاريخ في دراسته لاعتبارات التطور المخصوصة بكل نسق حضاري محدد ومنها تلك المتعلقة بالمجتمعات «البدائية» طالما أنه محكمٌ سلفاً بنموذج إرتقاءٍ وحيدٍ «وشمولي» ، يشكل قاعدة الإرتكان والقياس ؟ !

أمام كل تلك المآزر النظرية والمنحية التي واجهت الخيار التطوري في الأنثروبولوجيا ، بدأت بالتكوين منذ بدايات القرن العشرين ، إتجاهات نقدية تدعو إلى القطع مع المعايير التطورية القائمة على الظن والتخمين ، وإلى انتقال الباحث مباشرة إلى حقل المجتمعات «البدائية» ، لمعايشتها ودراستها عن كثب ؛ لم يعد مقبولاً أن ينفرد الأنثروبولوجي في مكتبه بإحدى العاصم الأوروبية ، يعمل على التقارير المرسلة ، بل أصبح لزاماً عليه التزول إلى ميدان المجتمعات موضوع الدراسة بنفسه . إن هذا المنحى الجديد هو ما يسمى بالختار الوظائي في الأنثروبولوجيا ؛ والذي إتسمت به المساهمة البريطانية في هذا المضمار ؛ من أبرز المؤسسين العالم برينسلاوي مالينوفسكي الذي انتقل إلى جزر غينيا الجديدة في الباسيفيك الغربي وأقام هناك لمدة أربع سنوات (١٩١٦ - ١٩٢٠) معايشاً القبائل «البدائية» الموجودة هناك كواحدٍ من أفرادها ، تعلم اللغة الأهلية السائدة ومارس كل شعائرهم وطقوسهم ، مؤسساً بذلك لمنهجٍ جديدٍ في دراسة الحضارات البشرية المختلفة .

لقد كانت مواجهة الثقافات الأخرى بالنسبة مالينوفسكي مواجهة في الوقت نفسه مع ثقافته الخاصة ، لقد أعلن بأن الأنثروبولوجيا ليست لغةً غامضةً متميزة عن الاستعمار الغربي ، إنما الشكل الخاص تجسد الثقافة الغربية لحظةً إصطدامها التاريخية مع ما يسمى الثقافات «البدائية». إن المقاربة الوظافية للمجتمعات «الأخرى» تؤكد على الاستقلالية التي تتمتع بها الثقافات البشرية المختلفة ، بحيث تشكل كل ثقافة منها نظاماً كلياً من

العناصر المماسكة التي يصعب دراستها بشكلٍ منفصلٍ وعلى حدة خارج سياق إنتظامها الوظائفي الكلي. إذاً، في كل نماذج الحضارات البشرية لا بد من التذكير بالدور الذي يمكن أن يلعبه طقس ما ، سمة ثقافية أو تقنية ، عادة أو أي معتقد آخر داخل الوظيفة العامة الكلية للمجتمع ، فلكل هذه العناصر وظيفة حيوية ، مهمة معينة تمثل بالإجمال جزءاً ضرورياً من الجهاز الكلي .^{٢٢}

إن السؤال الرئيسي الذي تدور حوله هذه المعالجة أصبح معلوماً ، علاقة الأنثروبولوجيا والتاريخ ، فما هي وجهة تعامل الوظائفية مع هذه المسألة العلمية الخامسة؟! لماذا أغلقت الأنثروبولوجيا الإلتفات إلى تاريخ الثقافات «البدائية» وتبع ما فيها بعيداً على الرغم من أن التاريخ إنما يلقي على الحاضر ضوءاً أوفى ، ويتيح لنا فهماً أكثر دقةً ووضوحاً للحاضر الثقافي الراهن؟ في الواقع لقد أغلق علماء الأنثروبولوجيا كما أصبح معلوماً لدينا ، دراسة تاريخ المجتمعات «البدائية» لسبطٍ بسيطٍ وهو أنها مجتمعاتٍ معزولة بلا تاريخ مكتوب ، ولعدم توفر الوثائق اليقينية المؤكدة ، على ما يذكر أحد أهم مؤسسي التيار الوظائفي ، العالم البريطاني رادكليف براون^{٢٣}. إن هذا الإقرار بصعوبة أن تكون المجتمعات البدائية موضوعاً لعلم التاريخ على قاعدة إنتفاء وجود «شكله الكتابي» عندها ، يؤدي بالمدرسة الوظائفية إلى مجرد «التجاوز» البسيط والجرد لهذه المسألة والإطلاق بالتالي إلى دراسة هذه الثقافات «البدائية» تأسيساً على ما هي عليه في زمنها المعاصر ، الراهن ، أي في فعل الحاضر منها دون التفاتٍ أو اعتبارٍ لما هو ماضٍ منه.

يلخص براون هذه القاعدة المنهجية – العلمية للخيار الوظائفي على الشكل التالي: وحدتها الحقيقة البدائية المعاصرة ملائمة لنظرية تمتلك وحدة الحقل التحليلي التميز عن التاريخ^{٢٤}.

كما هو واضح من خلال هذا النص ، فإن براون يعين لأنثروبولوجيا ميداناً خاصاً بها ، يميّزها عن العلوم الإنسانية الأخرى ، من حيث أن موضوعها يتناول حصراً ما يسمى بالمجتمعات «البدائية» ، هذا ما تعنيه بالتالي وحدانية المجتمعات التي تتناولها بالدراسة بشكلٍ مخصوصٍ ومحددٍ؛ إن هذا المفهوم يتضمن تأكيداً من قبل براون على أن المجتمعات

. ٢٢. د. محمد حسين ذكروب ، «الأنثروبولوجيا والأندية...» ، ص ٦٠.

. ٢٣. راديكليف براون ؛ سبق ذكره أعلاه ، ص ١٣٣.

. ٢٤. المرجع السابق ، ص ١٥٥.

«البدائية» أنساقٌ إجتماعية قائمة بذاتها غير قابلةٌ للمقارنة مع مجتمعاتٍ أخرى ، إنها حقيقة مستقلة و يجب بالتالي دراستها إنطلاقاً من كونها بكل بساطة ، مجتمعات «بدائية». إن تشكيل موقف نظري في هذه المجتمعات يعود بالدرجة الأولى ، إلى قاعدة معايشتها مباشرة ، كمرتكز رئيسي لتكون المادة المعرفية والتجريبية عنها ؛ بهذا المعنى فإن لوحدة الحقل التحليلي بعدها شرطياً ضرورياً لإمكانية الإنطلاق في دراسة الحقائق الإجتماعية والثقافية «البدائية» ، تأسيساً على تخصيصها و تبادلها بشكلٍ جزئي و متناشر بدأية ، وصولاً لإقامة المقارنة الكلية فيما بينها ؛ إذاً لا بد من اختيار حقل دراسة محدد في الزمان والمكان ، وصفه بدأية ، تصنيف معطياته تالياً ومن ثم الربط بين مختلف هذه المعطيات وإقامة التحليل المعمق عنها.

نستطيع الإستنتاج بناءً على ما تقدم ، أن المجتمعات «البدائية» بحسب هذا المنظور الوظائي ، ليست موضوعاً لعلم التاريخ ، ذلك أن لها بعدها زمنياً محدوداً في إطار الراهن أي الحاضر ، أي أن أهميتها أصلًاً تعود ، إلى ما هي عليه في الزمن المعاصر «المتميز عن التاريخ»؟ ! لكن السؤال هنا يبقى هو نفسه ، هل يمكن تناول أي مجتمع بشري و دراسته بعزل عن تاريخه؟ ماذا يعني مفهوم «المتميز» عن التاريخ هذا ، سوى أن يكون تبريراً «علمياً» ذرائعيًا يهدف إلى تحويل المجتمعات «البدائية» إلى مجتمعاتٍ تعيش على الدوام ، في زمنٍ دهري ، سكوني ، دائري و تكراري ، و يؤدي بشكلٍ منطقي إلى نفي كل إمكانية لتفكير مقارن حول المجتمعات والحضارات المختلفة و حول «المصير التاريخي» لكل منها ، إنه يؤدي بإختصار إلى إزالة التاريخ.

برأينا ، فإنني تاريخية المجتمعات الخارجية عن نموذج الحضارة الغربية ، والتركيز على الوظيفة الكلية «لزاجها الداخلي» يترك المجال أمام التاريخ الأوروبي لمصادرة هذه المجتمعات واستيعابها إستعماريًا داخل حركته و تحت سيطرته ، وليس مستغرباً والحال كذلك أن يشكل الإتجاه الوظائي قاعدة المنحى الأنثروبولوجي السائد في بريطانيا خلال النصف الأول من هذا القرن.

البنية والتاريخ

إن ما يهم الأنثropolجي ليس كلية الوظيفة ، التي ليست أكيدة ، والتي لا يمكن إثباتها بدون دراسة متأنية لجميع عادات هذا النظام وتطورها التاريخي ، وعلى الرغم من أن

العادات شديدة التغير. وعليه ، فإن من الصحيح أن العلم الذي يمكن هدفه الأول ، إن لم يكن الوحيد في تحليل الفروق وتفسيرها ، يوفر على نفسه جميع الوسائل عندما لا يأخذ بعد ذلك بعين الاعتبار سوى التشابهات^{٢٥}.

بهذا الرأي ، يحدد كلود ليثي ستراوس ، مؤسس المدرسة البنوية في الأنתרופولوجيا ، موقفه من الإستنتاجات النظرية والمنهجية العامة التي أرساها التيار البريطاني الوظائفي في مقارنته للأنساق الإجتماعية والثقافية «البدائية» ؛ إذ ما هي القيمة العلمية الحقيقة لمعرفة الوظائف الجزئية التي يضطلع بها كل عنصرٍ من مستويات البناء الإجتماعي العام ، وبالتالي الوظيفة الكلية العامة له ، إذا كانت غير مستندة على قاعدة المعرفة العلمية الدقيقة للتطور التاريخي الذي أفضى بها إلى ما هي عليه اليوم ؟ إن مصاربة «علمية» لعدد معينٍ من المجتمعات والثقافات البشرية ، لا ترتكز على منهج تحليل الفروق القائمة فيما بينها بهدف تفسيرها ، مع ما تفترضه من ضرورة الإنطلاق من معطياتها التاريخية الناجزة منها والمتحركة ، سوف لن تفضي في أحسن الأحوال ، سوى إلى إقامة نظام ميكانيكي مقارن من التشابهات الظاهرة ، الراهنة والمعاصرة فيما بينها ؛ إنه التخلّي البسيط والمبادر عن «فهم التاريخ» لكي نجعل من «دراسة الثقافات تحليلًا متزامناً لعلاقات عناصرها المؤلفة في الحاضر. والمسألة كلها تكمن في معرفة ما إذا كان تحليل ثقافة وحيدة تحليلًا في غاية الدقة ، يشتمل على وصف مؤسساتها وعلاقات هذه المؤسسات الوظيفية وعلى دراسة التطورات الدينامية التي يؤثر بها الفرد في الثقافة والثقافة في الأفراد ، يمكن أن يأخذ معناه كله بدون معرفة التطور التاريخي الذي أفضى إلى الأشكال الحالية»^{٢٦}.

إذا كان علم التاريخ يستحيل إمكانيةً حين عزله عن مقوله «التطور» وذلك بغض النظر عن توفر تدوين له وكتابته أم عدم توفرهما ، فإن الأنתרופولوجيا بالمقابل ؛ ونتيجةً لما اختص به من معاينة للمجتمعات «البدائية» في بعدها الزمني المعاصر والراهن ، أي الحاضر التميز عن التاريخ ، قد إستحالت علمًا في «البني التزامية» لهذه المجتمعات ؛ أي علمًا في التسلل الزمني ، السكوني ، التكراري للعلاقات ، الأسباب والمظاهر الإجتماعية السائدة ، وبذلك يكتسب الزمن بالمفهوم الأنثropolجي صفة «الدهر» بمقابل التاريخ . «يؤول النشاش ، إذًا ،

. ٢٥. كلود ليثي ستراوس ، المرجع السابق ، ص ٣١.

. ٢٦. المرجع السابق ، ص ٢٦.

إلى العلاقات بين التاريخ والأنثropolجيا بمعناها الضيق . ونحن سنتثبت أن الفرق الأساسي بينها ليس فرقاً في الموضوع ولا في المدفأ ولا في النهج ؛ ولكنها ، باعتبار أن موضوعها واحد ، هو الحياة الاجتماعية ، وهدفها واحد ، هو فهم الإنسان فهماً ممتازاً ، ومنهجها يتغير فيه تقدير طرق البحث فقط ، يتميزان على نحو خاص بإختيار الآفاق المتممة : يرتب التاريخ معطياته بالنسبة لعبارات الحياة الاجتماعية الواقعة ، والأنثropolجيا بالنسبة لشروط هذه الحياة غير الواقعية»^{٢٧} .

هكذا ، يتوصل بنا كلود ليث ستراوس فيما سبق ذكره أعلاه ، إلى الخروج من دائرة المعالجة المغلقة ، التي سادت إشكالية العلاقة بين علم التاريخ والأنثروبولوجيا على قاعدة المعيار الفصلي/الإنقطاعي بين مجتمعات «كتابية» أي تاريخية ، وأخرى «لا كتابية» وبالتالي لا تاريخية ؛ التاريخ هو نفسه معيار الشمولية بين كل المجتمعات التي عرفتها البشرية ؛ والفرق الحقيقى بين مجتمع يعرف فن كتابة تاريخه وآخر لا يعرف هذا الأسلوب التعبيري المخصوص ، هو كالفرق بين إنسان يعرف كتابة تاريخه الشخصى أي مذكراته ، وآخر أمي يعتمد على الذاكرة في رواية هذا التاريخ ؛ في الحالة الأولى كما نلاحظ ، يتدخل الفكر البشري في بنية وجوده الواقعية كتابةً لتاريخية إعتباراته الفردية والإجتماعية ، مما قد يطرح تساؤلاتٍ عن مدى موضوعية القصد والنية من وراء هذه الكتابة ؛ بينما في الحالة الثانية ، فإن هناك شروطاً موضوعيةً لا شعورية تحيط بتجارب الحياة الفردية والإجتماعية ، وتحتقرها البنية الوجودية اللاواقعية من ذاكرة الفرد والجماعة^{٢٨} .

إننا نلاحظ منطقياً ، أن الفصل بين علم التاريخ والأنثروبولوجيا هو بالحقيقة «فصلٌ تعسفي» وغير علمي ؛ إن علم التاريخ لا يستطيع أن يحصر حيز إهتمامه بتعابيرات الحياة الإجتماعية الواقعية ، إلى مختلف أشكال «تسجيلها» من وثائق ومدونات وكتب ؛ إذ أنه كما هو معلوم ، فإن الكثير من هذه الأخيرة ، قد يكون عرضةً للتشكيك وعدم الثقة ، لإنحراف الغاية والقصد عند المؤرخ ربما ، لذلك فهو معنىً بالشروط الإجتماعية الموضوعية التي يحيط «بالحدث» التاريخي وتحكم بمسار تطوره وتغييره ، وهي التي تونجد بالإستقلال عن «وعي» الأفراد والجماعات وإدراكهم بها . مهمـة الأنثروبولوجيا إذن ، الكشف والوصول إلى

٢٧. المرجع السابق ، ص ٣٧.

٢٨. د. محمد حسين در Cobb ، الذاكرة والماض ، ص ١٥ - ٤٤ . فصل عنوان : «السؤال الأنثروبولوجي في إمكانية طرحه في إمكانية الجواب عليه» .

هذه «البني الإجتماعية الأولية واللاشعورية» لكي يستطيع علم التاريخ دراسة ما طرأ عليها من تطور، إتقاً، تحولٍ وتغير في مختلف الحضارات البشرية المقارنة حتى الآن. أن تستمد الأنثولوجيا، أصلتها من الطبيعة اللاواعية للظاهرات الجماعية، فقد نتج ذلك ، ولو بصورةٍ يتعورها الإبهام والإلتباس من إحدى صيغ تايلور. وبعد أن عرف الأنثولوجيا كدراسة تناول الحضارة أو الثقافة، وصف هذه الأخيرة كمجموعة معقدة تتنظم فيها «المعرف ، المعتقدات ، الفن ، علم الأخلاق ، الحقوق والعادات ، وجميع الكفاءات الأخرى التي إكتسبها الإنسان بإعتباره عضواً في المجتمع»^{٢٩}.

لكن ما هي هذه «الطبيعة اللاواعية» للظاهرات الجماعية الثقافية وما هو المقصود بتشكيل مضمونها من بني إجتماعية أولية ولاشعورية؟ إنما يعود الفضل إلى العالم الأنثولوجي الأميركي بوائز في تعريف هذه الأخيرة ، وذلك من خلال مقارنتها مع اللغة ، «فقد أثبت بقاء بنية اللغة مجھولة من المتكلم إلى حين وضع كتاب علمي في النحو والصرف ، ومواصلتها ، حتى في ذلك الحين ، تشكيل الكلام خارج وعي فاعل الفعل ، فارضة على فكره بني تصورية أعتبرت كمقولات موضوعية»^{٣٠}؛ إذَا كما في اللغة ، كذلك في المجتمع ، واستعارة المنهج نفسه تهدف للوصول إلى مبدأ تفسير علمي وصحيح في كل نظام وعلاقة أو عادة وتقليد أو معتقدٍ وطقس ، بالمعنى «الإجتماعي» للكلمة ؛ وهذا الأخير يتحدد من خلال بنية لا شعورية كامنة تعتبر بدورها كمقولة موضوعية تعطي الإمكانية لتصور النسق الإجتماعي السائد على المستوى الذهني والفكري.

ولكن كيف يتم التوصل إلى هذه البنية اللاشعورية؟ هنا بالذات يلتقي المنهجان الأنثولوجي والتاريخي. أن يختص الأنثولوجي بدراسة البني الإجتماعية «التزامنية» أي القابلة للإرتداد وإعادة إنتاجها هيكل ومفاصل إنتظامها العام ، فإن هذا لا يعني على الإطلاق الإستغناء عن المعرف التاريخية الخجليّة بسياق هذه العملية «ذلك أن تحليل البنيات المتزامنة ذاته ينطوي على الرجوع إلى التاريخ رجوعاً مستمراً ؛ ذلك أن التاريخ عندما يُظهر بعض الأنظمة العامة التي تحول يتيح دون غيره إستخلاص البنية المستترة في صياغات متعددة والمستمرة وسط سلسلة من الأحداث»^{٣١}.

٢٩. كلوڈ ليثي ستراوس ، المرجع السابق ، ص ٣٧ ، عن كتاب تايلور الثقافة البدائية.

٣٠. المرجع السابق ، ص ٣٨.

٣١. المرجع السابق ، ص ٤١.

وبعد ، إن ما تقدم ليس سوى عينات أولية تمتلك من صدق التعبير والدلالة عن طبيعة العلاقة « الإشكالية » بين علم التاريخ والأنثروبولوجيا لقد قررنا باستحالة تناول المجتمعات « البدائية » المعاصرة . دونما إقرار المسبق بتاريخيتها ، ولكن هل « تستطيع اللغة الرمزية الجمالية للذاكرة البدائية الراهنة التعبير عن هذا « القدر التاريخي » المحتوم ؟ بمعنى آخر ، كيف يمكن لنا من خلال المشاهدة والتصوير والمعايشة اليومية لدورة الإجتماع البدائي (ممارسة الطقوس ، السحر ، الأساطير الطوطم ، القرابة بتعقدها ، الرقص ، التبرج بألوانه ... الخ) قراءة ماضي (أو حاضر !) هذا الإجتماع وكتابته تاريخيته » ! ! ٣٢ .

إن الأنثropolجي يهتم إهتماماً خاصاً بما هو غير مكتوب ، لأن ما يهتم به يختلف عن كل ما يفكر الناس عادة في تثبيته على الحجر أو الورق ، أكثر مما يعود ذلك لأن الشعوب التي يدرسها عاجزة عن الكتابة ٣٣ .

هكذا ، فالأنثropolجي لا يمكن أن تتخذ موقفاً لامبالياً حيال التطورات التاريخية وتعابير الظاهرات الإجتماعية الواقعية على نحو رفيع . على أنها إذا كانت تعبرها اهتماماً يُصاهي إهتمام المؤرخ بها ، فلكي تتوصل ، بنوعٍ من السير التراجمي ، إلى فصلها عن كل ما تدين به للحدث التاريخي والتفكير . وهدفها هو الوصول ، وراء الصورة الواقعية والمختلفة دائمًا ، التي يكونها الناس عن صيروتهم ، إلى وضع إحصاءٍ بإمكانات غير واقعية لا توجد بعدد غير محدود ، ويقدم فهرسها وعلاقات التلاؤم أو التناضر التي يحافظ عليها كل إمكانٍ مع باقي الإمكانيات ، بنية منطقية لتطورات تاريخية ، يمكن أن تكون غير متوقعة ، دون أن تكون كيفية أبداً ٣٤ .

والآن ، بالإستناد إلى ما تقدم من معطيات نظرية ومنهجية في التعاطي الأنثروبولوجي مع هذه الموضوعة ، نستطيع القول ، إن صفة التاريخية لا تستتبع بالضرورة وجود نص تاريجي مكتوب عنده الحضارة التي تحملها ، وعدم وجود هذا النص عند البعض الآخر ، لا يستدعي إسقاطاً نزع صفة التاريخية عنها ؛ إن التوصل إلى قراءة المعاش الحضاري الراهن من تاريخ الشعوب ؛ توسطه بالضرورة ، إمكانية التوصل لقراءة البنية التاريخية اللاشعورية للفكر البشري ، وهذه إمكانية كما رأينا ، تجد تحوها إلى فعلٍ حقيقي عبر قراءة

. ٣٢. د. محمد حسين ذكروب ، الذاكرة والمعاش ، ص ١١٤ - ١١٥ .

. ٣٣. كلود ليثي سترووس ، المرجع السابق ، ص ٤٥ .

. ٣٤. المرجع السابق ، ص ٤٣ .

الأشكال الرمزية المختلفة التي تعبّر من خلالها الذاكرة الجماعية للشعوب عن جوهرها وكُنجهما الحضاريتين بما هما إفراز دائمٌ ومستمرٌ لحركة التاريخ البشري نفسه ... إن النص المكتوب كما رأينا هو أحد أشكال التعبير الرمزية دون أن يستتبع ذلك كونه الشكل التعبيري الرمزي الوحيد ، طالما أن هناك نصاً آخر غير مكتوب ، هو النص المعاشر ؛ والقراءة الأنثropolوجية الراهنة للحضارات البشرية المختلفة هي في حقيقة الأمر منها ، قراءة في الإمكانيات التاريخية المتنوعة التي عرفتها المجتمعات الإنسانية حتى الآن ؛ إذًا هي قراءة تاريخية في التعبير المعاصر ، الحاضر عن التاريخ نفسه ، بهذا المعنى ، لن تكون خصوصية المجتمعات اللاكتابية . طالما أن المجتمعات الكتابية تحتوي إلى جانب نصها التاريخي المكتوب نصها التاريخي أيضًا ولكن غير المكتوب .

إن قراءة المجتمعات الإنسانية على منهج علم التاريخ . أي إستقراء الواقعية الحضارية الإجتماعية من خلال الكتب والوثائق والأرشيف ، لا تكتمل إلا بإعتماد المنهج الآخر ، أي القراءة الأنثropolوجية الراهنة لمعاني ودلالات البنية الثقافية عبر تحليل وتفكيك رموز عناصرها المستترة ... هكذا إذن ، يلتقي علم التاريخ والأنثروبولوجيا .



مخاطر التبعية الغذائية على البلدان النامية

الدكتور صابر بو ضرم

لقد أدرك الإنسان منذ القدم ، ان في التبعية الغذائية مخاطر جمة . فحضار مدينة أو شعب ، كان يعتبر دائمًا عملاً من أعمال الحرب . والبلدان المستقلة يتوجب عليها ألا تعتمد على مصادر خارجية للغذاء ، بل عليها أن تعمل لبسط الأمن الغذائي عند شعوبها حتى لا تبقى عرضة لتقلب أمزجة حكام المصادر الغذائية . فالإبتزاز الغذائي ، أبغض أنواع الإبتزاز ، وخاصة عندما تكون الصحبة لا حول لها ولا طول . هذه التبعية تصبح سلاحاً فعالاً لارتباطها بإرادة المصدر وخاصة إذا كانت في مجال الغذاء .

فالخبز هو طعامنا اليومي ، لكن هنالك الملايين من البشر لم تعرف في تاريخها الخبز أو القمح كأداة رئيسية للغذاء . والأرّز عند هذه الشعوب ، يشكل المادة الأساسية في الغذاء يتناولونه بأيديهم أو بواسطة عيدان خاصة . فالأكل وطريقته يعنيان بالإضافة إلى تناول الحريرات والبروتينات ، الإنقاء إلى مجتمع ما وحضارته ما ، حيث تعيّر الشعوب من خلال ذلك عن هويتها العميقية . والدول المتقدمة بآياتها ، من القمح والذرة والحليب ، تعرض عادات هذه المجتمعات وطريقة عيشها للخطر .

فمنذ أن عمدت نستله إلى تعليب حليب الأطفال وتسيقه ، لاحظ المشغلون في أمور منظمة الصحة العالمية ، عن طريق استقصاءات مكثفة ، وجود نسب عالية من الأفراد لا تستطيع معدتهم هضم مادة اللاكتوز المتوفّرة في الحليب . لقد اعتادت هذه الشعوب على تناول الحليب المخثر الذي ينفصل فيه اللاكتوز عن غيره من العوامل التي يتكون منها الحليب ، فيصبح وبالتالي أسهل امتصاصاً .

هذا ولقد بدأنا بهذه الملاحظة عن أنماط العون الغذائي للدلالة على تغيير أنماط التغذية عند الشعوب ، نظراً لما تجدره فيها المساعدات الغذائية من حاجات لا تستطيع إشباعها ، فتردد بذلك تبعيتها للدول الغنية . وكما صرّح وزير الزراعة السابق في الولايات المتحدة السيد

تورنر : «الأطعمة هي أسلحة ، فهي تشكل أحد أهم الوسائل في ميكانيكية اتصالاتنا ... ان البرنامج الغذائي من أجل السلام (قانون ٤٨٠) ، كان المدف منه تصريف المخزونات الفائضة ، وقد أسميناها هكذا لاعتباره شعاراً سياسياً جيداً في هذه البلاد». فكيف نشأت هذه المساعدات وكيف كان مسارها ابتداءً من الولايات المتحدة الأمريكية حتى بلدان السوق الأوروبية المشتركة؟

نشأة المساعدات الأمريكية

في نهاية الحرب العالمية الثانية ، كان المدف من دعم الأسعار الغذائية وتحسين تقنيات إنتاج الغذاء ، زيادة الإنتاج ، حيث ارتفع بمعدل ٥٠ % مما طرح فيضاً يقدر بـ ٢٠ % من الاستهلاك. لذلك عمد المسؤولون إلى إبتكار وسيلة للتخلص من الفائض تتجل في القانون ٤٨٠ الذي قرر فيه الكونغرس تشريع التجارة الدولية وتنمية أسواق تصدير المنتجات الزراعية الأمريكية ، واستعمال الإنتاج الزراعي الغزير في الولايات المتحدة لمحاربة الجوع وسوء التغذية وتشجيع النمو الاقتصادي في البلدان النامية ، وذلك تجنباً لأنهيار الأسعار وإفلاس المزارعين والتجار ، ونظرًا لارتفاع أسعار الخزن (مليون دولار يومياً) مما انعكس على المستغلين بالمواد الغذائية غضباً وقلقاً مستمرین في الولايات المتحدة.

هذه كانت قواعد الجهاز الإداري الكبير الذي كلف بتأمين تصريف الفائض الغذائي للولايات المتحدة الأمريكية ولتعميم النط الزراعي الأمريكي في العالم.

إن هذا العمل يعتبر ، من حيث المبدأ ، سخياً ومبشراً بالخير. لكن نتائجه كانت مؤللة. فعن طريق تصريف الإنتاج ولو بأسعار مخفضة ، كان على الدولة أن تؤمن وأن تغزو باستمرار الأسواق الجديدة. وغالباً ما كانت تقترب هذه المساعدات بشروط مثل عدم تدني بقية المشتريات التجارية من أسواق الولايات المتحدة. وكما حصل مراراً. فإن المساعدات الغذائية كانت تنقص عند تحسن الأسعار مما كان يدفع بالبلدان النامية إلى شراءها ديناً. هذا فضلاً عما يكون قد خلق استعمالها من حاجات جديدة كبلت الدول النامية ودفعتها أكثر فأكثر للتبعية. وهكذا نجحت هذه الوسيلة في الانتقال من المساعدة إلى التجارة والدليل على ذلك أن المساعدات جميعها تمر من خلال الشركات الكبيرة للحروب التي تقدم هبة الشعب الأمريكي ، فهي التي تخزنها والتي تنقلها ، مما يعطيها الفرصة في تجميع معطيات ثمينة وإجراء

اتصالات مفيدة . وإذا توفرت مصاعب في الوصول إلى الأسواق المغلقة ، تمر المساعدات عندها عن طريق الدولة . والدليل على ذلك أنه من خلال تقرير قدمته شركة Middle West سنة ١٩٧٧ والتي اقترحت فيه الشركة أن تعمد الدولة إلى تمويل مشتريات القمح واللحم في ٩ بلدان إفريقية ليرتفع بذلك في هذه البلدان الاستيراد في السنوات الخمس القادمة . وهذا ما حصل فعلاً .

لكن المواد الغذائية عند وصولها للبلدان النامية ، تتطلب تحويلاً ، وحتى لو شاعت هذه البلدان إنتاج نفس هذه السلع بنفسها ، فإن الشركات العالمية تشرف على ذلك كما تقدم الآلات ومضادات الجراثيم والسماد والبذور في الفيليبين مثلاً ، فرع من شركة Carnation ينتج الحليب المحول من مسحوق الحليب . وفي كوريا استقر فرع من شركة Cargill لإنتاج العلف الحيواني انطلاقاً من الذرة المقدم بشكل مساعدات غذائية . وفي زائير استقر فرع من شركة Continental Grain عندما تلقت هذه البلاد قرضاً لتمويل شراء القمح الأميركي .

إذا أضفنا إلى كل ذلك أن حوالي ثلثي المساعدات الغذائية تبيعها الحكومات المستفيدة تجلى أهمية ما يمكن أن توفره من أموال طائلة لا يمكن أن تُستعمل دون موافقة الواهب . وهكذا ندرك بسهولة طريقة استخدامها : قروض لفروع محلية من الشركات العالمية ، تنظم المعارض للممتلكات وللبعثات ، قروض للمؤسسات الوطنية التي ترغب في شراء وسائل الإنتاج من السوق الأميركي ... كما أن قسماً ضئيلاً يُستعمل محلياً في شق الطرق وإقامة محطات الأبحاث والمشاريع الزراعية والإعداد المهني ... غالباً ما تتفاقم هذه المساعدات بشروط قاسية كاعتداد سياسات سكانية واقتصادية تلائم الشركات الخاصة ومن يقف وراءها من حكومات .

هكذا تتحول المساعدات عن هدفها الإنساني ، وتحول الدول المعانة إلى زبائن . وهذا ما تجلى في مثل تونس التي كانت تعتبر طويلاً بلاً مصدرة ومنتجة لزيت الزيتون . لكن منذ تلقيها مساعدة من زيت الصويا ، تحولت إلى زبون يشتري الزيت من الشمال الأميركي . كما أن اليابان التي تلقت بعد الحرب المساعدات وخاصة من الحليب والقمح ، تحولت تدريجياً إلى زبون تجاري مهم للممتلكات الزراعية الأمريكية . وكذلك معظم مناطق آسيا التي تغوص بالسكان . فعن طريق برنامج «الغذاء من أجل السلام» تحول إلى زبائن للشمال الأميركي ، الذي استفاد خلال العشر سنوات الأخيرة بعشرات المليارات من الدولارات مما ضاعف من مدخول المزارع ورجل الأعمال الأميركي .

وهكذا استطاعت أميركا عن طريق محاربة الجوع في العالم استعباد شعوبه غذائياً واقتصادياً . وأكبر دليل على ذلك وجود ٢٥ فرعاً في العالم لمؤسسة التصدير الزراعي الأمريكية .

هذا في أميركا فكيف كان الحال في بلدان أوروبا الغنية ؟

نشأة المساعدات الأوروبية

أما البلدان الأوروبية ، فلقد بقيت طويلاً تجهل الطريقة التي من خلالها يصرف فائض الإنتاج من الحليب ومشتقاته . لذلك عمدت أولاً إلى إطعام الخنازير مسحوق الحليب (٧٠٠,٠٠٠ طن سنة ١٩٧٨) ثم العجول (١,٢ مليون طن) تهرباً من تكاليف خزنها المرتفعة . كما أن الاستهلاك فيها وصل إلى درجة لا يمكن تجاوزها (الأيرلندي مثلاً يتناول ٢٠٠ ليتراً من الحليب سنوياً) ، مع العلم أن أسعار الحليب العالمية كانت أقل أربع مرات مما هي عليه داخل حدود السوق ، وهذا لا يسمح بطرحها في الأسواق العالمية نظراً لما يتربّ عن ذلك من تحمل الدولة نتيجة الفارق ما بين الأسعار . وقد وصل هذا الدعم ما بين ١٩٧٣ وإلى ٢٥ مليار فرنك فرنسي . يُضاف إلى ذلك فائض إنتاج السكر والقمح . إن دعم هاتين السلعتين سنة ١٩٧٨ وحدها قد كلف السوق الأوروبية المشتركة ٥٠ مليار فرنك إضافي .

وهكذا وبنفس الظروف التي تحكمت بالسوق الأميركي ، وجدت أوروبا في العون الغذائي طريقة لامتصاص فائض الإنتاج . ولقد بلغت هذه المساعدات سنة ١٩٧٨ من مسحوق الحليب والزبدة ٣٧ % من محمل التصديرات لهذه السلع . إن الدوافع التي أدت إلى تبني المساعدات الغذائية لم تتبّع من أية سياسة مسبقة ، والدليل على ذلك عدم الترابط في تنظيم هذه المساعدات مما دفع باللجان المختصة إلى تبني وجهة النظر الأمريكية لما تمثله من سلاح سياسي فعال ولما تخلقه من أسواق للم المنتجات الزراعية وغيرها آخذة بالاعتبار تجارب البلدان الأخرى وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية .

إلا أن عدم توفر سياسة موحدة في إعطاء وتوجيه المساعدات الغذائية دفع بممثلي هذه البلدان في اجتماع روما سنة ١٩٧٨ تونхи تنظيم هذه المساعدات وذلك خوفاً من أن يترك الميدان خاليًا أمام الولايات المتحدة فتقنطر بالسوق العالمي وحدها . وبعد أن حددت كوتا

الإنتاج لكل بلد من بلدان السوق اتخذت تدابير رادعة لکبح المخالفات وذلك اعتباراً من ١٩٨٤ . وبالنسبة لمساعدات الدول النامية ، فقد قرر البرلمان الأوروبي سنة ١٩٨٠ أنه من الضروري أن تتمكن بلدان العالم الثالث من السيطرة على غذائها والوصول إلى الأمان الغذائي عن طريق الإنتاج المحلي ، مما يتحقق فعلاً لهذه البلدان الاستقلال الغذائي الذي يؤمن لها فرص تحسين اقتصادها وتحقيق وفر مادي يوظف في قطاعات الإنتاج والتنمية الأخرى ، وذلك من خلال مساعدات مادية تقدمها السوق الأوروبية المشتركة تغطي وسائل إنتاج وتخزين وتسويق السلع الغذائية . لكن هذه الأمنيات لم تر النور بل بقيت أفكاراً بفعل الضغوط الأمريكية التي لم تنشأ أن تراحم في مجال مهم من السيطرة على الأسواق العالمية . والأكثر من ذلك فقد عمدت إلى إنشال مشروع للتنمية تقدمت به الأمم المتحدة ويقضي باقطاع نسب من موازنات الدول الغنية توظف في مجال تنمية بلدان العالم الثالث وذلك تحت إشراف مؤسسات دولية .

هذا وتتألف المساعدات من مواد غذائية تُمنح بشروط تفضيلية ، أي بسعر أدنى من سعر السوق (٢٥٪) . كما أن المساعدات قد تكون بشكل بيع مع تسهيلات مثل حسم بعض التفقات كالنقل والفائدة ، أو إن المستفيد يشتري المواد الغذائية ويضع سعرها في حساب خاص بحيث لا يمكن استعماله إلا برضى الواهب .

والإعانات الغذائية هي شؤون دولية تقرّرها عدة دول مجتمعة أو منفردة ، ولا تلعب المؤسسات الخاصة إلا دوراً هامشياً فيها . وإذا استثنينا عطاءات الاتحاد السوفيتي ، في فترة ما قبل تصدّعه ، والهند والأرجنتين ، فإن معظم المساعدات الدولية تقدمها البلدان الصناعية وخاصة الغربية ، ويشكل القمح ثلاثة أرباعها . ولقد اخذ آخر مؤتمر للتغذية العالمية سنة ١٩٧٤ هدفاً ببلغ المساعدات ١٠ ملايين طن سنوياً . استمرت هذه العطاءات متقطمة حتى سنة ١٩٨٠ ، ثم أخذت البلدان الغنية بعدها بالتكلّم رابطة المساعدات بشروط سياسية كحقوق الإنسان ، أو تخفيض التضخم أو الحد من أعداد المواليد ...

إن مجموع المساعدات التي قدمتها الدول الغربية سنة ١٩٧٩ بلغ ٢,٥ مليار دولار ، أي ما يوازي ١٠٪ من مجمل المساعدات المقررة للبلدان النامية . إلا أن الجدول التالي يظهر أن النسب كانت متفاوتة بين الدول ، وهي تتألف من حبوب يوهب خمسها عادة .

جدول رقم ١ :

قيمة الهبات الغذائية المقدمة إلى الدول النامية ونسبة المئوية إلى المساعدات المقررة في الدول الغنية

البلدان الواهبة	سنة ١٩٧٦		سنة ١٩٧٩	
	مليون دولار	نسبة المبة %	مليون دولار	نسبة المبة %
أوستراليا	٣٥,٨	٩,٥	٨٠,٦	١٣,٠
النمسا	١,١	٢,٢	٢,٩	٢,٣
بلجيكا	١٨,٥	٥,٤	٣٣,٨	٥,٤
كندا	١٨٩,٦	٢١,٤	١٥٦,٥	١٥,٣
الدانمارك	٢٢,٥	١٠,٥	٣٣,٩	٧,٦
فنلندا	١٠,٠	١٩,٧	٥,٦	٦,٥
فرنسا	٥٠,٢	٢,٣	٨٤,٢	٢,٥
ألمانيا	٩٠,٥	٥,٧	١٧١,٩	٥,١
إيطاليا	٢٠,٠	٨,٨	٤٧,٢	١٧,٣
اليابان	٨,١	٠,٧	١١٣,٠	٤,٣
هولندا	٤٥,٢	٦,٢	٨٥,٨	٦,١
زيلندا الجديدة	٢,٧	٥,١	٠,١	٠,٢
النرويج	١٤,٠	٦,٤	١٨,٥	٤,٣
السويد	٣١,٩	٥,٢	٤٥,٣	٤,٧
سويسرا	١٣,٧	١٢,٢	٢٥,١	١٢,٠
إنكلترا	٣٣,٣	٣,٨	٨٤,٢	٤,٠
الولايات المتحدة	١٢٨٢,٠	٢٩,٥	١٤٤٨,٠	٣٠,٩
مجمل المساعدات	١٨٧٥,١	١٣,٤	٢٤٣٦,٦	١٠,٩
مجمل مساعدات بلدان				
السوق الأوروبية المشتركة	١٣٢,٣	٢٦,٤	٣٠٢,٨	٢٤,١

المصدر OCDE, Rapport 1981 sur la coopération pour le développement, tableau X 14, Paris 1982:

إن مجموع مساعدات الدول الأوروبية الغربية يقدر بـ ٢٢٪ من مجمل المساعدات العالمية وهي في معظمها عطاءات دولية من حبوب ١,٦٥٠,٠٠٠ طن سنة ١٩٨٠ . وهذه

الدول هي أكبر واهب لمنتجات الحليب ، والوحيد في مجال الزبدة ومشتقاتها . إن أكثر من نصف هذه المساعدات يمر عبر أجهزة السوق الأوروبية في بروكسيل . أما الباقي فكل دولة توزعه حسب ما تملكه من معطيات ، وهكذا ارتفعت العطاءات الأوروبية سنة ١٩٨٠ إلى حوالي ٤ مليارات فرنك تديرها مؤسسة الإدارة العامة للإنماء DGV III Direction générale de développements économiques وذلك بالإرتباط الوثيق بإدارة الزراعة DGVI ، وهذه الأخيرة مولحة بتحريك المواد المخصصة للمساعدات الأوروبية وهي تقتطعها إماً من المخزونات أو عن طريق استدراج عروض من قبل شركات أوروبية . فإذا كانت أسعار السوق الأوروبية أعلى من سعر السوق العالمي فهي تغطي الفارق من الصندوق الأوروبي للتوجيه وللضمان الزراعي FEOGA .

أما المساعدات التي يقررها البرنامج العالمي للتغذية ، فتأتي من حيث الأهمية بعد السوق الأوروبية المشتركة . في طريق مؤسسة PAM التس أنشئت سنة ١٩٦٣ وضمن إطار الأمم المتحدة ، ثم سنة ١٩٧٧ إدارة وتوزيع ٤٠٠ مليون دولار كمساعدات غذائية . وللولايات المتحدة في هذه المؤسسة دور كبير قادر فلها مثلاً الحق في إيقاف التوزيع وحرمان أي بلد منه كما حصل في فيتنام .

هذا من حيث المساعدات ، أما من حيث وقوعها على البلدان النامية ، فإن ١١٪ منها يوزَّع على سكان العالم الثالث المعدمين : رضع ، أمهات مرضعات ، مسنين ، أيتام ، مرضى ، معدمين ... إن توزيع هذه المساعدات يتم عن طريق مؤسسات اجتماعية خاصة أو رسمية في البلدان النامية (المستشفيات ، والمدارس ، والمستوصفات ، والكنائس ، والإرساليات ...) .

إن ١٦٪ من المساعدات الغذائية يُدفع بشكل رواتب لتمويل مشاريع ضخمة : استصلاح أراضي ، ري ، شق طرق ، حفر آبار ... تحت شعار غذاء مقابل عمل Food for work . أما ثالثي المساعدات الغذائية فهي تُسلم للدول المقصودة بالإعانة ، وهذه تبعها لتمويل المشاريع المختلفة بحيث تذهب هذه المساعدات في الغالب إلى من لا يحتاجها . ثم إن الفترة التي تفصل ما بين تقريرها وإيصالها للمحتاج من الشعوب طويلة نسبياً ، سنة تقريباً ، وفي الحالات الطارئة ثلاثة أو أربعة أشهر ، وذلك لكثره المراحل الروتينية الإدارية التي يجب أن تمر بها البرامج (ما بين ١٨ و ٢٢ مرحلة) وفي هذا تتجلى رداءة المساعدات التي تحجز عادة فور تقريرها وتجمد لحين استكمال الخطوات الإدارية

ب شأنها مما يعرض قسماً منها للتلف ، كما أن المؤسسات المولحة بالتوزيع لا تخضع عادةً لأية رقابة ولا يتطلب منها أية فاتورة مفصلة مما يعرض جزءاً من هذه المساعدات للاختفاء . أما البلدان التي تتلقى هذه المساعدات فهي تتجاوز المائة ، لكن حصص مصر ٥٤ كلغ للفرد ، وبنغلادش ١٦ كلغ للفرد ، وأندونيسيا ٧ كلغ للفرد ، والهند ٨,٠ كلغ للفرد ، تشكل ما يقارب نصف المساعدات الغذائية العالمية .

جدول رقم ٢ :

توزيع هبات السوق الأوروبية المشتركة من الحبوب والاستهلاك العالمي للحبوب في العالم (كلغ/ساكن)
لسنة ١٩٧٧

المنطقة	مساعدات السوق الأوروبية المشتركة طن/ساكن	الاستهلاك طن/ساكن	مساعدات طن/ساكن
أوروبا الغربية	٤٩٢	٢,٦	
أفريقيا	١٥٧	٠,٨	
أمريكا اللاتينية	٢٣٧	٠,٧٣	
الشرق الأدنى	٣٣٨	٢,٨٣	
الشرق الأقصى	٢١٩	٠,٦٣	

المصدر : Rapport spécial de la Cour Des Comptes de la CEE, Luxembourg 1980

ما بين ١٩٧٧ و ١٩٧٩ نالت خمسون بلداً أفريقياً ٤٧ مليون دولار ، بينما نالت مصر وحدتها ٣٦٤ مليوناً ، وفي هذا دليل على ما قاله جورج سوزان : « لا يكفي الفقر أبداً لتلقي المساعدة ». ان معظم الإعانات تتوجه نحو الدول الصديقة ، وفي أغلب الأحيان تتألف هذه الدول من سكان قلائل مثل Seychelles Antigua, Sao-Tome, Cap-Vert أو بحثيث ينال الفرد فيها ٢٥ كلغ من الحبوب ، و ٢,٥ كلغ من الحليب سنوياً . كما أن معظم المساعدات الغذائية تستخدمنها النخبة الخليلية في الدول النامية لغير أغراضها : كالمتاجرة بها أو قبض مال لقاء تسليمها أو طرحها للبيع في الأسواق السوداء . وهذا ما حصل في مالي : فن أصل ٤٥٠ رأس ماشية أعطيت لتحسين وإعادة تشكيل القطيع المحلي ، ووصل منها حوالي عشرة . وفي داكار سنة ١٩٧٣ ، تلقت آلاف الأطنان من الحبوب في المرفأ . كما أن هنالك العديد من البلدان تتلقى أيضاً المساعدات لكنها لا تصل إلى السكان المحتاجين بل ينال منها

حصة الأسد سكان المدن والقوات المسلحة والموظفون الذين لا يملكون عادةً أية أرض زراعية أو أية ماشية . في بنغلادش مثلاً يصل الريف ثلث المساعدات المقررة له حيث يعيش ٩٠ % من جمل السكان . وفي كثير من الأحيان تُباع المساعدات المقررة للتوزيع المجاني ليدفع قسم من ثمنها أجوراً وتكاليف صيانة للمعدات الإدارية .

إن هذه المساعدات تخلق عادةً عند الشعوب ، ميلاً إلى الاتكالية بحيث تعتمد عليها فرزول أو نقل عندها المبادرات من أجل تحقيق الكفاية الذاتية . وكما صرَّح أحد المسلمين ،

الأب Antonio BRACCA ، يتحول السكان إلى سائلين يتظرون الصدقة .
أمام هذا السوء في التوزيع اتخذت المؤسسات الدولية تدابير تقضي بإيقاف المساعدات إلى المدارس أو البيوت أو تقديمها مقابل عمل ما كاستصلاح أرض أو زراعتها أو الإقبال على التعليم وغير ذلك من الوسائل .

وبجمل القول ، لم تعد مساعدات الدول الغنية ، إلاّ فيما ندر ، تصل هبات للجائعين من الشعوب ، بل غالباً ما تطرح في الأسواق المحلية سلعاً من نوع واحد ، توزع تبعاً لاعتبارات سياسية ، مما ينعكس على الأسعار فيعرض صغار التجار والمزارعين للخسارة ، فينصرفون بذلك عن زراعة الحبوب أو الاتجار بها ، وهذا مما يخلق زيادة في الاتكال وتقاويساً عن الإنتاج ، وتبعة للدول الغنية تتجلّى في وفرة ديون البلدان النامية وتسابقها على طلب ود ورضا البلدان الغنية بكل ثمن .

المراجع :

- CRIAD-FRPL, *Nos excédents laitiers chance ou danger pour le 1/3 Monde*, Lyon, 1981.
- *Frères des Hommes*, Dossier Spécial Bangladesh, avril 1982.
- Susan GEORGE, *Faim, et développement*, Paris, mars 1980.
- Mac GOVERNE, *War against want*, New York, Walker et Co. 1964.
- Susan GEORGE, *Comment Meurt l'autre moitié du monde*, Paris Laffont, 1978.
- *Le Monde diplomatique*, novembre 1981.
- Sophie BESSES, *L'arme alimentaire*, Paris, Maspero 1981.
- *La Croix*, 15 janvier, 1981 (article de Antonio LA BRACCA).
- CEE, *La situation agricole dans le CEE*, Bruxelles, 1981.
- OCDE, *Coopération pour le développement*, *Examen 1981*, Paris 1982.
- *Le Monde*, 31 octobre 1981.
- Rapport spécial de la Cour des Comptes de la CEE, Luxembourg, 1980.

الساحر وسحره^١

كلود ليثي - ستروس^{*}
ترجمة حسن قبيسي

منذ أن قام وولتر كانون بتأجيه أحدنا ندرك بمزيد من الوضوح تلك الإوالات النفسية - الحسدية التي تستند إليها حالات الموت بالتعويذ والتأخيد، وهي حالات باتت مؤكّدة في مناطق عديدة من العالم^٢ : وذلك إذ يعي أحد الأشخاص أن أحدهم قد رقا رقية مؤذية ، فيرسخ لديه الاعتقاد ، بناءً على التقاليد المعمول بها لدى جماعته ، بأنه صار محكوماً عليه بالموت ، ويشاطره ذووه وأصحابه هذا الاعتقاد الراسخ . منذ ذلك الحين تأخذ الجماعة بالانكماش ، فتبعد عن الشخص الذي أحققت به اللعنة ، وتتصرف حياله وكأنه صار ميتاً بالفعل ، بل بوصفه مصدر خطر على كل من يحيط به . وهكذا يأخذ الجسم الاجتماعي في كل مناسبة من المناسبات وعبر كل تصرف من تصرفاته يوحى للشخص المنكوب بأنه ميت لا محالة ، بينما يستسلم الشخص المذكور لمصيره الذي يعتبره قدرًا محتموماً ، فلا يبذل بالتالي أية محاولة للخلاص منه . ثم إن الجماعة لا تثبت أن تؤدي الطقوس المقدسة التي من شأنها أن تسوق هذا الشخص إلى مملكة الأشباح . هكذا فبعد أن يكون الشخص المؤذن قد قُطِّع بصورة فظة وفجائية عن كل صلاته العائلية والاجتماعية واستبعد عن كل الوظائف والنشاطات التي يعي المرء ذاته من خلاها ، وبعد أن تكون قد تبيّنت له تلك القوى القاهرة

- * في العدد الماضي نشرت هذه الجملة مقالة بعنوان «الفعالية الرمزية» ، وقد سقط اسم المؤلف ليثي ستروس سهواً ، فاقتضى التبيه .
١. نُشرت هذه المقالة تحت هذا العنوان في مجلة الأزمدة الحديثة ، السنة الرابعة ، عدد ٤١ ، ١٩٤٩ ، ص ٣-٢٤ . — les temps modernes , № 41, 1949.
٢. وولتر ب. كانون ، «الموت بالسحر» ، مجلة الآنسas الأميركي ، المجلد ٤٤ ، ١٩٤٢ . [تُرجمت هذه المقالة إلى العربية ، مجلة الفكر العربي ، بيروت ، عدد ٤١ ، ١٩٨٦] — W.B. CANNON, "Voodoo Death" , American Anthropologist , A.S. , vol. 44, 1942 .

التي جرى استحضارها من جديد ، وإنما مجرد إبعاده عن عالم الأحياء ، فإنه يستسلم لمشيئة هذا الفعل المركب الذي يتالف من الشعور بالرعب الشديد ، ومن الانسحاب الفجائي والكامل لمختلف السساتيم المرجعية التي تقوم على تواطؤ الجماعة وتوافقها ، ومن انقلاب السساتيم المذكورة انقلاباً حاسماً يُعوله من كائن حي ذي حقوق وواجبات إلى كائن ميت يتحاشاه الجميع ويتعودون منه بالطقوس ويفرضون عليه الحرم ، بحيث أن التماسك الحسدي لا يعود يقوى والحالة هذه على الصمود في وجه انحلال الشخصية المجتمعية^٣.

كيف تعرّف هذه الظاهرات المعقّدة عن نفسها على الصعيد الجسماني؟ لقد بينَ كانون ان الخوف ، شأنه شأن الغيظ ، يترافق مع نشاط شديد يستبدل بالسستام العصبي الودي . ان هذا النشاط يكون في العادة مفيداً ، إذ أنه يؤدي إلى تعديلات عضوية تجعل الفرد قادرًا على التكيف مع أحد الأوضاع التي استجدت عليه. أما إذا لم يكن لدى الفرد حيلة في الاستجابة ، بصورة غريزية أو مكتسبة ، لأحد الأوضاع الاستثنائية الخارقة ، أو المعتبرة من قبيله استثنائية وخارقة ، فإن نشاط السستام الودي يتضخم ويتبليـل ما يؤديـي ، في غضون ساعات قليلة أحياناً ، إلى إحداث نقص في حجم الدم مع ما ينجم عن ذلك من هبوط في الضغط ومن أضرار في الجاري الدمويـ لا قـيل بـلاجـهاـ ثم إن الاستكـاف عن الشراب والطعام – وهو أمر شائع لدى المرضى الذين يعانون ضيقاً شديـدـ – يؤدي إلى تسريع العملية المذكورة . إذ أن الإـجـتـافـ [أـيـ نـقـصـانـ المـاءـ فيـ الكـائـنـ العـضـوـيـ] يـفـعـلـ فعلـهـ كـمـبـبـهـ للـسـسـتـامـ الـوـدـيـ ، بينما يـزـادـ نـقـصـ حـجـمـ الـدـمـ بـفـعـلـ الرـشـحـانـ المتـزاـيدـ الـذـيـ يـصـبـ الأـوـعـيـةـ الـدـمـوـيـةـ الـشـعـرـيـةـ . لقد تـبـيـنـتـ صـحةـ هـذـهـ الفـرـضـيـاتـ منـ خـلـالـ الـدـرـاسـةـ الـتـيـ تـناـولـتـ عـدـةـ حالـاتـ منـ الصـدـمـاتـ الـنـفـسـيـةـ الـتـيـ أـصـيبـ بـهـ أـصـحـابـهاـ عـلـىـ أـثـرـ تـعـرـضـهـمـ لـلـقـصـفـ الـمـدـفـعـيـ أوـ لـخـوضـ الـمـعـارـكـ فـيـ سـاحـاتـ الـقـتـالـ أوـ حتـىـ لـعـضـ الـعـمـلـيـاتـ الـجـراـحـيـةـ : فـيـ هـذـهـ الحالـاتـ يـحـصـلـ الـمـوـتـ رـغـمـ أـنـ يـتـبـيـنـ لـدـىـ الـكـشـفـ الطـبـيـ عـدـمـ وـجـودـ أـيـ جـرحـ أوـ نـزـفـ . ليس ثـمـ إذـنـ مـنـ أـسـبـابـ تـدـعـوـ إـلـىـ التـشـكـيكـ فـيـ فـعـالـيـةـ بـعـضـ الـمـارـسـاتـ السـحـرـيـةـ . لـكـنـاـ نـرـىـ ، فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ ، أـنـ فـعـالـيـةـ السـحـرـ تـنـطـويـ عـلـىـ الإـيمـانـ بـالـسـحـرـ ، وـأـنـ هـذـاـ السـحـرـ

٣. في نيسان من العام ١٩٥٦ تعرض أحد الأهالي الأستراليين إلى تأخيد من هذا النوع ونقل في حالة النزاع الأخير إلى مستشفى داروين. ثم انه وضع في رئه فولاذيـة اصطناعية وإطعم بواسطة محـارـ آليـ فـتـعـافـىـ تـدـريـجـيـاـ بعدـ أـنـ اـقـتـبـعـ بـأـنـ «ـسـحـرـ الـإـنـسـانـ أـيـضـ أـقـوىـ [ـمـنـ سـحـرـ الـإـنـسـانـ الـأـسـوـدـ]ـ»ـ أـنـظـرـ أـرـثـرـ مـورـليـ ،ـ لـندـنـ سـانـدـيـ تـاـيمـزـ ،ـ ١٩٥٦/٤/٢٢ـ ،ـ

Arthur MORLEY, London Sunday Times, 27/4/1956. ص ١١.

يتمثل بثلاثة أوجه متكاملة : فهناك ، أولاً ، إيمان الساحر بفعالية التقنيات التي يعتمدها ثم هناك إيمان المريض الذي يعالجه الساحر ، أو إيمان الضحية التي ينكل بها هذا الساحر ، بقدرات الساحر نفسه ؛ كما أن هناك أخيراً ثقة الرأي العام ومتطلباته التي تشكل في كل لحظة من لحظات العملية حقلًّا من حقول الجاذبية تتحدد في صلبه وتنعدم أواصر العلاقات بين الساحر ومن يقع عليهم سحره^٤. وبديهي أن أيًّا من الأجزاء الثلاثة المذكورة لا يمكنني لتكوين تصور واضح عن نشاط المستدام الودي وعن الاضطرابات التي سماها كانون اضطرابات الثبات المُثلي. فعندما يدعى الساحر أنه استخرج ، بالامتصاص ، شيئاً مَرْضِيَاً من جسد مريضه وإن هذا شيء كان علة الحالة المرضية التي يشكوا منها المريض ، ثم يُربينا حصاة صغيرة كان قد أخفاها في فمه ، فكيف تجد هذه العملية تبريرها في نظره؟ وكيف يتمنّى لشخص بريء متهم بالسحر أن يدفع التهمة عن نفسه في حال الإجماع علىاتهامه ، إذا كانت الحالة السحرية ظاهرة من ظواهر التوافق العام في الرأي؟ وأخيراً ، ما هو مقدار التصديق ومقدار النقد اللذين يتدخلان في موقف الجماعة تجاه الذين تعزو إليهم قدرات استثنائية خارقة وتمنحهم عدداً من الامتيازات جزاءً على هذه القدرات ، بينما تفرض عليهم بالمقابل أن يقوموا بأمور معينة تستجيب لرغباتها؟ فلنبدأ بمعالجة هذه النقطة الأخيرة.

* * *

كان ذلك في شهر أيلول من العام ١٩٣٨ . كنا نحيّم منذ بضعة أسابيع مع عصبة صغيرة من هنود الكواكيوتل على مسافة غير بعيدة من منابع نهر تاپاجوز في تلك السهوب النائية من البرازيل الوسطى حيث يطوف الأهالي خلال القسم الأكبر من العام بحثاً عن بعض البذور والثمار البرية وبعض اللبؤنات الصغيرة والحشرات والزحافات ، وبوجه عام عن كل ما من شأنه أن يحول دون موتهم جوعاً . وكان حوالي الثلاثاء من هذه العصبة قد تواجهوا في ذلك المكان على نحو ما يتفق لهم في حياتهم البدوية وتجتمعوا عائلات عائلات تحت ظلال بعض الأغصان الباهة التي تؤمن لهم حماية لا تكاد تذكر من حرّ الشمس الحرقـة خلال النهار ومن نداوة الليل ومن الريح والمطر . وكان لهذه العصبة ، شأنها شأن معظم العصبات ،

٤. على امتداد هذه الدراسة التي يتصف موضوعها بالصفة النفسانية أكثر من اتصافه بالصفة الإجتماعية نعتقد أنه بوسنا أن نضع جانباً تلك التمييزات التي تعتمدها الإجتماعيات الدينية إذ تُميز بين مختلف صيغ العمليات السحرية وبين مختلف أنماط السحرة ، إلا إذا كانت التمييزات المذكورة ضرورية جداً .

رئيس مدنى ساحر لا يمتاز من حيث نشاطه اليومي عن أيّ رجل من رجال المجموعة ، أعني بذلك مزاولته للقنص والصيد والأعمال الحرفة . كان هذا الساحر رجلاً متين البنية في حوالي الخامسة والأربعين من العمر مرح الطبع وحسن المعشر .

وفي ذات مساء ، لم يعد الرجل إلى ساحة المخيم في الساعة العتادة . ثم أعم الليل وأشعلت النيران ، وأخذ الأهالي يغربون عن قلفهم . إذ إن مخاطر الأدغال كثيرة : فهناك الأنهر الحارفة ، وهناك خطر التعرض لحيوان بري كبير كالنمر أو آكل النمل ، رغم أن ذلك قليل الحدوث . لكن الخطر الذي يتبارد في الذهن الناميكيوارا قبل غيره هو التعرض لحيوان قد يبدو من حيث مظهره عديم الخطر لكنه في الواقع تجسيد لجنّ شرير من جناني المياه أو الغابات قد تقمص فيه ، خاصة وأننا كنا نلمع كل مساء منذ أسبوع نيراناً تبعث من مخيمات غامضة كانت تبتعد عن مخيمنا تارة وتقترب منه تارة أخرى . والحال أن كل ما هو مجدهل الهوية يعتبر بمثابة العدو الممكн . وهكذا وبعد ساعتين من الانتظار ساد الاعتقاد بأن صاحبنا قد وقع في كمين من الكائن ، فراح ابنه وزوجاته يبكونه بصوت عال ، بينما أخذ سائر الأهالي يتلاطفون حول العواقب الوخيمة التي لا بد أن تترتب على اختفائه .

وفي حوالي الساعة العاشرة ليلاً كان هذا الترقب المحموم للمصيبة المرتقبة ، فضلاً عن التواح الذي أخذت تشارك به بعض النساء الأخريات والتململ الذي أخذ يدب بين الرجال ، قد أفلح في خلق جوًّ مشحون بحيث قررنا أن نذهب لاستكشاف ما حصل برفقة بعض الذين حافظوا على هدوئهم النسبي . وما ان قطعنا حوالي المئتي متر حتى وقعنا في طريقنا على كتلة جامدة لا حراك بها : كان ذلك صاحبنا الساحر وقد تكون بأكمله بصمت على نفسه وراح يرتحف من برد الليل ، بينما بدا مشتعّ الشعر وعارياً من نطاقه (إذ إن معشر الناميكيوارا لا يرتدون شيئاً آخر من الملابس) ومحرداً من طوفه وأساوره . ثم إننا اصطحبناه إلى المخيم دون صعوبة تذكر ، لكن خروجه عن صمته المطبق اقتضى حضراً متالياً من قبل الجميع ورجآت حارّة من قبل ذويه . فكان أن أفلح ذلك بعد لأي ، بانزاع تفاصيل حكاياته نتفة بعد نتفة . وهكذا روى لنا الرجل كيف أن عاصفة قد هبّت في مستهلّ بعد الظهر – وهي الأولى من عواصف ذلك الفصل – وكيف أن الرعد قد نقله إلى موضع يبعد عدة كيلومترات ثم أعاده إلى حيث وجدناه . بعد أن جرّده تماماً مما كان يرتديه . بعد ذلك توجه الجميع إلى النوم وهم يعلقون على ما حدث . وفي اليوم التالي كان الرجل الذي ذهب

ضحية الرعد قد استعاد حبوره المعتاد ، فضلاً عن كل حلية التي فقدها ، الأمر الذي لم يبدُ أنه استثار دهشة أحد ، وما لبست الحياة العاديَّة أن استعادت مجريها الطبيعي .

غير أن بعض الأهالي ما لبثوا ، بعد مضيِّ أيام معدودات ، أن أخذوا يرُوجون لرواية أخرى لتلك الأحداث المشهودة . وينبغي أن نعلم أن العصبة التي شهدت مسرح الأحداث المذكورة كانت تتألف من أفراد يعودون إلى أصول مختلفة كانوا قد اندمجوا في وحدة مجتمعية جديدة على أثر بعض الظروف الغامضة . فقد أتت جائحة على أحدى المجموعتين قبل ذلك بسنوات بحيث لم تعد هذه المجموعة قادرة من الناحية العددية على متابعة حياتها على حدة ، بينما كانت المجموعة الأخرى قد انفصلت عن قبيلتها الأصلية ووجدت نفسها عرضة للصعوبات ذاتها . أما متى التقت المجموعتان ، وبأي شروط فررتا أن توحّدا قواهما بحيث قدمت إدراهما للتشكيلية الجديدة رئيسها المدني وقدمت الأخرى لها رئيسها الديني ، فأمر لم نستطع أن نعرف عنه شيئاً . لكن من الثابت أن هذا الحدث يعود إلى عهد قريب . والدليل على ذلك هو أنه لم يكن قد حصل بين المجموعتين ، إبان التقائنا بهما ، أي زواج بين أفرادهما رغم أن أبناء الواحدة منها كانوا مخطوبين بشكل عام لأبناء الأخرى . ورغم أن المجموعتين كانتا تقاسمان الوجود والمصير فقد كانت كل منها لا تزال تحتفظ بلهجتها فلا تستطيع الاتصال بالأخرى إلا بتوسُّط رجلين أو ثلاثة من يجيدون اللهجتين .

بعد هذه التوضيحات الضرورية ، إليكم ما كانت تهمسه بعض الألسن في بعض الآذان : لقد كانت هناك أسباب وجيهة تدعو إلى الافتراض بأن الأرهاط المجهولة التي تتجول في السهوب المحاورة كانت تتحدر من قبيلة المجموعة الانفصالية التي يتسمى إليها الساحر . ولما كان هذا الأخير يتطاول على صلاحيات زميله الرئيس السياسي ، فمن الممكن أن يكون قد أراد الاتصال بمواطنه القدماء ، إما ليتمسّ منهم العودة إلى القبيلة ، وإما ليحضرهم على مهاجمة حلفائه الجدد ، وإما ليطمئنّهم حول موقف هؤلاء الحلفاء منهم . ومما يken من أمر ، فقد كان بحاجة إلى ذريعة تبرّر غيابه ، فاختبر حادثة اختطافه من قبل الرعد مع كل الإخراج المسرحي الذي تلتها ، خدمة لتلك الغاية . وطبعي أن يكون أهالي المجموعة الأخرى هم الذين روّجوا هذا التفسير الذي كانوا يعربون سرًّا عن اعتقادهم به كما كانوا يعربون عن تحفّفهم الشديد من عواقبه . أما التفسير الرسمي للحدث فلم يناقش بصورة

علنية على الإطلاق ، لكنه ظلّ مقبولاً في الظاهر لدى الجميع وحتى معاذرتنا التي أعقبت ذلك بفترة قصيرة^٥.

غير أن هؤلاء المتشكّفين كانوا سيتعجبون كل التعجب فيما لو أثروا أمامهم مثل هذه الحيلة الممكّنة جدّاً بقصد التشكيك بسلامة طوية ساحرهم وبفعالية أعماله ، رغم أنهم هم الذين كانوا يخلّون دوافعها بكثير من النباهة النفسانية والحسّ السياسي . فن الأرجح أنه لم يخلق على أجنبية الرعد حتى ريو أنازار ، وأنّ كل ما قاله لم يكن إلا إخراجاً مسرحيّاً . لكن مثل هذه الأمور ممكّنة الحصول ، وقد حصلت بالفعل في مناسبات أخرى ، فهي تتسم بال التالي إلى حيز الخبرة . فما لا شك فيه أن الساحر يقيم علاقات وثيقة مع القوى الغيبية . أما أن يكون في هذه الحالة المخصوصة قد تذرّع بقدراته السحرية إخفاءً منه لنشاط دنيويّ عابر فهذا أمر يتصل بحيز الظن والتخيّل ومناسبة لمارسة النقد التاريخي . لكن النقطة الهامة تكمن في أنّ أيّاً من هذين الاحتمالين لا يتنافي مع الآخر ، مثلما أن تفسير الحرب ، من جانبنا ، بوصفها أعلى مراحل الاستقلال القومي لا يتنافي مع كونها حصيلة للألاعب تجّار المدفع وخرّع بلاهم . فرغم أن هذين التفسيرين يتنافيان منطقياً ، فإننا نسلّم بصحّة أحدهما أو بصحّة الآخر ، حسب الحالة الواحدة . وبما أنها ، كلاماً ، مقبولان ومعقولان فإننا ننتقل من أحدّهما إلى الآخر بكل سهولة ، حسب الظرف والمناسبة ، بل إنّها قد يتعايّشان تعائشاً غامضاً في وعي الكثرين مثناً . إن هذه التفسيرات المتنافرة ، منها كان أصلها متهدّلة ، لا تَرِدُ على الوعي الفردي بعد قيامه بتحليل موضوعي بقدر ما تخطر له بوصفها معطيات تكميلية تستدعيها بعض المواقف الشديدة الغموض التي لم تتم بلورتها وصياغتها بعد والتي تتحذّل لدى كلّ مثناً طابع الخبرة . غير أن هذه الخبرات تظلّ من الناحية العقلية عديمة الأشكال والصور . كما تظلّ من الناحية العاطفية بعيدة عن نطاق التساهل تجاهها . اللهم إلا إذا اندمجت وانخرطت ضمن أحدى تلك الترسّمات [الذهنية] التي تعمّ على سطح الثقافة الجماعية والتي ينفرد استيعابها دون سواه بإسباغ طابع موضوعي على حالات ذاتية وإضافات شكل معين على انطباعات لا شكل لها ، وبدمج خبرات مفككة في إطار سستام واحد.

* * *

٥. ك. ليفي ستروس ، المداران البائسان ، باريس ، ١٩٥٥ ، الفصل التاسع والعشرون .
C. LÉVI-STANSS, *Tristes Tropiques*, Paris, 1955, chap. XXIX.

وتضخّح لنا هذه الإِوَالات على نحو أَفْضل إذا نظرنا إِلَيْها على ضوء المعاينات التي صارت قديمة الْيَوْم ، وهي التي قامت بها الباحثة القديرة م . ستفسنون بين عشور الزوني في المكسيك الجديدة^٦ . فقد أصيّت فتاة في الخامسة عشرة من العُمر بأَزْمَة عصبية بعد أن تناول يديها أحد الشبان المراهقين . فاتَّهم الشاب بالسحر واقتيد ليُمْثِل أمام محكمة كهان الارك [القوس] . وهناك ظلّ لفترة من الزَّمِن ينكر عَيْنَاهُ أن يكون له معرفة بِأَيَّة شَوْؤُن غَيْبَية . ثم لما تبيّن له عقْم هذا السِّسْتَام الدِّفَاعِي ، وبما أن السحر كان لا يزال في ذلك الحين جريمة يُعاقَبُ عليها بالموت عند عشور الزوني فقد بلأَ المُتّهم إلى تكتيك جديد واحتلق قصة طويلة عريضة تحدث فيها عن الظروف التي تأهَّلَ فيها لِمارَسَة السحر ، وكيف أنه تلقَّى من معلّميه عُقارِين أحدهما يسبِّب الجنون للفتيات والآخر يشفِّئُ منه . لقد شَكَّلت هذه النقطة الأخيرة ضرباً من الحِيَطة العَقْرِيرِيَّة التي ستقِيمُه من شرّ التطورات اللاحقة . إذ ان قضايَته أَرْغَمَوه على تحضير هذين العُقارِين فذهب إلى منزله تحت الحراسة وعاد بمحضرِين من جذور النباتات ، ثم ما لبث أن استخدمهما في سياق تأديته لشعائر معقدة تظاهر خلالها بأنه انتابته نوبة شديدة على أثر تناوله أحد العُقارِين ، ثم بأنه عاد إلى حالته الطبيعية بعد تناوله الآخر . ثم أمر المريضة بِتَجْرِيع الدواء وأعلن أمام الملايين عن شفائها . فُرِّقت الجلسة إلى اليوم التالي ، لكن الساحر المزعوم تمكّن من الفرار أثناء الليل . فُقْبِضَ عليه من جديد وطلبت عائلة الضحية أن تتعقد المحكمة لمتابعة الدعوى . ولما لم يُسْكِن الفتى أن قضايَته الجدد يعاندون في تصدِيق قصته السابقة عمد إلى اختراع قصة جديدة : فقد زعم أن ذويه وأجداده كانوا جمِيعاً من السحرة وأنه أخذ عنهم قدرات عجيبة كالقدرة على التحوّل إلى هرّ ، وعلى ملء فمه بأشواك من الصبار ، وقتل ضحاياه – طفلان وثلاث فتيات وفتَّيَان – بدفعهم على الأشواك المذكورة ، وإن كل ذلك ينطلي له بفضل بعض الرَّيش السحرية التي تمكّنه ، هو وذووه ، من مفارقة الشكل البشري . لقد كان هذا التفصيل الأخير خطأً تكتيكيًّا . إذ ان القضاة أخذوا يطالعونه الآن بإحضار تلك الرَّيش كدليل على صحة قصته الجديدة . وبعد أنواع شتَّى من الأعذار التي رفضتها القضاة واحداً تلو الآخر اضطر الجميع إلى الانتقال إلى المنزل العائلي حيث يعيش المُتّهم . فأخذ الشاب

٦. م. ستفسنون، هنود الزوني، التقرير السنوي الثالث والمشرون الصادر عن مكتب النيابة الأميركيَّة، المؤسسة المسيحيَّة، واشنطن، ١٩٠٥.

M.C. STEVENSEN, *The Zuni Indians*, 23d Annual Report of the Bureau of American Ethnology, Smithsonian Institution, Washington, 1905.

يُزعم أن الرئيس قد خبّئت فيما مضى خلف ركن من أركان أحد الجدران وأنه لا يستطيع هدم الجدار المذكور. فأجبره القضاة على هدمه. وما هدم جانباً منه ودقق بعنته في كل قطعة من قطعه حاول أن يعتذر عن عدم تذكره مكان الرئيس ، فقد مضى على تخبيتها في ذلك المكان عاماً ولم يعد يذكر بالضبط أين خبّئ. لكن القضاة أرغموه على المضي في البحث عنها . فانتهى به الأمر إلى هدم جانب آخر من الجدار. وكان قد مضى زهاء الساعة على عملية التهديم الجديدة عندما لاحت بين حجارة **البن** والطين معالم ريشة قدية بالية . فتناولها الفتى بلهفة شديدة وقدّمها لقضاته الحلفين بوصفها الأداة السحرية التي حدّثهم عنها . فطلبوه منه أن يشرح لهم بالتفصيل إوالة استخدامها . وأخيراً اقتادوه إلى الساحة العامة حيث روى من جديد كلّ قصته وعزّزها بعدد كبير من التفاصيل الجديدة ثمّ أنهاها بخاتمة شجّة مؤثرة راح في أثرها يندب حظه العاثر لأنّه فقد قدراته الغيبية . وهكذا اطمأن سامعوه ووافقو على إطلاق سراحه .

إن هذه القصة التي اضطررنا للأسف إلى اختصارها وتجريدها من كلّ دقائقها النفسانية تظل ذات قيمة تعليمية من أوجه عدّة . فنحن نرى ، أولاً ، أن المتهم بعد ملاحظته بهمة السحر وتعرّضه من جراء ذلك لعقوبة الموت ، لم يحصل على تبرئته بنفي التهمة عن نفسه بل بانتحاله لل مجرم المزعوم ، ناهيك بأنه خدم قضيته عندما قدم روايات متلازمة كلّ منها أغنى وأفضل بالتفاصيل (وبالتالي أشدّ مداعاة للإدانة ، من حيث المبدأ) من الأخرى . والنقاش لا يخصّ ، كما هي الحال في دعاوينا ، للاتهام ولنفي هذا الاتهام ، بل للإثبات والتخصيص . فالقضايا لا يتوقعون من المتهم أن يبني قضية ما ، ناهيك بأنّهم لا يتوقعون منه تحضير الواقع ، بل إنّهم يسألونه أن يعزّز سسماً لا يملكون منه إلا جزءاً بسيطاً ، وهم يريدون منه بالتالي أن يستكمّل الأجزاء الباقية بطريقة من الطرق . وبهذا المعنى تشير الباحثة تعليقاً على احدى مراحل الدعوى : « **فالمقاتلون كانوا مستغرقين كلياً في الإصغاء لقصة الشاب بحيث أنهم كانوا ينسون السبب الرئيسي الذي مثل من أجله أمامهم** ». وعندما تمكّن الفتى في نهاية المطاف من نبش الريشة السحرية تعلّق المؤلفة بكثير من العمق : « **لقد ساد الذهول بين المقاتلين ثم صاحوا بصوت واحد متعجبين : « ماذا يعني كل هذا؟ » . فقد تأكّد لديهم في تلك اللحظة ان الفتى كان محقاً في قوله** » : فالمؤلفة تتحدث عن ذهول ، لا عن ارتياح لرؤية الدليل الملموس الذي يؤكّد الجرم : ذلك أن القضاة لا يسعون إلى إدانة جرم معين بقدر ما يسعون إلى تأكيد حقيقة السستام الذي جعله ممكّناً (وذلك بأن أكّدوا صحة أساسه

الموضوعي بتعبير عاطفي ملائيم). فاعتراف المتهم الذي تعزّز بمشاركة القضاة ، بل بتوافقهم ، أدى إلى تحويله من مجرم إلى متعاون مع الاتهام . وهكذا كان للمتهم المذكور أكبر الفضل في تخليص السحر والأفكار المرتبطة به من صيغة وجودها المثبتة في الوعي ، بوصفها مجموعة مهمة من المشاعر والتطورات التي تفتقد للتبلور لكي تتجسد في كيان اختباري . فصار الحفاظ عليه ، بوصفه شاهداً ، أمراً يوفر للمجموعة تلبيةً لرغبتها في معرفة الحقيقة ، تفوق من حيث الغنى والزخم حرصها على تطبيق العدالة ، الأمر الذي كان سبباً فيما لو حكمت بقتله . وأخيراً فقد توصل الفتى المراهق ، عبر دفاعه الذي جعل ساميده يدركون بصورة تدرجية ذلك الطابع الحيوي الذي يتتصف به تحقّقهم من صحة سلامتهم (ذلك أنهم ليسوا محظيين بين تبني هذا السّسـتم أو تبني سـسـتم آخر ، بل بين تبني السـسـتم السـحـري أو لا سـسـتم على الإطلاق ، أي الـوـقـعـ في فـرـاغـ الـبـلـبـلـةـ) ، إلى التـحـوـلـ من خـطـرـ يـهدـدـ سـلاـمةـ المـجمـوعـةـ منـ النـاحـيـةـ الجـسـديـةـ ، إـلـىـ ضـمـانـةـ تـوـمـنـ تـماـسـكـهاـ منـ النـاحـيـةـ الـذـهـنـيـةـ.

ولكن هل يقتصر الدفاع بالفعل على كونه دفاعاً بارعاً وحسب؟ إن كل الواقع توجي بأنّ المتّهم قد عمد ، بعد تلميذه [عيثا] لسلسلة [من قضااته] ، إلى المشاركة بصدق وحماس - والكلمة ليست من قبيل المبالغة - بتلك اللعبة الدرامية الكيّة التي أخذت تبلور بين قضااته وبينه . فقد قيل عنه أنه ساحر . وبما أن هناك سحرة ، فليكن ساحراً . ولكن كيف يتمنى له أن يعرف مسبقاً تلك الدواليل التي تنبئه بأمر دعوته؟ ربما كانت هذه الدواليل ماثلة أمامه ، ومتجلّة في هذه الحنة التي تعرض لها ، وفي تلك الاختلاقات التي انتابت الفتاة عندما مثلت أمام هيئة المحكمة . إذ انه هو الآخر يعتبر ان تمسك السّسـتمـ ، فضلاً عن الدور الذي أوكل إليه بغية بلونته ، لا يقلّان أهمية عن سلامته الشخصية التي تعرضت للخطر خلال هذه المغامرة . وهكذا رأينا يبتني بصورة تدرجية تلك الشخصية التي فرضت عليه متوسلاً إلى ذلك مزيجاً من الحيلة وسلامة الطوية : فقد راح الشاب ينقب في معارفه وذكرياته ، بل راح يرتجل بعض المواقف كذلك ، لكنه كان قبل كل شيء يعيش دوره ويُسعى ، عبر التلاعيبات التي قام بها ، وعبر الشعائر التي ركّبها من أجزاء متّشرة وشتي ، إلى اختبار الاصطلاح بهذه الرسالة التي يعلم ان احتمال الاصطلاح بها ، على الأقلّ ، متأخّراً أمام الجميع . والحق ، ما الذي تبقى في ختام هذه المغامرة من تلك العجل التي حصلت في بدايتها ، وإلى أي حدّ نستطيع أن نقول أن بطل المغامرة ظلّ بمنأى عن الواقع في فتح الشخصية التي تلبّسها؟ بل أكثر من ذلك : إلى أي حدّ نستطيع أن نقول انه لم يتحول إلى

ساحر بالفعل؟ ان اعترافه النهائي ينص ، كما نقل إلينا ، على أنه ، «كما كان الشاب يمضي في حديثه كلما كان يستغرق في موضوع الحديث . وقد كان وجهه يتلألق في بعض الأحيان من جراء ارتياحه للشعور بأنه قد تمكّن من الاستحواذ على أفكار سامعيه» . وما هي إلا أن تشفى الفتاة بعد تناولها للدواء ، وأن تتبلور الخبرات المعيشة عبر هذه الحالة الاستثنائية وتنتظم عناصرها ، حتى يتبيّن أن تلك القدرات الغيبية التي تعرف الجماعة سلفاً بوجودها لم تعد بحاجة إلى مزيد حتى يُصار إلى الإقرار بها إقراراً نهائياً من جانب الشخص البريء الذي يمتلكها .

* * *

وينبغي لنا أن نولي مزيداً من الأهمية أيضاً لوثيقة أخرى ذات قيمة استثنائية ، لكنها لم تحظ حتى الآن إلا باهتمام لغوياً وحسب : إنها جزء من سيرة ذاتية أهلية كان فرانز بواس قد جمعها بلغة الكواكيوتل⁷ (من جزيرة فانكوفر ، في كندا) وترك لنا رجمة لها سطراً بسطر . كان المدعو كيزاليد (وهو الاسم الذي أطلق على هذا الرجل عندما صار ساحراً) لا يؤمن بقدرات السحرة ، أو على الأصح بقدرات الكهنة ، لأن هذه اللفظة تعبر تعبيراً أفضل عن نمط النشاط المخصوص الذي يقومون به في بعض المناطق من العالم . فدفعه فضوله للكشف عن خزعبلاتهم ورغبته بفضح الأعييهم إلى معاشرتهم والتردّد عليهم ، فدأب على ذلك إلى أن عرض عليه أحدهم إدخاله في مجتمعهم حيث يُصار إلى تأهيله ليصبح واحداً منهم . لم يتردد كيزاليد في قبول العرض المذكور . حتى ان روایته تصف بالتفصيل ما هي أولى الدروس التي تلقاها على أيديهم : مزيج غريب من الإشارات الإيمائية والشعوذة والمعارف التجريبية ، حيث يختلط فن التظاهر بالإغواء وتصنّع النوبات العصبية وحفظ الأغاني السحرية والتمرّس بتقنية التقليد فضلاً عن عدد من مبادئ فحص المرأة بالتنصّت إلى صدره ومبادئ فن التوليد واستخدام بعض الأشخاص «الشاردي الذهن» ، أي بعض الجواسيس المكلفين بالإصغاء إلى أحاديث الناس الخاصة لإطلاع الكاهن سرّاً على بعض المعلومات المتعلقة بأصل وأعراض الآلام التي يعني منها فلان أو فلان ، وأخيراً إتقان ذلك

7. فرانز بواس ، ديانة الكواكيوتل ، مساهمات جامعة كولومبيا في الإنسنة ، مجلد ١٠ ، نيويورك ، ١٩٣٠ .
Franz BOAS. *The religion of the Kwakiutl, Columbia University Contributions to Anthropology*, vol. X New York, 1930, part II, pp. 1-41.

الفن الأكبر المرعي لدى إحدى مدارس الكهانة على الساحل الشمالي الغربي من الخيط الهادئ ، وهو كناية عن استخدام حوصلة صغيرة من الرّغب يخفّها [الكافن] المحترف في ناحية من نواحي فه ليلفظها في اللحظة المناسبة مضمضة بالدم ، بعد أن يكون قد عض لسانه أو استنزف الدماء من لثته ، ثم يتباهى بعرضها على الملاّ وعلّ المريض بوصفها الجسم المرضي الذي توصل إلى استخراجها بعد عدد من الامتصاصات والمعالجات .

هكذا ترسّخت لدى كيزاليد شكوكه بأسوأ أشكالها . لكنه حرص على متابعة التحقيق بالأمر . غير أنه لم يعد بوسعه أن ينصرّف كما يحلو له ، إذ إن أمر تدريبه على يد الكافن أخذ يشيع بين الناس . وهكذا تلقى ذات يوم دعوة من عائلة أحد المرضى بعد أن زعم المريض أنه أبصره في منامه وشفي على يديه . فأسفر علاجه الأول هذا عن نجاح باهر (علمًا أنه ، كما يقول ، لم يتغاضّ عنه أجرًا ، ولا عن العلاجات التي تلته ، إذ انه لم يكن قد أنهى مدة تدريبيه الرسمية التي تمتّ طوال أربع سنوات) . إلا أن كيزاليد لم يتخلّ عن موقفه النقيدي رغم أنه عُرف منذ ذلك الحين بأنه «من كبار الكهان» . فقد فسر نجاحه المذكور بأسباب نفسانية «ذلك أن المريض كان يؤمن إيماناً راسخاً في الحلم بأنه شفي على يدي» . أما ما جعله يصبح «متحيراً ومتفكراً في الأمر» ، على حد قوله ، فهي حادثة غريبة أشدّ تعقيداً جعلته يواجه صيغًا متعددة من «الخوارق الزّيفة» ، مما أدى به إلى الاعتقاد بأن بعض الصيغ أقلّ زيفاً من بعضها الآخر : والمعنى بذلك ، بالطبع ، تلك التي كان اهتمامه الشخصي متوجهاً نحوها ، فضلاً عن السستام الذي أخذ يبني في ذهنه بغلة عنه .

لقد قام كيزاليد بزيارة إلى قبيلة كوسكيمو المجاورة ، وشهد لديها علاجاً أشرف عليه عدد من أساطين الكهان الأجانب . ولشدّ ما كانت دهشته كبيرة عندما تبيّن له أن هناك اختلافاً تقنياً : فعوضاً عن أن يعمد الكافن الكوسكيمو إلى تفل المرض على شاكلة دوية مضمضة بالدم قوامها حوصلة الرغب المخبأة في الفم ، كانوا يكتفون بتفل شيء من اللعاب بين أكفّهم زاعمين أن هذا هو «المرض» . فما قيمة هذه الطريقة؟ وما هي النظرية التي تقوم عليها؟ وحتى يكتشف كيزاليد «ما هي قوة هؤلاء الكهان ، وما إذا كانت قوّة فعلية ، أم أنهم يدعون كونهم كهاناً مجرّد ادعاء» شأنهم شأن مواطنيه الكهان ، طلب منهم أن يسمحوا له بتجرب طريقة بعد أنباء علاجهم المذكور بالفشل ، فسمحوا له بذلك ، وكان أن أعرب المريض عن شفائه .

هنا بلغت الحيرة من بطلنا كل مبلغ . فرغم الشكوك التي كانت قد انتابته حتى الآن حول التقنية التي يتبعها ، ها هو يجد تقنية أشدّ زيفاً منها وأشدّ غيبة وأكثر غشاً وخداعاً. إذ أنه ، من ناحيته ، كان ، على الأقل ، يقدم لزبونة شيئاً ما : فقد كان يُريه المرض رأي العين ويطرحه أمامه بصورة ملموسة ، في حين أن زملاءه الأجانب هؤلاء ما كانوا يقدمون للمرضى شيئاً بل يدعون وحسب أنهم قد وضعوا يدهم على المرض وبقضوا عليه. هذا وقد أسفرت طريقته عن نتيجة إيجابية بينما باعث طريقتهم بالفشل . وهكذا وجد بطلنا نفسه إزاء مشكلة ربما كانت تجذب نظرتها في تطور العلم الحديث : فإذا كان لدينا سستامان نعلم حق العلم أن كلاهما لا يفي بالغرض المتوجّي منه ، كما نعلم في الوقت نفسه أنه كلاً منها يختلف عن الآخر من حيث القيمة ، وذلك من الناحية المنطقية ومن الناحية الاختبارية على السواء ، فما هو السستام المرجعي الذي نحكم عليهما بالنسبة إليه؟ أيكون سستام الواقع حيث لا فرق بين السستامين المذكورين ، أم يكون كلّ منها بحد ذاته هو هذا السستام المرجعي ، علمًا بأنهما لا يتمتعان بقيمة متكافئة لا من الناحية النظرية ولا من الناحية العملية؟

في هذه الأثناء كان الكهان الكوسكيمو « وقد أخذ منهم الخجل كل مأخذ» نظراً لفقدان اعتبارهم في أعين مواطنיהם ، قد بدأت تساورهم الشكوك من كل صوب : فقد عمد زميلهم إلى إبراز المرض على شاكلة شيء مادي ، في حين أنهما كانوا يذهبون على الدوام إلى أن طبيعة المرض روحانية وحسب ، فلم يخطر لهم وبالتالي على الإطلاق أن يجعلوه مريضاً. لهذا بعثوا إلى كيزاليد رسولاً يدعوه إلى الاشتراك معهم في اجتماع سري يعقدونه في أحد الكهوف . فذهب كيزاليد إلى هذا الاجتماع حيث عرض عليه زملاؤه الأجانب طبيعة سستامهم : « كل مرض من الأمراض هو كنایة عن كائن بشري : الدمل كائن بشري ، والورم كائن بشري ، وكذلك الأكال والوسف ، والبثور والسعال ، وكذلك المزال والسل ، فضلاً عن تقلص المثانة وألام المعدة ... فإذا توصلنا إلى القبض على روح المرض الذي هو بشر ، مات هذا المرض ، بحکم كونه بشرًا ، وتلاشى جسمه في دواخلنا ». فإذا صحت هذه النظرية ، فما الذي يمكن عرضه على المريض؟ وبالتالي فما هي الأسباب التي جعلت «المرض يلتصق بيدي كيزاليد» عندما قام بالعلاج؟ لكن كيزاليد تعلّل بالأعراف المهنية التي لا تسمح له بتفسير أي شيء قبل إتمام سنوات التدريب الأربع ، وظلّ لائداً بالصمت . ثم أنه التزم هذا الموقف حتى عندما أرسل إليه الكهان الكوسكيمو بناتهن العذارى في محاولة لإغوائه وانتزاع سره .

بناءً عليه عاد كيزاليد إلى قريته في فور روپرت ليعلم هناك أن شيخ الكاهن في أحدى العشائر المجاورة ، قد ساوره القلق حول شهرة كيزاليد المتزايدة فأطلق تحديًا في وجه جميع زملائه ودعاهم إلى المنافرة أمام عدة مرضى . فذهب كيزاليد إلى الموعد المحدد وشهد عدة علاجات قام بها الكاهن المذكور . لكن هذا الكاهن ، كان هو الآخر ، شأنه شأن الكوسكيمو ، لا يعرض المرض . بل كان يقتصر على إخفاء شيء غير مرئي « يزعم أنه المرض » ، تارةً في ثانيا عمرته المصنوعة من لحاء الشجر وطورًا في خصخيسته الشعاعية المنحوتة على شكل عصفور ، فكان هذان الشيئان [العمرنة والخشخيشة] قادران بالتالي على البقاء متارجحين في الفراغ بناءً « على قوة المرض الذي يغضّ » على أعمدة المترّل أو على يد الكاهن . ثم بدأ السيناريو المعلوم . فطلب إلى كيزاليد أن يتدخل في الحالات المليوسة التي عجز الكاهن الشيخ عن علاجها ، فتمكن من شفائها بتنمية الدويدة المضمّخة بالدم . هنا تصل روایتنا إلى القسم المحرّن والمثير منها . فقد عمد الكاهن الشيخ ، تحت وطأة العار واليأس نظرًا لفقدان اعتباره وانهيار سستامه العلاجي ، إلى إرسال ابنته بمثابة المعبوطة لدى كيزاليد راجيًّا منه أن يتكرم على أبيها بمقابلته ، فذهب كيزاليد ووجده جالسًا إلى جذع شجرة فتكلم الشيخ وقال : « لا بأس علينا إذا نحن تبادلنا هنا الحديث يا صديقي . لكنني أود فقط أن تبذل محاولة لإنقاذ حياتي حتى لا أموت من العار والخجل ، إذ إنني أصبحت أضحوكة في نظر قومي بسبب ما قمتُ به البارحة . إنني أناشدك أن ترأف بحالِي وأن تخبرني بما على بكفك في تلك الليلة . هل هو المرض حقًا ، أم أنه كان شيئاً مصطنعاً وحسب؟ إنني أتوسل إليك أن ترأف بحالِي وتخبرني كيف فعلت ذلك حتى أتمكن من تقليدك . ارأف بحالِي يا صديقي ». لاذ كيزاليد بالصمت في بادئ الأمر . لكنه تكلّم بعد ذلك وطالب الشيخ بأن يفسّر له مأثيري العمرة والخشخيشة . فأراه زميله دبوساً دقيقاً مدوسوساً بين ثانيا العمرة بحيث يمكنه من تعليقها بزاوية قائمة على أحد الأعمدة ، كما شرح له الطريقة التي تمكّنه من تثبيت طرف خصخيسته بين أصابعه ليزيّن للملأ أن العصفور يثبت متعلقاً بمنقاره براحة يده . لا شك إذن في أنه كان يكذب ويعشن . وانه كان يتعاطى الكهانة نظرًا للمكاسب المادية التي كانت تدرّها عليه و « طمعاً بثروات المرضى ». كان يعلم علم اليقين ان القبض على الأرواح أمر مستحيل « إذ أنها نملّك جميًعاً أرواحنا » لهذا فقد كان يستعمل بعض الودك ويزعم « أنه الروح ، ذلك الشيء الأبيض الذي يقع في كفه ». ثم أضافت الفتاة توسلاتها إلى توسلات أبيها وقالت : « أرجوك أن ترأف بحاله حتى يتمكّن من البقاء على قيد الحياة ». لكن كيزاليد

ظل لائداً بالصمت . وعلى أثر هذه المقابلة المأساوية اضطر الكاهن الشيخ إلى معادرة القرية في الليلة نفسها مصطحبًا معه كل ذويه ، « مريض الفؤاد » ومرهوب الجانب من قبل الجماعة نظرًا لما قد يقوم به من أعمال انتقامية بحقها . لكن ذلك كله لم يجد : فقد عاد ثانية إلى القرية بعد عام . وكان قد أصبح معتوهًا هو وابنته . ثم قصى نحبه بعد ذلك بثلاثة أعوام . أما كيزاليد فقد مضى يتبع عمله مغتنياً بالأسرار فاضحًا للمحتالين ومملؤه الاحتقار لهذه المهنة : « ولم أشاهد كاهناً يعالج المرضى عن طريق الامتصاص إلا مرة واحدة فقط . لكنني لم أستطع أن أعلم ما إذا كان كاهناً حقيقاً أم مزيفاً . أعلم أنه لم يكن يتفرض أجرًا من الذين يشفئهم ، ولهذا السبب وحده أعتقد أنه كان كاهناً . والحق أنني لم أره يضحك مرة واحدة » . وهكذا فقد تغير موقعه تغيراً ملماوساً عما كان عليه في البداية : إذ حلّت المشاعر الحساسة محل السلبية الجذرية . فهناك ، في رأيه ، كهان حقيقيون . ولكن ماذا عنه هو بالذات ؟ لا ندري . لكن من الواضح أنه يمارس مهنته بضمير حيّ ، وأنه فخور بما يحققه من نجاح ، وأنه يدافع دفاعاً حاراً ، ضد جميع المدارس المنافسة ، عن تقنية الرغب المضمخ بالدم التي يبدو أنه تغافل عن طبيعتها الإحتيالية تغافلاً تاماً بعد أن كان لا يفتأ يتهكم عليها في بداية الأمر .

* * *

هكذا يتبيّن لنا أن نفسية الساحر ليست بالأمر البسيط . في محاولة لتحليل هذه النفسية نبدأ أولاً بحالة الكاهن الشيخ الذي أخذ يرجو خصميه الشاب أن يقول له الحقيقة حول ما إذا كان المرض الذي علق براحة يده على شاكلة دويدة حمراء لزجة مرضًا فعلياً أم مفتعلًا ، ثم ما ثبت أن انتابه الجنون لأنه لم يجد جواباً على سؤاله . فقد كان لديه قبل هذه الدراما مُعطيان إثنان : أولاً قناعته بأن الحالات المرضية لها سبب وان من الممكن التوصل إليه ، وثانياً سستام من الاجتهد يلعب فيه الإبتكار الشخصي دوراً كبيراً بحيث يؤدي إلى ترتيب مختلف مراحل المرض ترتيباً معيناً ، بدءاً بتشخيصه وانتهاءً بشفائه . إن هذا الترتيب الموهوم الذي يتناول واقعاً مجهولاً بحد ذاته ويتقدّم بعدد من الإجراءات والتصورات ، يستند إلى خبرة مثلثة الأبعاد : خبرة الكاهن نفسه الذي يعياني من حالات مخصوصة ذات طبيعة نفسية – جسدية ، رغم صحة توجّهه للقيام بمهنته (بل رغم عدم صحة هذا التوجّه ، وذلك بحكم ممارسته لها ليس إلا) ، وخبرة المريض الذي يشعر بتحسن حالته أو لا يشعر ، وخبرة الجمهور الذي يشارك هو الآخر في عملية العلاج والذي يستمدّ من

هذه المشاركة تمّسًا معيناً وارتياحًا ذهنيًا وعاطفياً يحدّدان نوعاً من الـلـاء الجـامـعي الذي يفتح بدوره دورة جديدة.

ان هذه العناصر الثلاثة التي يتكون منها ما يمكن تسميته بالعقدة الكهانية هي عناصر لا تنفص عراها. لكننا نرى كيف أنها تتنظم حول قطبين اثنين يتشكل واحدهما من خبرة الكاهن الحميمة ، والآخر من حالة الرضا الجماعية . الواقع أنه ليس ثمة ما يدعوا إلى الشك بإيمان السحرة برسالتهم – أو بإيمان المخلصين منهم على الأقلّ – وبأن هذا الإيمان مبني على اختبارهم لحالات مخصوصة . إذ غالباً ما تكون أنواع المحن والحرمان التي يُخضعون أنفسهم لها كافية لتوليد الحالات المذكورة حتى ولو كان هناك من يأتي الاعتراف بها بوصفها دليلاً على توجّه مخلص وجدي . يضاف إلى ذلك أن هناك حرجاً لغوية أشدّ إقناعاً ، لأنها لا تتصل بالموضوع اتصالاً مباشراً : في لهجـة الـونـتو في كاليفـورـنيـا تـجـد خـمـس صـيـغ لـفـظـيـة تعـبـر عن المعرفـة التي تـكـتـسـب عن طـرـيق الرـؤـيـة والـأـنـطـبـاع الـجـسـدي والـاسـتـبـاط والـتـعـلـيل والـسـمـاع . وهذه الصـيـغ الخـمـس تـشـكـلـ منها فـتـةـ المـعـرـفـةـ ، في مـقـابـلـ فـتـةـ التـخـمـينـ التي يـعـبـرـ عنها تعـبـيراً مـخـتـلـفاًـ . والعـجـيبـ في الأمـرـ انـ الـعـلـاقـاتـ معـ الـعـالـمـ الغـيـبيـ يـحـرـيـ التـعـبـيرـ عنهاـ بـوـاسـطـةـ صـيـغـ المـعـرـفـةـ وـمـنـ بـيـنـهاـ صـيـغـةـ الـأـنـطـبـاعـ الـجـسـديـ (أـيـ صـيـغـةـ الـخـبـرـةـ الـجـسـدـيـ الـصـرـفـ)ـ وـصـيـغـيـتـيـ الـاسـتـبـاطـ والـتـعـلـيلـ . هـكـذـاـ إـنـ الشـخـصـ الـأـهـلـيـ الـذـيـ يـصـبـحـ كـاهـنـاـ عـلـىـ أـثـرـ نـوبـةـ روـحـيـةـ الـمـتـ بهـ يـعـتـرـ حـالـتـهـ ، مـنـ النـاحـيـةـ النـحـوـيـةـ ، مـثـاـبـةـ الـحـصـلـةـ الـتـيـ يـنـبـيـغـ استـبـاطـهـاـ مـنـ كـوـنـهـ قـدـ تـلـقـىـ عـبـرـ الـخـبـرـةـ الـمـبـاـشـرـةـ تـكـلـيـفـاًـ مـعـيـنـاـ مـنـ أـحـدـ الـجـنـ،ـ مـاـ يـسـتـبـعـ خـلـاصـةـ اـسـتـتـاجـيـةـ مـفـادـهـ أـنـ لـاـ بـدـ قـدـ قـامـ بـرـحلـةـ إـلـىـ عـالـمـ الـغـيـبـ ثـمـ وـجـدـ نـفـسـهـ ثـانـيـةـ فـيـ خـتـامـهــ وـهـذـهـ خـبـرـةـ مـبـاـشـرـةــ بـيـنـ ذـوـيـهـ^٨.

أما اختبارات المريض. فهي تمثل أقلّ أوجه السيستام أهمية ، باستثناء وجه واحد هو أن المريض الذي يعالج بنجاح على يد الكاهن يصبح مؤهلاً أكثر من غيره للتحول بدوره إلى كاهن وذلك على نحو ما نرى في أيامنا هذه في مجال التحليل النفسي. ومهمها يكن من أمر، فلا يغرب عن باليـاـنـ الكـاهـنـ لـاـ يـنـقـدـ اـفـقـادـاـ تـامـاـ لـلـمـعـارـفـ الـوـضـعـيـةـ وـلـلـتـقـنـيـاتـ الـاـخـتـبـارـيـةـ الـتـيـ تـفـسـرـ جـزـءـاـ مـنـ نـجـاحـهـ . أما في ما عـدـاـ ذـلـكـ ، فإنـ الـأـضـطـرـابـاتـ الـتـيـ تـنـتـمـيـ إـلـىـ مـاـ نـسـمـيـهـ الـيـوـمـ

٨. د. ديمتراكوبولو لي ، «بعض النصوص الهندية المتصلة بالعالم الغيبي» ، مجلة الأديان ، مايو/أيار ١٩٤١ .
D. DEMETRACOPOULOU LEE "Some indian texts dealing with supernatural. The seview of religion, mai 1941.

بالإضطرابات النفسية - الجنسيّة [سيكوسوماتيك] والتي تشكّل قسماً كبيراً من الأمراض الشائعة في المجتمعات التي تفتقد افتقاداً كبيراً للأمان والطمأنينة ، ينبغي أن تتراجع أمام العلاج النفسي . وعلى وجه العموم ، من الممكن أن يكون الأطباء البدائيون شائئنهم زملائهم المتحضررين قادرين على شفاء جزء على الأقل من الحالات التي يعالجوها . وإن الممارسات السحرية لم يكن لها أن تشهد هذا الانتشار الواسع الذي شهدته في الزمان والمكان لولا تلك الفعالية النسبية التي تسفر عنها . لكن هذه النقطة ليست نقطة جوهرية لأنها متوقفة على النقطتين الآخريتين : فكثيراً يليد لم يصبح ساحراً كبيراً لأنه كان يشفى مرضى ، بل انه كان يشفى لأنّه أصبح ساحراً كبيراً . وهكذا نجد أنفسنا دفعة واحدة على الطرف الآخر من الس تمام أي في قطبه الجماعي .

والواقع أنه لا ينبغي أن يُصار إلى البحث عن السبب الحقيقي الذي أدى إلى انهيار خصوم كيزاليد في وتأثير الفشل والنجاح بقدر ما ينبغي البحث عنه في موقف الجماعة . وهذا أمر يشير إليه هؤلاء الخصوم أنفسهم عندما يتذكرون من أنهم قد أصبحوا أصحاب حوكمة في نظر الجميع ، وعندما يعربون عن شعورهم بالخجل الحياء ، وهو الشعور الاجتماعي بلا منازع . أما الفشل فهو أمر ثانوي . ويتبيّن ذلك أيضاً من أقوالهم ، إذ إنهم يعتبرونه متوقفاً على ظاهرة أخرى وهي تلاشي حالة الرضا الاجتماعي العام بعد أن عادت فابتنت هذه الحالة ، على حسابهم ، حول كاهن آخر وحول سستام آخر . فالمشكلة الأساسية والظاهرة هذه ، هي مشكلة الصلة بين الفرد والجماعة . أو بعبير أدقّ ، مشكلة الصلة بين نمط معين من الأفراد وعدد من مقتضيات الجماعة .

عندما يعالج الكاهن مريضه فهو يقدم أمام الملا مشهدًا استعراضيًّا معيناً . ما هو هذا المشهد ؟ للإجابة على هذا السؤال ، وتحت طائلة تعميم بعض المعاينات تعليمياً سريعاً ، نقول إن المشهد المذكور يظل على الدوام مشهد تكرار الكاهن لذلك «النداء» ، أي لتلك النوبة الاستهلاكية التي أفصحت له وكشفت له عن حالته . لكن كلمة مشهد لا ينبغي أن تغشّنا . فالkahen لا يكتفي بإعادة إنتاج بعض الأحداث أو بمحاكاتها محاكاة حرافية ، بل انه يعيشها من جديد وبالفعل بكل حيويتها وأصالتها وحدتها . وبما أنه يعود في ختام الجلسة إلى حالته السوية فإن بوسعنا أن نستعير من التحليل النفسي أحد ألفاظه الأساسية ونقول انه يفرج عن كربه . ومن المعلوم ان التحليل النفسي يطلق تسمية التفريج عن الكرب على تلك اللحظة الخامسة من العلاج التي يسترجع فيها المريض ، وبشكل حاذٍ ، معاناته للوضع الاستهلاكي

الذى كان في أصل اضطراباته النفسية ، قبل أن يتخلص منها بصورة نهائية . بهذا المعنى يكون الكاهن عبارة عن شخص يحترف التفريج عن الكرب .

لقد بحثنا في مكان آخر في الفرضيات النظرية التي ينبغي بلورتها من أجل التسليم بأن صيغة التفريج عن الكرب التي يتبعها كل كاهن من الكهان ، أو كل مدرسة من المدارس على الأقل ، من شأنها أن تستدرج المريض بصورة رمزية إلى التفريج عن كربه الخاص .^٩ إلا أنه إذا كانت العلاقة الجوهرية هي علاقة الكاهن بالجماعة فينبغي لنا أن نطرح السؤال من زاوية أخرى هي زاوية الصلة بين الأفكار السوية والأفكار المعتلة . والحال إن الفكر المعتل والفكر السوي في المنظور غير العلمي (وليس هناك من مجتمع واحد يستطيع أن يتباكي بأنه لا يشارك في هذا المنظور) ليسا أمرين متضادين ، بل هما متكاملان . فحيال هذا الكون الذي يتغطّش الفكر السوي إلى فهمه وإدراكه ، لكنه لا يتوصّل إلى التحكّم بإوالاته ، لا يفتّأ هذا الفكر عن طرح الأسئلة على الأشياء متوجّهاً فهم معناها ، ولا تفتّأ الأشياء تمانع في الافصاح عن هذا المعنى . أما الفكر المعتل فهو على العكس من ذلك يظل مفعماً بالاجتهادات والأهواء العاطفية ، وهو لا ينفك عن إرهاق كاهل الواقع بأثقال هذه التأويلات والأصداء . فالتفكير الأول يرى أن ثمة أموراً لا يمكن التتحقق منها بصورة اختبارية ، أي أنها تفرض نفسها فرضاً ، والتفكير الثاني يرى أن ثمة اختبارات لا موضوع لها ، أي أنها جاهزة ومتوفرة . فإذا شئنا أن نستير من كلام الألسنيين بعضه فإننا نقول إن الفكر السوي يعني دائمًا من عجز في خانة المدلول عليه ، بينما يشكو الفكر المسمى بالمعتل (في بعض تجلياته على الأقل) من فائض في خانة الدال . أما الاشتراك الجماعي في جلسات العلاج الكهانية فهو يقف موقفاً تحكيمياً بين هذين الوضعين المتكاملين . في مشكلة المرض التي لا يستوعبها الفكر السوي ، تعمد الجماعة إلى دعوة الفرد المريض نفسياً إلى توظيف ثروة عاطفية لا نقطة ارتكاز لها . فينشأ توازن بين ما يشكل بالفعل على الصعيد النفسي عرضاً وطلبًا . ولكن بشرطين : فعبر التعاون والتضامن بين التراث الجماعي والابتکار الفردي ينبغي أن تبلور وتتعدل باستمرار بنية من البني ، أي س تمام من التضادات والاعتلالات من شأنه أن يستوعب كل عناصر الوضع الكلّي بحيث يجد كلّ من الساحر والمريض والجمهور والتصورات والإجراءات محلّ له في المستدام المذكور . كما ينبغي أيضاً أن يساهم الجمهور ،

٩. «الفعالية الرمزية» ، الفصل العاشر من هذا المجلد .

شأنه شأن المريض وشأن الساحر ، وبحدود معينة على الأقلّ ، في عملية التفريج عن الكرب ، أي في عملية الاختبار المعيوش لهذا العالم من السيول الرمزية الذي يستطيع المريض ، بحكم كونه مريضاً ، والساخر ، بحكم كونه معتلّ النفس - أي بحكم امتلاكه لاختبارات لا يمكن استيعابها على نحو آخر - أن يجعله يفصح ، من بعيد ، عن بعض «إشاراته». وفي غياب أي ضبط اختباري لا وجوب له ولا هو حتى بالمطلوب ، يظل الاختبار المذكور ، فضلاً عن غناه النسبيّ في كلّ حالة من الحالات ، كنایة عن الاختبار الوحيد الذي من شأنه أن يساعد على الاختيار بين عدة سساتيم ممكنته وعلى تقرير الانتقاء إلى هذه المدرسة أو تلك أو إلى هذا المعلم أو ذاك^{١٠}.

* * *

خلافاً للتفسير العلمي ، ليس المقصود هنا اذن أن نقوم بربط الحالات المشوّشة والمترتبة ، من عواطف وتصورات ، بعلتها الموضوعية ، بل المقصود بلوتها على شاكلة كلّ أو سستام ، علمًا أن هذا السستام يتّخذ قيمته بالضبط بمقدار ما يتّبع لنا صهر هذه الحالات المشوّشة أو التوفيق بينها . وإنما تتّقرر هذه الظاهرة الأخيرة في الوعي عبر اختبار أصيل يتعدّد إدراكه من الخارج . فنظراً لتكامل اضطرابات هذا الثنائي المكون من المريض والساخر فإن الثنائي المذكور يحسّد بالنسبة للجماعة ، وبصورة عينية حيّة ، ذلك التضارب الذي يحكم كلّ نوع من أنواع الفكر ، لكن التعبير عنه يظل مبهماً وغامضاً : فالمريض كنایة عن سلبية وخمول وتغّرب عن الذات ، شأنه شأن ما لا يقبل الصياغة والبلورة بما هو مرض في الفكر . والساخر كنایة عن نشاطية فياضة تفيض عن حدود ذاتها ، شأنه شأن الانفعالات العاطفية بما هي مرضعة الرموز وحاضنتها . أما العلاج فهو ينشئ العلاقة بين هذين القطبين المتضادّين ويؤمّن عبور واحدهما إلى الآخر ويتمّ ، عبر الاختبار الكلي ، عن تماسك العالم النفسي بما هو بحد ذاته انعكاس للعالم الاجتماعي .

وهكذا تبيّن لنا ضرورة التوسيع بمقولة التفريج عن الكرب بأن تتفحّص المعاني التي تُتّخذها في مناحٍ علاجية نفسانية غير التحليل النفسي الذي يعود له الفضل الأكبر في إعادة

١٠. حول هذه المقاربة ، التي قلت بها هنا وأفرطت في تبسيطها ، بين الساحر المعتلّ نفسياً دفعتني بنص انتقادات ميشال ليبرس إلى تحديد أفكاره في : مقدمة لأعمال مارسيل موسـس التي قدمت بها لكتابه : الإجتماعيات والإنسنة ، باريس ، ١٩٥٠ ، الصفحات ١٨ إلى ٢٣.

اكتشافها وفي التشديد على قيمتها الجوهرية . فإذا قيل أن لا وجود في التحليل النفسي إلا لتفريح واحد - هو تفريح المريض عن كربه - لا ثلاثة تفريحات ، قلنا أن ذلك ليس مؤكّداً إلى هذا الحدّ . صحيح أنّ الساحر يتكلّم خلال العلاج الكهافي ويقوم بعملية التفريح من أجل المريض الذي يظل ساكتاً ، في حين أنّ المريض هو الذي يتكلّم خلال التحليل النفسي ويفرّج عن كربه في وجه الطبيب الذي يصغي إليه . لكن تفريح الطبيب ، وإن لم يكن ملزماً لتفريح المريض ، يظل أمراً لازماً ومطلوباً ، إذ يفترض من صار محلاً أن يكون محلاً من قبل . أما الدور الذي تنيطه بالجماعة كلا التقنيتان فتحديده أدقّ وأعسر . إذ إنّ السحر يعيد تكييف الجماعة من جديد مع عدد من المشكلات محددة سلفاً عبر وساطة المريض ، في حين أن التحليل النفسي يعيد تكييف المريض من جديد مع الجماعة عبر وساطة بعض الحلول المستحدثة . لكن هذا التطور المزعج الذي أخذ يتّجه منذ بضع سنوات نحو تحويل سستام التحليل النفسي من مجموعة من الفرضيات العلمية التي يمكن التتحقق اختبارياً من صحتها في بعض الحالات المحددة والمحدودة إلى ضرب من الأسطوريات المشوّشة التي تخلّل وعي الجماعة (وهذه ظاهرة موضوعية تعبّر عن نفسها ، لدى النفسي ، عبر الاتجاه الذاتي نحو إدراج الفكر السويّ في نطاق سستام من التأويلات لم يوضع بالأصل إلا بناءً على الفكر المعتلّ ، ونحو إخضاع بعض شؤون النسانيات الجماعية لطريقة معدّة بالأصل للدراسة الفكر الفردي وحسب) يتعرّض لاستعادة الموازنة المذكورة بسرعة كبيرة . فإذا حصل ذلك - ويمكننا أن نقول بالنسبة البعض البلدان أنه قد حصل - فإن قيمة السستام لا تعود مبنية على علاجات فعلية يستفيد منها أفراد معينون ، بل قائمة على الشعور بالأمان والطمأنينة وهو شعور يتتبّع الجماعة من اعتقادها بالأسطورة التي تأسّس العلاج عليها ومن السستام الشعبي الذي صار عالها مبنياً ، بموجب ذلك ، طبقاً له .

فالمقارنة ، منذ الآن ، بين التحليل النفسي وبعض العلاجات النسانيات القديمة والأوسع انتشاراً منه من شأنها أن تخوض التحليل المذكور على التأمل تأملاً مفيداً في منهجه وفي مبادئه . فالتحليل النفسي ، إذ يعمل دائمًا وأبداً على توسيع الدائرة التي يحشد ضمنها زبائنه بحيث يتحول هؤلاء شيئاً فشيئاً من معتلين موصوفين إلى عيّنات من الجماعة ، يحول علاجاته إلى ولاء اعتقادى . إذ إن المريض وحده هو الذي يخرج معافىً . أما الذي يشكّر من عدم الاستقرار ومن عدم التكييف فهو لا يسعه إلا أن يقتتنع . فنشهد عندئذ ظهور خطر كبير : فعوضاً عن أن يؤدي العلاج إلى حلّ اضطراب معين لا مفرّ من احترامه للسياق ،

فإنه يقتصر (بمعزل عن الطبيب ، بالطبع) على إعادة تنظيم عالم المريض بناءً على اجتهدات التحليل النفسي . أي إننا ، والحالة هذه ، نعود فنفع في نهاية المطاف على الوضع الذي زود السستام السحري - الاجتماعي الذي حلّناه ب نقطة انطلاقه وبإمكاناته النظرية .

إذا صحّ هذا التحليل فإن من الواجب أن نرى في التصرفات السحرية جواباً على وضع يتكشف للوعي عبر تجليات عاطفية ، لكن طبيعته العميقه طبيعة ذهنية . إذ إن تاريخ الوظيفة الرمزية وحده هو الذي من شأنه أن يتيح لنا إدراك هذا الشرط الذهني الذي يحكم الإنسان ، وهو أن الكون لا يوفر له ما فيه الكفاية من المعنى وان الفكر يمتلك باستمرار فائضاً من الدلالات يطغى على كمية الأشياء التي يستطيع الفكر إناطة هذه الدلالات بها . ولما كان الإنسان موزعاً بين هذين السستامين المرجعيين ، سستام الدال وسستام المدلول عليه ، فإنه يتمس من الفكر السحري ان يزوده بسستام مرجعي جديد تستوعب في صلبه معطياتٌ كانت تظل حتى ذلك الحين متناقضة . لكننا نعلم أن السستام المذكور لا ينهض إلا على حساب تقدّم المعرفة التي كان لها أن تقتضي العمل على تدبر واحد من السستامين السابقين وتعميقه إلى حدٍ (ما زلتنا بعيدين عن الوصول إليه) يمكنه من استيعاب السستام الآخر . لم يكن يحمل بنا أن ندفع الفرد إلى تكرار هذه المغامرة الجماعية المؤسفة ، سواء كان الفرد معتلاً أو سوياً . ولكن إذا كانت دراسة المريض قد علمتنا ان كل فرد من الأفراد لا بدّ ان يرجع ، بهذا القسط أو ذاك ، إلى سستام متناقضه ، وان يعاني من التزاع القائم بينها ، فإنه لا يكفي أن تتوفر لشكل من أشكال الاستيعاب إمكانية تحققه وفعالية تطبيقه حتى يكون هذا الشكل صحيحاً ، وحتى تكون على يقين من أن التكيف الذي تحقق على هذا النحو لا يشكّل نكوصاً مطلقاً بالقياس على الوضع المأزوم السابق .

ان امتصاص أحد التراكيب المحلية المغلوطة عن طريق استيعابه ، مع التراكيب السوية ، ضمن تركيب عام ، وإنما اعتباطي – بمعزل عن الحالات الخرجية التي تستوجب التدخل الفاعل – يشكّل خسارة على جميع الأصعدة . فمجموعة الفرضيات البسيطة قد تشكّل قيمة وسائلية أكيدة بالنسبة للمعلم الخبر دون أن يكون من واجب التحليل النظري أن يرى فيها صورة نهائية وأخيرة للواقع ، ناهيك بأنه ليس من الضروري جمع المريض والطبيب ، بتوسط الصورة المذكورة ، ضمن نوع من التوحد الصوفي الذي لا يتخذ نفس المعنى لدى هذا وذاك ولا يُفضي إلا إلى حلّ العلاج ضمن محلول الوهم الخيالي .

إِذَا دفَّنَا هَذَا الْمَنْطَقَ إِلَى أَقْصَاهُ فَإِنَّهُ لَا يَعُودُ لَنَا أَنْ نَطْلُبَ مِنَ الْوَهْمِ الْمَذَكُورِ إِلَّا كَلَامًا
يَصْلُحُ بِمَثَابَةِ التَّرْجِيمَةِ لِظَّاهِرَاتِ مُعَيْنَةٍ تَكُونُ قَدْ عَادَتْ هِيَ الْأُخْرَى ، مِنْ حِيثِ طَبَيْعَتِهَا
الْعُمِيقَةُ ، مُسْتَعْصِيَةٌ عَلَى أَفْهَامِ الجَمَاعَةِ فَضْلًاً عَنِ الْمَرِيضِ وَالسَّاحِرِ .



البرامج ومشاكل تطويرها في معهد العلوم الاجتماعية

د. دولة خضر خنافر

البرامج ومسألة تعديلها وتطويرها تُعتبر من أهم المشاكل التي عانى ويعاني منها المعهد . وقد أثيرت هذه المسألة في العديد من المجتمعات ، ونوقشت في جلسات طويلة وأخذت الكثير من الوقت والجهد وعلى مدى سنوات ، ولكن دون التوصل إلى نتيجة إيجابية . فالمواضي وُضعت منذ إنشاء المعهد أي من حوالي أربعين سنة وما زالت هي دون تعديل أو تطوير مع ان كل شيء تغير في العالم ومن حولنا .

والمشاكل التي تشيرها المواد كثيرة ومتعددة ومزمنة ويمكن اختصارها بالسؤالين التاليين :
ماذا ندرس ؟ وكيف ندرس ؟

الواقع أن المواد بأكثريتها غير محددة وأمر تحديدها يعود لأستاذ المادة نفسه ، فمادة مثل الفلسفة يمكن أن تدرس بآلاف طرق وطرق ومن منطلقات مختلفة وتبعًا لمناهج متباينة والأهداف متعارضة والمشكلة تزداد عمّقاً عندما يكون هناك عدة شعب وكل شعبة أستاذ مسؤول عنها دون حد أدنى من التنسيق بين أساتذة المادة الواحدة ، وحتى دون تعاون أو تفاهم أو حتى الاجتماع لمناقشة القضايا والمشاكل المشتركة بين أساتذة هذه المادة وبعض المواد تشير التساؤل حول المدف من تدريسها ، مثلاً النص الفرنسي أو الإنكليزي في السنة الأولى أو الثانية فهو يُطرح باللغة الأجنبية وعلى الطالب أن يعالج ويشرح أفكار النص باللغة التي يختارها ، وبما أن أستاذ المادة يشرح النص الأجنبي باللغة العربية فالطالب يحفظ الشرح حفظاً ويكتبه باللغة العربية ، وهذا يجعلنا نتساءل عن المدف من تدرис هذه النصوص هل هو اختبار قدرة الطالب في اللغة الأجنبية ؟ أما إذا كان المدف غير ذلك ، فلماذا يعطى النص إذاً باللغة الأجنبية .

من الأمثلة الأخرى التي تظهر الخلل والعشوائية في توزيع المواد على السنوات ، ما هو حاصل في السنة المهنية الثالثة ، فهناك أربع مواد في علم النفس وهي : موضوعات نظرية

في علم النفس الاجتماعي - علم نفس اجتماعي تطبيقي - دراسة عملية ونظيرية لوسائل البحث في علم النفس الاجتماعي - ومادة رابعة مشتركة مع الأنثروبولوجيا . ونحن نعتقد أن ذلك يشكل أكثر من حاجة طالب في العلوم الاجتماعية إلى هذه المادة . كما أن هناك مواد تعتبر أساسية وضرورية جداً كمادة الإحصاء مثلاً ولكنها لا تلقى الاهتمام الكافي ، والمفروض أن تعمم هذه المادة وأن تُعطى في السنوات كافة وحتى في دبلوم الدراسات العليا وتُعتبر مادة أساسية ، خاصة وإن هذا العصر هو عصر الأرقام والتكنولوجيا .

ثم مادة علم اجتماع الشرق الأوسط وحلقات أبحاث في علم اجتماع الشرق الأوسط تثير التساؤل : هل هناك فعلاً علم اجتماع للشرق الأوسط ؟ وهل هناك وحدة اجتماعية منسجمة بتناقضاتها يمكن تسميتها بالشرق الأوسط ؟ وإذا كان هناك مفكراً اسمه رينيه جبس¹ يملك نظرية حول المنهج الشرقي أوسطي ، فهل يكفي ذلك لإدخال مادة تسمى علم اجتماع الشرق الأوسط لتبقى وتستمر بعده ؟

أ) مشكلة تعلم مادة اللغة الأجنبية

ندعواها مشكلة نظراً لأن تعلم مادة اللغة الأجنبية في معهد العلوم الاجتماعية قد أثبت فشله إلى حدٍ كبير ، وإن الشكوى مستمرة من هذا الفشل ، وإن البحث في أسباب هذا الفشل لم توصل إلى نتيجة . فالمشكلة متعددة الجوانب والأبعاد . وهي تكمن في المادة بحد ذاتها وفي المدرس ، كذلك في الطريقة المتبعة في التدريس وفي الطالب أيضاً .

فالمادة غير محددة وكذلك المدف من دراستها وتدريسيها غير محدد أيضاً ، والطالب إن لم يكن أتقن أو ألم بهذه اللغة من قبل أي في المراحل الابتدائية والتكميلية والثانوية فلن يحيدها بساعة أو ساعتين أسبوعياً . ثم هناك عدة مستويات عند الطلاب وهذه الناحية لا تؤخذ بعين الاعتبار أما المستوى الذي يدرس فهو يعادل مستوى تعلم ابتدائي .

أما بالنسبة لمدرس هذه المادة فغالبيتهم يدرس بالساعة أي غير متفرغ ولا يحمل دكتوراه باللغة الأجنبية التي يدرّسها ، ولا يُحدّد له برنامج أو حتى ما هو مطلوب منه فعلاً بالنسبة لهذه المادة . (ملاحظة : العلامات كانت تتراوح بين ١٥ - ٩٠٪).

1. كان أستاذًا في معهد العلوم الاجتماعية في السبعينات .

أما الطريقة فهي الطريقة المسمة تقليدية والتي أطلق عليها بعض الأدباء تسمية «طريقة ما قبل القرن العشرين» وهي تعتمد على دراسة النص وشرح بعض مفرداته وإعراب بعض كلماته وتصريف بعض أفعاله.

أما الطريقة الحديثة المسمة سمعية بصرية والمتبعة حالياً في تعلم اللغات فهي غير معروفة عندنا لأنها مكلفة ولا قدرة لنا على اقتناء وسائلها وأدواتها.

أما الطالب فينقصه الدافعية أو الحافز الداخلي لتعلم هذه المادة ، خاصة وأنها - أي المادة - مفروضة عليه في السنة الأولى والثانية فقط ، لذلك فليس عنده الاستعداد لبذل الجهد الكافي لتعلمها ، معتبراً إياها مادة ثانوية مع أن اللغة الأجنبية ضرورية جداً للطالب فهي تساعده في الاطلاع على المراجع الأجنبية والتي لا غنى عنها في حال متابعة الدراسة وخاصة في مرحلة الدبلوم والدكتوراه . فباحث في العلوم الاجتماعية لا يستطيع الاكتفاء بالمراجع العربية وحدها لأنها غير كافية . وكلنا نعلم أن علم الاجتماع نشا وتطور في الغرب والكتب المترجمة في هذا المجال قليلة جداً ولا تفي بالحاجة ، وعدم إتقان لغة أخرى يشكل إعاقة بالنسبة لباحث في العلوم الاجتماعية .

ب) مناقشة محتوى بعض مواد التعليم

إن من يطلع على بعض هذه المواد ومحنتها يتساءل فعلاً عن الغاية والمهدف من تدريسها ، كما يتساءل عن الصلة التي تربط بين هذه المواد والمجتمع الذي نعيش فيه بكل مشاكله وحاجاته ، ومدى مساحتها أو إسهامها في تكوين إنسانه وتوعيته أو في تطوير نظمه أو في إنماء عن طريق تزويد هذا المجتمع بالعناصر البشرية المدربة والمتخصصة التي يحتاج إليها .

لتأخذ مثلاً بعض المناذج : فعلم النفس الاجتماعي الذي يُدرّس في المعهد كمادة أساسية في السنة الأولى والثانية والثالثة والحدارة والدبلوم هو علم غربي النشأة والتطور ، وظروف نشأته معروفة . فالمشاكل الاقتصادية الناتجة عن الثورة الصناعية ، والحربان العالميتان وما نتج عنها من دمار وخراب وموت ، والمشاكل الاجتماعية التي نتجت عنها والقلق الشديد والاضطرابات النفسية والخوف وال الحرب النفسية والفراغ الداخلي الذي عاشه الفرد الغربي كل هذا دفع بسلطات تلك الدول إلى التفتيس عن حلول لتلك المشاكل والأزمات فتولى علم النفس الاجتماعي القيام بهذه المهمة .

وفي كل سنة تُعطى هذه المادة **يُبادرُنا** الطلاب بالسؤال عن علاقتنا و موقفنا نحن من هذا العلم الغربي النشأة والمفاهيم والتصورات والنظريات ، ويُسأل طلابنا : لماذا لا ندرس مشاكل مجتمعنا وهي كثيرة ونقترب حلولاً لها ؟

أما الجواب فهو أنه لا يوجد علم نفس اجتماعي عربي مكتمل بل هناك مساهمات في دراسة بعض الظاهرات وإنما من منطلقات ومفاهيم ونظريات وتقنيات غربية وهذا يفسد كل شيء ويقلل من قيمة النتائج والاستنتاجات العلمية .

في مجال آخر هو علم النفس التحليلي ، فنحن نستعيد غالباً المفاهيم التي نفهم في ضوئها الحياة الجنسية وعقدة أوديب وأزمة المراهقة والظواهر العصبية إلا أننا نقصِر وصفنا للحياة الجنسية على الأدبيات التي تركها المخلّون النفسيون الغربيون ، وترتبط بين الحياة الجنسية وبين الظواهر العصبية كما فعلت الأدبيات الغربية ، هذا دون الأخذ بالاعتبار إننا لا نملك وصفاً دقيقاً للحياة الجنسية في مجتمعنا وحتى لو وجدت فالعلاقة بين هذه الحياة وبين الأعصبة لن تكون كالتي هي قائمة في المجتمعات الغربية أو في بعض هذه المجتمعات الأمر الذي يدفعنا إلى طرح أسئلة لا بد من طرحها منها : هل من الممكن تصميم هذه المكتشفات الغربية على مجتمعنا ، وخاصة فيما يخص العلاقة بين الحياة الجنسية والظواهر العصبية .

إن الأمراض الذهانية والعصبية التي تكلّم عنها فرويد ليست إلا نتيجة لتأثيرات بنيوية أصابت المجتمع الأوروبي بصورة عامة فاهترت منظومته الفكرية وسلم القيم عنده . فمجتمع المناسبة بعد الثورة الصناعية والنظام الرأسمالي هو في أساس الانهيار النفسي والعصبي في تلك الدول ، وتطبيق هذه النظريات على مجتمعنا أمر غير جائز لأن مجتمعنا مختلف عنها نظاماً وقيماً وثقافةً وتراث .

إذن يجب الانتباه إلى نسبة هذه النظريات وضرورة إرجاعها إلى البيئة الإجتماعية التي حلت ظهورها ، وتبين الفوارق النوعية بين المجتمع الغربي والمجتمع العربي وبالتالي إظهار عدم علمية تصميم هذه النظريات على كل المجتمعات .

لماذا لا نعرف أن الأمراض النفسية والعصبية التي تكلّم عنها فرويد والتي اجتاحت أوروبا في القرن التاسع عشر كان من أسبابها المباشرة القطيعة مع الدين واستبدال الدين بعقيدة زمنية ، مع ان بعض علماء النفس ذكر أن حاجة الناس إلى التدين هي حاجة فطرية وأنها تتحقق التوازن في الإنسان وفي المجتمع .

كذلك تجربتنا فيما يخص مادة مثل الأنثروبولوجيا تجربة تعيسة ، فالأنثروبولوجيا تضع في قلب استقصاها مفهوم «الملاقة» وتنظيم البحث الأنثروبولوجي حول هذا المخور ، ويكتننا التساؤل إلى أي حد يمكن تطبيق هذا المفهوم على المجتمعات العربية . وهذا يدفعنا إلى التفكير وتوجيه البحث نحو مادة تربطنا بها معرفة حميمة ، نصوغ نحن أدواتها ومناهجها . ثم لماذا تنظيم الحشو السياسي الأكاديمي عن طريق مادة علم الاجتماع السياسي ثم موضوعات في علم السياسة ثم تشريعات سياسية ثم أنظمة سياسية ، لماذا تقسيم المواد على هذا الشكل وما هو الفارق بينها .

ثم إن محتوى المواد لا يخضع لأي ضوابط ، الحرية مطلقة للأستاذ كي يدخل في مادته ما يريد ، والخلط قائم بين الممارسة السياسية اليومية والممارسة النظرية ذات الحشو السياسي (فيما يخص علم الاجتماع الغربي – الاستشراق – القرب بصورة عامة) .

أما الجانب الآخر من المشكلة فهو أن التدريس قائم على إلقاء الدروس على طلاب مستمعين غير مشاركين وسلبيين ، واستخدام مادة تدريس جاهزة مستقاة من الكتب الجامعية الغربية في أكثريتها ، وهذا ليس مسؤولية المدرس وحده بل مسؤولية السياسة التربوية للدولة ومفهومها للتعليم وللجامعة ووضعها للأهداف المتداولة من التعليم الجامعي وعلاقة كل هذا بالإنسان التربوي وإنماء المجتمع بصورة عامة .

فإعداد الطلاب في المرحلة المتوسطة والثانوية قام على انتظار مادة عامة جاهزة ، تنسكب في عقوفهم ويتلقونها دونما تفاعل معها ، بشكل تلقيني ودون مشاركة من قبلهم . فالطلاب عندنا تعودوا أن يكونوا سلبيين وان يتلقوا وأن يخزنوا ويخزنوا المعلومات والمعارف ثم يسكبوها على ورقة الامتحان لينالوا الشهادة التي هي الهدف المشود ، إذن السلبية تطبع موقف الطلاب الحالي ، ومحاولة إشراكهم ومساهمتهم الإيجابية في تناول المواد تعتبر ضررًا من المغامرة ، فهم غير معدون لذلك لا قبل الجامعة ولا حتى خلال دراستهم الجامعية ، فكيف يمكن زجهم وإدخالهم بالعمل؟ كيف يمكن إثارة اهتمامهم بحلهم واستدراجهم؟

إضافة إلى ذلك ، فإن المدرس ، لا يعطي مادته بالموضوعية والروح العلمية الواجب توفرها في الأستاذ الجامعي بل انه غالباً ما يدخل ذاتيته ، ويبشر بعقيدته ويدافع عن انتهاه ويستخدم منبر الصحف والمواقع ، دعائى يهدف إلى جعل الطلاب يتبنون آراءه وموافقه وفلسفته ومعتقداته ، كل هذا يحصل عن طريق الأفكار الجاهزة المنطقية مع افتراض أن الطالب لا يعقل ولا يفكر وأنه كاللوح الأبيض يمكن أن نقش عليه أي شيء . وهذا

يتعارض من حيث المبدأ مع المهدى من التعليم الجامعى الذى تُحدد غايته بمساعدة الطالب على تنمية شخصيته أي كيف يفكر وكيف يكون أفكاره لا أن نفرض في ذهنه ما يجب أن يفكر به ، أي إن نفرض عليه أفكارًا جاهزة وندعوه إلى تبنيها وهذا يؤدي إلى إغلاق الذهن بدل إثماره وفتحه ، وهو من أجل تحقيق غايته يستخدم أساليب ووسائل متنوعة من إيماء وإقناع وضغط إلى ما هنالك من وسائل تلعب دورًا أساسياً في عملية التوجيه ، يساعد على ذلك أن الشباب يمتازون بطبيعة متواترة واتجاهات غير ثابتة وآراء متقلبة ، كما أنهم ميلانو بطبيعتهم إلى التطرف ويستشارون بسرعة إضافة إلى ذلك فإنهم يمتازون بنقص المعلومات أو بالأحرى بجهل تام لموضوع البحث مما يسمح للطرف الآخر أن يؤثر فيه ويعير في اتجاهاته نتيجة التكرار والإلحاح مما يضعف المقاومة عند الطالب أو يحدث ازدواجية رهيبة في سلوك هذا الفرد وفي موقفه نتيجة اختلاف وجهات النظر والاتجاهات وتناقضاتها وهنا تكمن الخطورة الحقيقة في عملية التعليم .

والواقع أن بعض المواد تعطى وكأنها معتقدات بحيث يعود إليها الأستاذ ليشرحها ويؤكد عليها ، دون أن يرقى الشك في صحتها أو السؤال عنها . فالمعتقد ثابت أو هو الثبات ويصنف ضمن المطلقات ، إلا أن المطلق نفسه له دروب متعددة تؤدي إليه .

إن كل موقف يقوم على نفي الآخر هو موقف متغصب وغير علمي ، لأن كل موقف سليم يقوم على التوازن والتباذل والاتصال وال الحوار . والتعليم الجامعى يجب أن يقوم على إثارة الأسئلة لا التأكيد على المسلمات .

نخن لا ننكر بأن هناك وجهات نظر متعارضة أو متضاربة ومتصلة بمعتقدات الإنسان الفكرية والروحية ، وان تبادل الرؤى والأفكار دليل عافية شرط ألا تصل إلى حد القطيعة الفكرية وقطع الحوار مع الآخر .

ج) محاولات تعديل وإصلاح البرامج التعليمية

ما تقدم يتبين لنا ضرورة قيام محاولة جادة ورصينة لمعالجة هذا الموضوع الخطير الذي شكل أحد أسباب التدهور الحاصل في المعهد . والحقيقة ان هذه المشكلة تفاقمت بعد التفريح الذي تعرضت له الجامعة اللبنانية ومنها بالطبع المعهد .

وقد ناقش الأساتذة في اجتماعات متتالية هذه المسألة وطلب من كل منهم تقديم

مشروعه في هذا الشأن فقدمت عدة مشاريع بعضها يقترح :

١. اعتماد مبدأ الإجازة بأربع سنوات
- الشهادة الأولى تسمى شهادة تحضيرية في العلوم الاجتماعية وغايتها تأهيل الطالب ومدتها ستين .
- الشهادة الثانية تسمى شهادة الإجازة في العلوم الاجتماعية . غايتها التخصص في أحد الميادين المعروفة في العلوم الاجتماعية ، ومدتها ستين أيضاً .
٢. اعتماد نظام الأرصدة وتقسيمها إلى :
 - أرصدة أساسية .
 - أرصدة مكملة .

كذلك اقترح أن تشتمل السنة الأخيرة أي الرابعة على بحث يقدمه الطالب كرسيد .
ونلاحظ أن هذا المشروع يرتدى طابعاً تطبيقياً ويركز على العلاقة بين الشهادة وسوق العمل .

مشروع آخر قدّم يفضل إبقاء سنوات الإجازة كما هي أي ثلات سنوات مع تقسيم مواد الإجازة إلى نظرية وتطبيقية مع التركيز على حلقات الأبحاث التي تعتمد العرض والنقاش ، كذلك يدعو المشروع إلى الاهتمام بالمواضيع الميدانية على أن تكون مهمة حلقات الأبحاث في السنين الأولى والثانية تعزيز فهم الطالب لبعض المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع وتتأهيل الطالب بما يمكنه من القدرة على القراءة والتحليل وصياغة أفكاره بأسلوب منهجي .

أما غرض حلقات الأبحاث في السنة الثالثة فهو الإنطلاق من موضوعات ميدانية في لبنان والعالم العربي لتأمين مجال اختبار وتحقق من مختلف المناهج والمفاهيم على أرض الواقع الفعلي ، وهذا يساعد الطالب في اختيار مجال بحثه في الجدارة .

أما سنة الجدارة فيتجه فيها الطالب نحو تخصص أعمق .
من هذا العرض الأهم المشاريع التي قدمت لتعديل البرامج المعتمدة يمكن استخلاص ما يلي :

١. إبقاء مدة الدراسة المعتمدة حالياً في الإجازة وهي ثلاثة سنوات .
٢. اعتماد مبدأ المقررات الذي يأخذ بعين الاعتبار ظروف الطالب واستعداداته فيما يخص الامتحانات .

٣. شهادة الجدارة منفصلة عن الإجازة تنظيمياً ومكلمة لها أكاديمياً .
٤. التركيز على الناحية التطبيقية وكذلك على الميتدولوجيا والإستمولوجيا .
كذلك أستاذة معهد العلوم الاجتماعية - الفرع الثاني - وفي اجتماعات أسبوعية استمرت
منذ ٢٦ تشرين الثاني ١٩٨٤ وحتى تاريخ ١٩٨٥/١/٢٥ تابعوا خلالها مناقشة تعديل
البرامج ، وخرجوا بتصانيات مهمة فيما يخص موضوع تعديل البرامج وقد طلب عميد المعهد
بتاريخ ١٩٨٧/١/٨ من أستاذة الفرع الأول الاطلاع على المشروع الذي أعدّه الفرع الثاني
طالباً منهم إبداء الرأي حوله خطياً لأخذ هذه الآراء والاقتراحات بعين الاعتبار .
أما أهم التصانيات فيمكن تلخيصها كما يلي :

١. عدم تطبيق مبدأ الاختيار في السنة الأولى من الإجازة بحيث تصبح الشهادات إلزامية .
 ٢. اعتقاد مبدأ الاختيار في الستين الثانية والثالثة .
 ٣. هناك مواد الغيت نهائياً كالفلسفة .
٤. كما أن مادة الديموغرافيا والتقنيات قد أدخلت وهذا ضروري جداً لإجازة في العلوم
الاجتماعية يجب أن تتخلّى ما أمكن عن المواد النظرية لصالح المواد التطبيقية والميدانية
والإحصائية مما يجعل حامل هذه الشهادة يتميّز عن غيره من حملة الإجازات التعليمية
النظرية وكذلك في سوق العمل .

ثم تأتي تفصيلات كل شهادة على حدة حسب السنوات ، وما يمكن ملاحظته هنا هو
التركيز على التقنيات في كل السنوات وكذلك على الاقتصاد السياسي من نقد ومالية ، وعلى
الأعمال التطبيقية وخاصة على الديموغرافيا التي اقترح إدخالها في السنوات الثلاث الأولى ،
وكذلك المعلوماتية التي اقترح إدخالها في السنوات الأولى والثانية مع إحصاءات تحليلية للسنة
الثالثة . كذلك أعطيت أهمية خاصة للغة الأجنبية وذلك عن طريق تحصيص ساعتين لهذه
المادة في كل السنوات .

الواقع إن تعديل برامج التعليم في المعهد قد أصبح أمراً ضرورياً وملحاً لأننا ، وحتى اليوم
ما زلنا ندرس البرامج التي أقرّت منذ أكثر من ثلاثة عقود .
ولكن كما لاحظنا من خلال مشاريع التعديل المقترحة ، هناك خلاف وتباین في وجهات
النظر : فبعضها مثلًا يقترح نظام السنوات ، والآخر نظام الشهادات ومشاريع أخرى تشدد

. ٢. هذه المشاريع قُدِّمت في العام ١٩٧٨ و ١٩٧٩ .

على نظام الوحدات ، فأيهما الأفضل بالنسبة للتعليم ؟

وكذلك لاحظنا ان بعض هذه المشاريع يلغى مادة علم اجتماع الشرق الأوسط ويدخل عوضاً عن «الشرق الأوسط» «البلاد العربية» ، كذلك في اقتراحات «الفرع الثاني» هناك مادة واحدة تذكر الشرق الأوسط وهي «دراسات إجتماعية حول لبنان والشرق الأوسط» ، إذاً ماذا يعني بالشرق الأوسط ؟ ولماذا رُفضت هذه التسمية من قبل البعض واستبدلت به «البلاد العربية» ؟ أسئلة تستحق التوقف عندها لما تحمله من خلفيات .

إن قضية البرامج ومحنتها تتطلب جواباً عن سؤال يتعلق بموقع المعهد ووظيفته ودوره وعلى أساس الإجابة عن هذا السؤال يمكن البحث في محتوى البرامج من ناحية وتنظيم التعليم من ناحية أخرى .



سوسيلوجيا الفن : المسرح إزاء التلفزيون

د. عصام الجوهري

تعاني فنون العرض عامة والمسرح بشكل خاص من أزمة الخسار في الإرتياض ، بالمقارنة مع صندوق التلفزيون ، نتاج الثورة التقنية الغربية المعاصرة . فهذا الأخير ينقل الصورة إلى المشاهد أينما كان وفي كل مكان وساعتها . وهو بالتالي يواكب ويولد الاستكانة والكسل (الذهني والجسدي) يتحكم بصاحبها كالمشكون شيطاناً والمرکوب عفريتاً .

هذا الاختراع العجيب زرع علاماته في العلاقات الاجتماعية وأحدث تحولاً في طابعها واستلزم دراسات كثيرة معمقة تبحث في انعكاساته السلبية الاجتماعية والنفسية والصحية على المشاهدين .

اجتماعياً : يدحض التلفزيون قصة حي بن يقطان عن استمالة أن يعيش الإنسان منفرداً بذاته دون إقامة علاقات اجتماعية مع أقرانه يتطور من خلاها ، يتفاعل معها ويتحقق إنسانيته .

إذا بيسان القرن العشرين يختلف لنفسه جدأً ، رفيقاً لأمسياته : التلفاز ، ينفصل الإنسان بحضوره ، يهيمن عليه ، يخرب له ، يشل ذهنه ويفقده التواصل مع الغير ، محدثاً تفككاً في علاقات الناس ، التي تعيش وحدتها في عزلة تامة ، وأبراج محصنة منيعة ، يتحكم بها صندوقاً ، يحتكرها ، يحاصرها ، ويقصفها بسيل من الإعلانات الإستهلاكية المضللة ، الحارقة لأعصابه والمحددة لذوقه وميوله الشرائية ، تستخف بقدرته على التمييز ففترض عليه ميزتها ، فتحلق وتولّ لديه حاجات جديدة ، يلهث في سبيل اقتناها والحصول عليها فتصبح شغله الشاغل ، يعمل ليلاً ونهاراً لتحقيق أهداف الإعلان في استهلاك ما يروج له . أما صحابيا الصندوق الأبريء فهم الأطفال الذين يتحولون إلى أداة تنفيذية استهلاكية يمتصون كل ما يطرحه على كافة الصعد ، إعلاناً وخبراً وفلماً شائناً ومسلسلأً مخيفاً فارغاً هو من براز حضارة الغرب المابطة ثقافياً واجتماعياً .

يتسمّر الأطفال أمام التلفاز على حساب المعرفة والنشاط والأعصاب وممارسة الهوايات المنية للشخصية والروح والحسد.

لا يفهم الصندوق في تفكيره العلاقات الإجتماعية وحسب وإنما يطال تأثيره الأسرة بحد ذاتها. صحيح أن الجميع يتحلّق حول التلفزيون ولكن لا جامع بينهم سوى حاجز الصندوق فهو يحول دون التواصل والتفاعل بين أفراد الأسرة فكل مشاهد لذاته بمعزل عن الآخرين فطمس المشاهدة يمكن في ممارسة الصمت العميق والرهيب والخوار يكون بين الصندوق والمترفّج ، لا بين المترفّجين. وبالتالي فالجهاز يحول دون التواصل بين أفراد الأسرة ، وفترة المشاهدة هي المناسبة الوحيدة لإجراء حديث مفيد بينهم ، بعد يوم عمل طويل. ناهيك عن التشنجات والتغير الناجمة عن محاولات الأهل لخوّل أولادهم دون مشاهدة طويلة ومستمرة للصورة على حساب الكتاب والواجبات المدرسية ومزاولة نشاطات ذهنية مفيدة.

إن التقاء الأفراد في إطار الجماعة شكل باستمرار حصانة ضرورية لمسارها وبقاءها. وعندما يعصف بها التشرذم تأخذ بالإندثار وتتلاشى . فهي بحاجة ماسة للإلقاء والتضامن والتعاون وتبادل الرأي حتى تبقى حالة التواصل والتلخاط ، كي تدافع عن مصالحها ، وتشكي همومها لبعضها. إننا نعتقد بجزم أن هناك إرادة دولية قوية توجه التلفزيون خدمةً لمصلحتها وأهدافها وتحقيقاً لأغراضها التجارية والسياسية المدسوسة من خلال تعليل أو اصر العالقات المجتمعية وفردنة الإنسان نهائياً عن طريق التحكم بعقله ونفسه ليصبح أداة مطوعة في يده تحدد اتجاه سيره وطبيعة سلوكه . وبالتالي الهيمنة على الرأي العام العالمي ومسار البشرية .

يعتقد الوفد الفلسطيني أو الوفود العربية إلى مدريد أن الإنتصار الكبير التي حققته أنها تمكنت ولأول مرة أن تخاطب الرأي العام العالمي عبر الشبكات المرئية أنها لم تستطع سابقاً اختراق هذا الجدار المنيع ، الذي تسيطر عليه الصهيونية العالمية والأمبريالية الأميركيّة والغربيّة . ولكن بالرغم من هذا الوهم نجحت هذه الشبكات في تشويه المواقف العربية بأساليبها الديماغوجية العريقة .

كما إننا لا ننسى دور هذه الشبكات بخاصة الأميركيّة منها في توجيه الحرب ضد العراق والسيطرة كلياً على صفح الأخبار والمعلومات .

ولن ينجح العرب قط في إيصال صوتهم أو رأيهم الحق إلى الرأي العام العالمي في ظل

هيمنة هذه الشبكات التلفزيونية المشبوهة . خاضت هذه الوسائل حرباً إعلامية شعواء على البلدان الإشتراكية ونجحت في تضليل الرأي العام داخل هذه الدول وفي خارجها منذ قيام هذه الأنظمة وساهمت مساهمة فعالة وتحتية في إسقاطها وتفكيكها .

- عندما اكتشف الإنسان سر الذرة سارع لتكوين قبلة وأسقطها على هiroshima كذلك التلفزيون عرضاً . صحيحاً : ان الضرر الصحي والنفسي للتلفزيون على المشاهدين أمرًا مؤكداً أُجريت حوله دراسات وأبحاث كلينيكية معتمدة خرجت باستنتاجات مذهلة : التوتر ، العصبية ، الإرهاق الذهني الأمراض الجسدية إفرازات تلفزيونية تقوم بعيادات متخصصة في علاج مرضها . وهي شبيهة بعيادات المدمنين على المخدرات .

لقد صرخ د. أميل كروب ، صاحب الخبرة الملحوظة في حقل الإشعاع - قبل أن يموت من جراء إصابته بالسرطان - : «إن الأشعة المميتة تتربص في كل منزل يحوي أجهزة تلفزيونية ، منذ خمسين عاماً خلت كان سلطان الأطفال غير معروف علمياً . أما الآن فإن الأطفال يتجمهرون على شاشة التلفزيون لعدة ساعات دفعة واحدة ، كما أن المرأة الحامل يمكن أن تؤدي جنيناً من مشاهدة التلفزيون» .

لقد تحدثنا عن دور التلفزيون المتعاظم في عصرنا وبعض انعكاساته السلبية على المجتمع على حساب وسائل العرض الأخرى بخاصة المسرح الذي يعيش أزمة حقيقة تسيطر في تقليص شعبيته وهو بحاجة لإعادة اعتبار إزاء الجهاز العجيب والمريب . لماذا المسرح بالذات ؟

يتميز المسرح عن فنون العرض الأخرى باتصاله المباشر بالجمهور ، دون حواجز ، والمشاهد هو شرط أساسى لوجود المسرح ، دون جمهور لا يكون المسرح . وهو فن جماعي فعال ، يتمحض عن تجربة مشتركة متناغمة في إعداد المسرحية لبلورتها وإخراجها إلى حيز الوجود ، وكما يقول بيتر بروك الإعداد ومن ثم الميلاد .
وعملية إعداد المسرحية تشكل مدرسة في حد ذاتها لكل المساهمين من خلال عملية قراءة النص أو القراءة الشاملة للمسرحية والنقاشات التي تدور حولها ، إنها عملية لا تتم إلا في المسرح لا تقارن .

المسرح يعلم ، يوجه ، يسلّي ، يحفز الذهن ، ويشغل العقل بحيث المتفرج على المساهمة ، هو جزء منه ، يعلق ، يهتف ، ينتقد ، يناقش وهو في النهاية الحكم الذي يقضى العمل الفني ويحسم في نجاحه أو فشله . وفي المسرح يلتقي الناس في معايشة نادرة لا تتكرر لا يوفرها فن

آخر سوى المسرح . يجلس المشاهد وجهاً لوجه أمام أداء حقيقي وملموس لا يقطع حبل تركيزه ومتعبته إعلاناً أو دعاية . كما أن عملية ارتياح المسرح في حد ذاتها فعل نفسي وفني نشيط ، تبدأ مع التفكير بمشاهدة مسرحية معينة والاستعداد لهذا الحفل والذهاب إليه والعودة ، والأثر الذي يتركه انتهاءً بتحديد موقف منه . ونحن نشير باستمرار إلى المسرح الرفيع المستوى مضموناً وأداء .

بالمقارنة مع فنون العرض الأخرى يكون المشاهد سلبي ومنفعل مسلوب الإرادة منعزل بينما في المسرح هو فاعل مع الجماعة .

وفي تاريخ المسرح القديم كانت تشكل العروض المسرحية حدثاً قومياً تشرك الدولة والفنانين والأوساط الثقافية كافة في التحضير لها ، ولا يختلف عن مشاهدتها أي مواطن ، كما كان الأمر عند الإغريق .

وفي عصر شكسبير ازدهم مسرحه بالتفرجين من مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية ، وما زال .

وقد شكل المسرح أداة فعالة في التأثير على الرأي العام وتوجيهه مما اضطرت القوى المهيمنة إلى تحريمه مراً ، كما حصل في أوروبا القرون الوسطى حيث خضع كلياً لرحمة الكنيسة كما منع البريتان في الجلترا المسارح وحرقوا معظمها ، وتمت ملاحقة برشت من قبل الجيش النازي في كل أوروبا ، في السبعينيات منعت مسرحية « آخر يا بلدنا » لشوشو والمقتسبة عن مسرحية برشت « أوبرا القروش الثلاث » *(Drei Goschen Oper)* .

وفي العصر الحديث نجحت الدول الاشتراكية سابقاً في تصدير المسرح من بين فنون العرض الأخرى ، فأصبحت مقياساً لثقافة الناس ، وشهاداً إقتصادياً منقطع النظر . حيث تبنت الدولة دعمه كلياً ووفرت للعاملين فيه أسباب العيش المريح والعطاء الخالق وسهلت للناس إمكانية المشاهدة من خلال أسعار الدخول الرمزية . ولا شك بأن الدولة وعث تماماً دور المسرح في التأثير على المجتمع وتكوين ذوقه الفني وبنائه الفكري ، وفي هذا المجال أود أن أحضر الآراء الجاھلة لطبيعة المسرح في الدول الاشتراكية والتي تتحدث عن مسرح دوغماً وحيد الرؤيا ومتزمت .

فكـل من زـار أو أقام في دـولة اـشتراكـية لـحظـ ولا شـكـ من خـلال البرـامج المـقرـرةـ فيـ كـلـ المسـارـحـ ، التـنوـعـ الـهـائـلـ الـتيـ تـضـمـنـتـهـ فيـ عـروـضـهاـ ، حـيثـ يـطـغـيـ المـسـرـحـ وـالتـرـاثـ العـالـمـيـنـ عـلـيـهاـ ، بـدـءـاـ مـنـ الإـغـرـيقـ ، شـكـسـبـيرـ ، اـبـسـنـ ، دـورـتـاتـ ، سـتـيرـنـسـبرـغـ ، هـاوـبـمانـ ، مـوـلـيرـ ،

راسين ، غوغول ، تشيخوف ، هوخ هوت ، مكسيم غوركي ، تولستوي ، إلى المسرح الياباني والصيني والإفريقي والعربي على سبيل المثال ، بالإضافة إلى المسرحيين المحليين ويشكلون عادةً الأقلية ، هذه العروض العالمية المختلفة كانت تهدف أيضاً إلى خلق تفاعل مع الحضارات والثقافات الأخرى ، والمسرح هو أفضل سبيل للتعرف على «عنديات» الشعوب المختلفة . هذه التجربة جديرة بالدراسة والبحث للدول التي تهتم في رفع المستوى الثقافي لشعبها . والمسرح عامل مهم وفعال في سياق خطط التنمية ، وخاصة في العالم الثالث .

المسرح اللبناني

تابع المسرح اللبناني مسيرته الشاقة ، بالرغم من العقبات الكاداء التي واجهته في الحرب الضروس ، ويقطع النظر عن الصعوبات المادية التي يعانيها من جراء إهمال الدولة لهذا القطاع الفني الأصيل وأثبت جدارته على الصعيد المحلي والإقليمي جماعات وأفراداً . لم تمر مناسبة عربية ، مسرحية عامة إلاّ وتصدرتها الفرق اللبنانية ، فإذا بالمسرح اللبناني روسلاً لثقافتنا في الخارج ، يدفع من جيشه وعرق جيشه ثمناً كي يبقى للبنان علمًا ثقافياً مرفوعاً بعد أن نكست راياته الأخرى .

لقد نجح المسرح اللبناني في خلق جمهور حوله يتذوقه ويقبل على مشاهدته في كل بقاع لبنان . فإذا به يقوم بدور تعجز عنه أجهزة الدولة الثقافية بمجموعة . وهو لا يلقى منها أي اهتمام .

حتى ان عهد الفنان الجميلة في الجامعة اللبنانية ، قسم التمثيل الذي يشكل المصدر الأساسي والمقلع الرئيس للممثلين والمخرجين اللبنانيين يعيش وضعًا مأساوياً وإهمالاً من القيمين على الجامعة والمعهد الذين يعتبرون ان ربما مهنة التمثيل شيئاً ثانوياً بينما الأقسام الأخرى ديكور ، هندسة رسم تلقى الاهتمام المميز لذا فهي مثلاً تختلي ثمان طبقات من بناء المعهد ، بينما قسم التمثيل خصص له القبو الذي يشاطره أيضاً مستودع المعهد والكافيريا ، تغشاء الظلمة عند انقطاع التيار الكهربائي وتضيق الأنفاس فيه حيث لا يوجد مت نفس له ، ولا يوجد غرف كافية للصفوف الأربع مما يضطر الأستاذ البحث عن مكان شاغر ، قلما يتتوفر ، وإننا في هذا الإطار نوجه دعوة إلى المهتمين كافة ، في شؤون المسرح لتأدية زيارة إلى قسم التمثيل لمشاهدة الأوضاع فيه عن كثب ، كما تناشد الأقسام الثقافية في الصحف والمحلات لإطلاق حملة في هذا الخصوص وإجراء مقابلات والتحقق من هذا الأمر ،

بخاصة وإن معظم المحرّرين الفقافيين في الصحف هم إما خريجين أو مدرّسين في قسم التمثيل. وفي هذا المجال أيضًا أود أن أعقد مقارنة بين مهنة التمثيل وبعض المهن الرفيعة الأخرى الراهنجة للتدليل على ميزة الأولى، مع تقديرني لكل المهن والمصالح.

المهندس، وما أكثر وجود المهندسين، يتعامل مع العقارات والباطون لبناء مساكن والنادر منها ما يكون جميلاً، ومعظم المهندسين يكتفون بتوقيع رخص البناء. حيث المهمة الأساسية للمهندس الناضج هو تجميل الحيط.

الديكوريست، يصمم الشكل الداخلي لمساكن الأغنياء والمال التجاريه. والطبيب يعالج أخطاء الإنسان مع جسده ولا شك أنها مهنة إنسانية، بينما معظم الأطباء حوثها إلى مصدر مادي وتجارة مربحة. وكم من صيدلي يقوم بالأبحاث ويزاول مهنته من أجل تطوير الدواء والعلم في هذا المجال؟

الممثلون، وهم نادري الوجود في المجتمع؟ نظرًا للمواصفات غير العادية الذي يتمتع بها الممثل. يتعاطى مع الناس، كل الناس، وفي فنون العرض كافة، من سينما، تلفزيون، رقص، أوبرا، إيماء، خيال الظل، الماريونت والمسرح. يشاهده الأطفال والشيب والشباب. يقدم التسلية والمرح والفرح والثقافة الرفيعة. ينقل إلينا أداء روائع المؤلفات الدرامية المحلية والعالمية من خلاله تعرّف على ثقافات الشعوب الأخرى. نسبة كبيرة من الناس لا تقرأ ولكنها تشاهد، وبواسطة هذه الوسيلة يمكن الوصول إليها والتأثير فيها.

تردان غرف الأطفال والشبان بصور الممثلين، لكن هل شاهدتم صورة مهندس أو طبيب أو كيميائي أو الخ. في غرفة أحدهم؟ هنا دون التقليل من أهمية هؤلاء. هذا الممثل، ومهنة التمثيل ما زالت تعامل دونياً في مجتمعنا وهذه من رواسب المجتمعات المتخلفة. الكثير من الأهل يمنعون أولادهم عن مزاولة مهنة الأداء فهي بنظرهم عمل لا مستقبل له ولا مردودًا ماديًّا يتظاهر، كما أن هذه المهنة تصنف في خانة العيب، ولكنهم لا يمنعون عن مشاهدة أبناء الغير يقومون بالتمثيل، ويتمتعون بأدائهم.

كما إن عدم اهتمام الدولة اهتمامًا كافياً بمؤسسة المسرح يعكس سلباً على مهنة التمثيل وتطور المسرح كأداة ثقافية فعالة في رفع مستوى المواطن الثقافي وتهذيب الذوق الفني وعقل الشخصية الإنسانية، وخلق جو اجتماعي مشترك، كما يمكن للمسرح أن يهم في تعزيز الثقافة الوطنية، إننا نستبشر خيراً إزاء إنشاء وزارة للثقافة كي توقيع هذا القطاع الاهتمام الضروري: وفي هذا المجال نقترح.

١. فصل قسم التمثيل عن معهد الفنون الجميلة وإنشاء معهد عالي مستقل للتمثيل ، في الجامعة اللبنانية ، يتضمن مسرحًا كبيراً للعموم .
٢. تعزيز مهنة التمثيل من خلال إيجاد عمل للممثلين في المدارس الرسمية والخاصة ، لما لهذا الفن من مساهمة في صقل شخصية التلميذ وتنميتها وتشجيع الطلاب على إبراز شخصيتهم . والعملية التربوية هي في نهاية الأمر بذرة الشخصية وتزويدها بمبادئ علمية وتربيوية أساسية لخوض غمار الحياة ، كما وأن تشكيل فرق فنية في المدارس يعني العملية التربوية ويضفي عليها جوًّا لطيفاً جداباً .
٣. تشكيل فرق تمثيل وطنية محترفة تموّل من قبل الدولة .
٤. بناء مسارح وطنية بمساهمة الدولة وإشرافها تموّل نفسها فيما بعد من مداخيل الفرق الوطنية المحترفة . على أن تحافظ هذه الفرق على استقلاليتها في إطار القطاع العام .
٥. يشكل لدى وزارة الثقافة دائرة للمسرح تشرف على المسارح والفرق المسرحية الوطنية ، تدعم وتشجع الحركة المسرحية عامّة ، على ألا تتحوّل وزارة الثقافة إلى معيق بيروقراطي ، يتداخل فيها السياسات الضيقة المذهبية أو الطائفية ، وارد تكون مجالاً جديداً للتوظيفات العشوائية وألا تشكّل أعباءً على الحركة الثقافية في البلد . يقول أحد كبار المثقفين : أعطني مسرحًا أعطيك شعباً ، ليدلّ على أهمية المسرح في حياة الشعوب . إن الحضارات تخلد من خلال مساهماتها في تقديم البشرية ثقافياً وعلمياً بشكل خاص . وحيثما يتم الكلام على الفينيقيين تذكرهم الشعوب بالأجدية التي ساهموا في نقلها ، وروما وبضم مبادئ القانون وفق العاراة لا لحروبهم ، وفي أثينا يتذكر الناس الفلسفة اليونانية والمسرح اليوناني . ومن بريطانيا العظمى بقى شكسبير وحسب ، وجاهلية العرب ما زالت تفرض نفسها شرعاً ، وهكذا دواليك .
- وحديثاً تتحدث ثقافة العرب عن رفيق علي أحمد وروجيه عساف وعن مسرحية الجرس وغيرهم وليس عن شطارة التاجر اللبناني وحذاقته .



التربية في لبنان بين التفجير والتغيير

د. خضر الضو

عند كل حدث ، تقف الأمم الراقية لتباحث في أمر ما جرى لها . ويُزوّدنا التاريخ بعدد من التجارب . وسنكتفي ، هنا ، بإلقاء الأضواء على تجارب ثلاث دول كبرى : الدولة الأولى هي ألمانيا (بروسيا) التي استطاعت إزالة هزيمة ١٨٠٦ على يد نابليون واسترجعت الأرض من محتلها الفرنسيين والدولة الثانية هي الصين التي تمكّنت من تكوين دولة قوية وعظيّة عندما اعتمد قادتها على التربية في تحقيق ذلك . أما الدولة الثالثة فكانت الولايات المتحدة التي واجهت التحدى العلمي السوفيتي في حقل الفضاء في عام ١٩٥٧ . لقد كانت التربية بمعناها الواسع (المعرفة ، العلم ، والتعليم) العامل المشترك الذي ساعد تلك الدول ، ذات الأنظمة السياسية والإجتماعية المختلفة وفي أزمنة ومواقيع مختلفة في أن تتحقق غاياتها وأهدافها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

١. التجربة الألمانية : في عام ١٨٠٦ ، هزمت الجيوش الفرنسية بقيادة نابليون جيوش بروسيا (ألمانيا) ويرى البعض أن أسباب الهزيمة تعود إلى السلطة الفاسدة في بروسيا وإلى غياب الكفاءة والأهلية في ضباط الجيش .

سيطر المحتلون على جميع أمور البلاد ، وتركوا أمور إدارة التربية والتعليم لأهلهما الذين استغلوها لبعث الشعور القومي ورأي ملوكهم «أن الدولة يجب أن تكسب بالقوة الذهنية ما خسرته بالقوى المادية» . وصرح أحد كبار وزرائهم بقوله «ننطلق من نقطة أساسية لرفع معنويات هذا الشعب الدينية وبث روح الوطنية في الأمة وإعادة الشجاعة والثقة بالنفس والاعتماد على الذات والاستعداد للتضحية بكل غالٍ ورخيص للمجد القومي واستقلال البلاد وتحريرها من الأجنبي . وللوصول إلى هذه الغاية يجب علينا أولاً أن نعتمد على تربية وتعليم الصغار» . لذلك أصلاح الألمان شؤون التعليم في بلادهم على كافة المستويات وعملوا على تنظيمها من جديد . وعندما انتقمت ألمانيا لهزيمتها وانتصرت على الجيوش الفرنسية

واسترجعت شرفها الوطني عام ١٨٧٠ . كرم المستشار البروسي بمارك المعلم قائلاً «إن الذي انتصر في معارك حرب السبعين إنما المعلم» .

٢. التجربة الصينية : لقد عرفت الصين الشعبية خلال فترة زمنية لا تزيد عن ١٧ عاماً (١٩٤٩ - ١٩٦٦) تغييرًا عميقاً في نظامها التعليمي والتربوي . واستطاعت الصين أن تصل إلى مستوى الدول الكبرى وفي ذلك يقول أحد الخبراء الأميركيين «إن تقدم الصين الشعبية كقوة عظمى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بقدرتها التعليمية والتكنولوجية ، فخلال فترة لا تقل عن عشر سنوات فقط استطاع هذا البلد العملاق الذي كان مختلفاً أن يصبح بلدًا قوياً» .

٣. التجربة الأمريكية : أطلق الاتحاد السوفيتي أول قمر صناعي في عام ١٩٥٧ . وكان لذلك صدىً هائلاً في جميع أنحاء العالم . وكان أثر ذلك كبيراً في الولايات المتحدة وأعاد عدد كبير من العلماء التفوق العلمي الروسي إلى نظام التربية والتعليم في الاتحاد السوفيتي . وارتفعت أصوات هيئات وشخصيات عديدة بضرورة إعادة النظر في نظام التربية الأميركي بفلسفته وأغراضه وأهدافه ومحتوياته وأساليبه على كافة المستويات والمراحل الدراسية بحيث يتم تغييرها وتحديتها بما يتلاءم وروح تحولات العالم والعصر . ولذلك عقدت عشرات المؤتمرات التربوية ونشرت مئات الكتب والفتاحات كثيرة لدراسة المناهج والبرامج الدراسية في المدارس والجامعات وتم تقويم طرق التعليم ومدى فعاليتها . ونتيجةً لذلك أُجريت تغييرات عميقة في النظام التربوي الأميركي من الصحف الدينية إلى الصحف الجامعية العليا . وكان أهم حدث هو صدور «القانون التربوي للدفاع الوطني» في عام ١٩٥٨ الذي يعتبر ثورة تربوية وعلمية ومن أعظم القوانين التربوية في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية^١ . تبرز تلك التجارب الدور الكبير الذي تلعبه التربية والتعليم في تكوين وفي توحيد الأمم وفي تحقيق النصر والاستقلال لها إذا ما اهتمت به وأشرفت عليه الدول . وليس مغالاة القول بأن الدول القوية المتقدمة والراقية في العالم اليوم تدين بحضارتها أولاً للتربية والتعليم (الدانمارك - اليابان ...).

لقد عرف لبنان حرباً داخلية ضروساً ، قوّضت أسسه وكادت تقضي على كيانه السياسي . وسيمر وقت طويل حتى يمكن من إعادة ما دمر وما انهار .
سؤال هام يطرح نفسه : لماذا هذا التمزق في الكيان اللبناني ولماذا لا نجده بالحالة نفسها

١. زين ، الياس ، هجرة الأدبعة العربية ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٢ ، ص ١٦٧ - ١٨٦ .

في أقطار أخرى بمحاورة بالرغم من التعدد الطائفي والقومي في تلك البلدان؟ يتلخص الجواب على ذلك بالقول بأن سهر تلك الدول على أنها وعلى كيانها جعلها تعطي أهمية كبيرة للتربية وللتعلم فجعلته تحت إشرافها ورعايتها وأبعدت عنه تدخلات الخارج وتجار العلم في الداخل وأدركت أهمية صهر الأفراد في إطار وطني واحد. ورفضت كل تعصب طائفي ومذهبى وطبقى ومناطقى عندما أمنت بجميع مواطنها ، دون تميز ، مدرسة واحدة ومنهجاً دراسياً واحداً وعملت على التشدد في المراقبة وفي الإشراف على كل ما هو تربوي .

أما الدولة اللبنانية فقد أهملت شؤون التربية منذ عهد بعيد وكان ذلك عندما تركت شؤونها للطوائف وللمذاهب وللتجار وللأحزاب وللأفراد وعندما أعطت لكل أجنبى حق تكوين وعي مواطنها . ففرققت بهم السبل وعصفت بهم رياح الأزمات الآتية من كافة الجهات .

يرى عالم الاجتماع الكبير إميل دركهaim «أن دراسة الماضي بتفصيل تمهد لنا الطريق لفهم الحاضر والتبنّى بالمستقبل»^٢. فلا بد من دراسة تاريخية لتطور الوضع التربوي في لبنان لفهم الحاضر وللإسهام في تغيير الواقع وفي بناء مستقبل أفضل . ثالث دراسات عالجت تاريخ التربية في لبنان بمنهجيات مختلفة . الدراسة الأولى وهي بعنوان «معالم الفكر التربوي في البلاد العربية في المئة سنة الأخيرة». قام بها الدكتور نعيم عطية ويمكن إبراز أهم ما جاء فيها :

١. تعتبر مدرسة عين ورقة أساس النهضة التربوية العتيدة في لبنان.
٢. تعود بداية الوعي التربوي في جبل لبنان إلى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر حيث أثمرت العلاقات بين اللبنانيين وأوروبا .
٣. بقيت الكنيسة المارونية نصيرة العلم والإصلاح الاجتماعي حتى نهاية القرن الثامن عشر وانتقلت القيادة في بناء النهضة في العقود الأولى من القرن الثامن عشر إلى أيادٍ أجنبية ووطنية .

٤. قيام الإرساليات الأجنبية البروتستانتية بأعمال تربوية كإدخال الطباعة العربية بشكل حديث وتأسيس المدارس وطباعة الكتب المدرسية وترجمة التوراة .

٢. دركهaim ، إميل ، التطور التربوي في فرنسا ، باريس ، بوف ، سنة ١٩٦٨ ص . ١٦ (بالفرنسية) .
DURKHEIM, E., *L'évolution pédagogique en France*, Paris, P.U.F., édition 1968, p. 16.

٥. ساهمت الإرساليات في إزكاء الخلاف الطائفي بين المسلمين والمسيحيين .
٦. قيام جهاز كبير من المدارس الدينية تدين بإدارتها وبتوجيهها للطوائف المسيحية الشرقية .

٧. شمل التيار الديني في التعليم كافة الطوائف^٣ .

أما في الدراسة الثانية فقد بين « رودريك ماتيوز » و « متى عقاوي » بأن أكثر المدارس الأهلية والأجنبية كانت طائفية وقد كان لها أثر سلبي إذ جعل للتربية طابعاً مذهبياً بروزت فيه الفوارق الدينية التي لا تزال آثارها باقية حتى اليوم .

وبحسب رأيهما ، يعود عهد التربية الحديثة في لبنان إلى آخر القرن الثامن عشر حين أسس بطريرك ماروني مدرسة عين ورقة سنة ١٧٨٩ بعد عودته من إيطاليا حيث كان طالباً في أحدى مدارس اللاهوت الشرقية في روما . ويزّ المؤرخان دور المدارس الأجنبية في حياة سوريا ولبنان الثقافية حيث قامت بنشر التعليم قبل قيام نظم التعليم العام . ولم يخفيا الدور السلبي الذي لعبته هذه المدارس في التفرقة بين المواطنين ثقافياً ودينياً وفي تكوين أفراد مختلفون عن بعضهم البعض في العادات والتقاليد وطرق التفكير والسلوك والتطلعات المختلفة^٤ . أما الدراسة الثالثة التي قامت بتاريخ قصة المؤسسات التعليمية في لبنان فكانت للباحث الفرنسي ايقون شليري وأهم ما جاء فيها :

١. إن مدارس نهاية القرن الثامن عشر ومدارس بداية القرن التاسع عشر نموذجان من المدارس ، مختلفان بنائيًا ، وهي نتاج أنظمة اقتصادية اجتماعية مختلفة ليس بينهما سوى تتابع ظاهري بعيد كلّيًّا عن التتابع الحقيق الواقعجي .
٢. يتم الفهم العميق لنظام التعليم الحالي في لبنان باستيعاب التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي عرفها لبنان بعد عام ١٨٤٠ بفعل تأثير الثورة الصناعية الغربية والتي ارتبط بها تطور نظام التعليم .
٣. استطاع الموارنة بصورة خاصة والمسيحيون بصورة عامة « القيام بثورتهم الاجتماعية »

٣. عطية ، نعيم ، معالم الفكر التربوي في البلاد العربية في المئة سنة الأخيرة ، منشورات الجامعة الأمريكية ، بيروت - لبنان .

٤. ماتيوز ، رودريك ، عقاوي ، متى ، التربية في الشرق الأوسط العربي ، واشنطن ، ١٩٤٩ .
MATTHEWS, R.D., AKRAWI, M. *Education in arab countries of the near east* Washington, 1949.

بفعل دخول بنية اقتصادية جديدة إلى جبل لبنان ومن ثم إلى بيروت ، بنية مماثلة للنموذج الأوروبي وبفعل إمساكهم تاريخياً بمقدرات البلاد الاقتصادية ولم تكن التربية إلا تبريراً ايديولوجيًّا لهيمنتهم الاقتصادية بالنسبة للطوائف الأخرى^٥.

وهكذا لفهم تطور التربية في لبنان ، بصورة واضحة ، لا بد من العودة إلى التاريخ الإجتماعي للبنان الذي كان تابعاً لتاريخ الأمبراطورية العثمانية كانت الأمبراطورية العثمانية منذ سنة ١٥٦٣ تقيم علاقات صداقة وتجارة مع فرنسا وكانت هذه العلاقات منذ توقيع المعاهدات الأولى سنة ١٥٣٥ تضمن للأجانب ملء الحرية في الاستثمار والتجارة والملاحة وهذه المعاهدات جعلت من فرنسا حامية المسيحيين.

وتميز القرن التاسع عشر في أوروبا بظهور التصنيع الذي خلق لها مشكلة إيجاد سوق توظيف الرساميل وتأمين المواد الأولية لصناعتها وهنا بدأ السباق لتقاسم العالم الثالث وهذا السبب كانت أواخر القرن التاسع عشر بالنسبة لفرنسا حقبة توسعها الاستعماري (الجزائر - الهند الصينية - إفريقيا ...) «مع طغيات جنود الاحتلال الأوروبي ذهب بالطبع مرسلي الكنائس المسيحية لخارية الإحياء والإسلام».

وإبان ازدهار التصنيع في أوروبا ، شهدت الأمبراطورية العثمانية انتكاساً تدريجياً ظهر خاصة في ميزانها التجاري الذي كان في عجز دائم وفي الوضع الاقتصادي الذي أنهكته الديون . فلكي تستفيد من مصادر الثروة فيها ، عمدت الأمبراطورية إلى الارتماء في أحضان الرأسماليين الأوروبيين الذين وجدوا فيها سوقاً لاستثمار رؤوس أموالهم .

ومن جهة ثانية ، سُلِّمت المؤسسات الناشئة في الأمبراطورية إلى شركات أجنبية معظمها فرنسية ، كإدارة حصر التبغ ومرفأ بيروت وأرصفة القدسية والسكك الحديدية (يافا - القدس ، ودمشق - حماه) وكانت الرساميل المستمرة في الأمبراطورية في ثلثها فرنسية . قبل الدخول الأوروبي إلى سوريا ولبنان ، كان هناك نوع من الوحدة الثقافية بين مختلف طوائف المنطقة ، وكانت جميعها «عربية الثقافة» وكان أثر دخول الرساميل مزدوجاً ومتناقضاً في آن واحد ، إذ أنها عزّزت تدمير المجتمع التقليدي وبذررت أولى عناصر الحضارة

٥. شلبيه ، إيقون ، «دراسة تاريخية لمؤسسات التعليم في لبنان ، بيروت ، س. ر. أ. ل. ، رقم ١٣ ، كانون الثاني - آذار ، ١٩٧٣ (بالفرنسية) .

SCHLARER, Yvon, «Essai d'approche historique des institutions scolaires au Liban», in C.R.E.T.L., 13 Janvier Mars 1973.

التقنية. فمن أجل بروز هذه الحضارة ومن أجل تسهيل الاستغلال الاستعماري المعدّ لتأمين أكبر قدر من التزايد لهذا الرأسمال ، كان من الضروري تعديل العادات الثقافية وتغيير ايديولوجية السكان. وهذا بالفعل ما جهدت على تحقيقه الحكومة الفرنسية على مستوى التربية والمدارس.

وعرفت الحقيقة الواقعة (١٨٤٠ - ١٨٦٠) كثيراً من الخضّات الإجتماعية والحوادث الدامية . كان أبرزها حوادث (١٨٤٥ و ١٨٦٠). ومنذ ١٨٦٧ اقترحت الحكومة الفرنسية على السلطان الذي كان في زيارة لباريس نظاماً رسمياً للتعليم في الأمبراطورية العثمانية . ومنذ ذلك التاريخ عرف النشاط الثقافي الفرنسي إزدياداً واضحاً فأسست الإرساليات الفرنسية عدداً من المدارس.

وكان إلى جانب الإرسالية الفرنسية إرساليات غير فرنسية ، إرساليات إيطالية وأميركية واسكتلنديّة وانكليزية وروسية وألمانية ...

وإلى جانب المدارس الإرسالية أنشئت المدارس الطائفية الوطنية (مدرسة البطريركية للروم الكاثوليك ١٨٦٥ ومدرسة الحكمة المارونية سنة ١٨٧٥ ...) وكانت غالباً تتلقى المعونات من الفنصلية الفرنسية .

وإلى جانب المدارس الخاصة التي أسسها المرسلون ورجال الدين المحليون والجمعيات الخيرية والأفراد العاديون كانت توجد مجموعة من المدارس الرسمية التي أُنشئت بناءً على مبادرة «حكومة» مصرية أو تركية . وكان لهذه المدارس هدف سياسي بخت . وكانت هذه المدارس إبتدائية وثانوية ويتحقق بها المسلمون . وكان الهدف الأول الذي ابتغاه المحتل من هذه المدارس هو تحضير الشباب للحياة العسكرية .

وفيما يتعلّق بالتعليم الثانوي (ال رسمي والخاص) ، حسب دراسة ف. كونييه V. Cuinet فإن مدارس الطوائف المسيحية كانت تضم (٨٧,٦٪) من مجموع تلامذة الثانوي ، مقابل (٨,٨٪) للمدارس الرسمية والإسلامية و (١,٢٪) لمدرسة عبيه الدرزية .

وكان يوجد بين تلاميذ المدارس الثانوية للطوائف المسيحية عدد ضئيل جداً من غير المسيحيين وكان هؤلاء غالباً وبشكل أساسى من أبناء البرجوازية الإسلامية . لهذا يمكننا القول أن الطوائف المسيحية كانت بالمقارنة مع الطوائف الأخرى مثلثة تمثيلاً كثيفاً جداً في التعليم الثانوى . وإن إنطلاقة قضية إنماء وتطوير التربية ، من قبل القانون ، بمبادرة خاصة للطوائف والأفراد ، قد ساهم في تنمية وتوسيع التعليم في مناطق معينة (بيروت وجبل لبنان المسيحي)

وعند بعض الطوائف المحددة . كما أخر وقّم التعليم في المناطق الأخرى وبين الطوائف الباقيه . وأفرزت هذه الليبرالية كذلك هذه «التعديدية المدرسية» نظاماً تربوياً وثقافياً أنتج بدوره أجايلاً من الرجال والنساء مختلفين في تصوراتهم ومفاهيمهم عن العالم وغريبين إلى حدٍ ما بعضهم عن بعض^٦ .

وهكذا لا يمكن فهم النظام التربوي والمدرسي الحالي إلا في إطار تاريخي . وفق هذه الرؤية ، لا يصح الكلام عن نظام تعليمي متكامل في القرن التاسع عشر وما قبله ، بل يمكن التحدث عن أنواع تعليمية متناقضة ، وعن مدارس طائفية ، وعن تعليم شعبي تقليدي ومتخلف .

إن سيطرة التعليم الإرسالي في تلك الفترة وخصوصاً في القرن التاسع عشر ، لا يمكن فهمها إلا في إطار العلاقات الاقتصادية والاجتماعية الجديدة التي عرفها لبنان ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر . فالتعليم الإرسالي لم يتسع ، بفضل جهود المرسلين والمبشرين فقط ، وإن كانت هذه الجهود قد أسهمت بنشر التعليم وفتح الكثير من المدارس ، بل بفضل تكون طبقة اجتماعية جديدة ارتبطت تبعياً بالغرب وخصوصاً بفرنسا ، أثر دخول الرأسمال الأجنبي وخصوصاً الفرنسي إلى سوريا ولبنان ضمن سياسة التوسيع الرأسمالي ومن أجل السيطرة على أسواق جديدة ومناطق نفوذ جديدة .

بلغت الطبقة الجديدة من أجل تأمين سيطرة إيديولوجية تردد سيطرة اقتصادية جديدة ، إلى وسائلين أساسيتين :

– إعادة استخدام الاجتماعي للمؤسسات التعليمية القديمة لتلائم الحاجات الجديدة بنوياً ووظيفياً .

– إنشاء مؤسسات تعليمية جديدة تلبى الحاجات المعرفية الجديدة وتؤمن إنتاج قوة العمل الاجتماعي .

إن مدارس الإرساليات الأجنبية في استجابتها لحاجات الطبقة الجديدة ، كانت أدوات في يد المؤسسات الغربية وخصوصاً الفرنسية ، تلبى حاجاتها وتؤدي أكثر من وظيفة في وقت واحد :

٦. وهبة ، نخلة ، «عدم تكافؤ الفرص التعليمية ، عودة إلى تاريخ المؤسسات المدرسية» بيروت ، الفكر العربي ، العدد ٢٢٤ كانون الأول ، ١٩٨١ ، ص ٢٠٥ – ٢٢٧ .

- تبرير كل أنواع السيطرة الغربية.
 - ضمان نفوذ الأيديولوجية والثقافة الغربية.
 - إعاقة نمو التعليم الوطني والثقافة الوطنية.
- تتجلى خطورة التعليم الإرسالي، في الحيز الذي يحتله ضمن دائرة القضايا الجوهرية والأساسية التالية:

- الاغتراب الثقافي: ساهم التعليم الإرسالي بشكل أساسي في إبعاد الطالب اللبناني عن محبيه وفي تغريبه عن حضارته ولعنه وأرضه وذاته وتراثه.

- الثقافة الوطنية: كان التعليم العالي الأجنبي، منذ نشوئه على تناقض مع الطابع الوطني للتعليم، أي على تناقض مع الثقافة الوطنية وساهم كذلك في ضرب الثقافة الوطنية التي كانت ملامحها الأولى أن تبلور على يد المثقفين الوطنيين.

- التفكك الاجتماعي، عمق التعليم الإرسالي التفكك الاجتماعي والطائفي ووسع فجوة التحصيل الثقافي بين الطوائف والفتات الاجتماعية، فكانت المدارس الإرسالية لطائفة معينة (المسيحيين) ولفئة إجتماعية محددة (البورجوازية المسيحية) وفي مناطق معينة (بيروت وجبل لبنان) دون أن تكون لباقي الطوائف ولباقي الفتات الاجتماعية وفي باقي المناطق⁷. ولما انحصرت سيطرة الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى، ظهر الانقسام الطائفي من جديد، إذ خاف الموارنة من الاندماج مع باقي الشعوب العربية فتقوقوا وراح زعماؤهم وفي مقدمتهم رجال الدين يطالبون باستقلال لبنان تحت الحماية الفرنسية.

وعرف لبنان الكبير مع عهد الانتداب إزدياد الانقسام الطائفي مع توزيع المناصب بين الطوائف اللبنانية وعندما لجأ الفرنسيون إلى إسترضاء الموالين لهم تسلم المسيحيون معظم الوظائف وخاصة العليا منها وانكش المسلمون وأحجموا عن المشاركة في وظائف الإدارة. ونتج عن ذلك المزاج الخاطئ بين المصلحة المسيحية والعصبية اللبنانية والمصلحة الإسلامية والعصبية القومية – العربية.

وبذلك فرض على لبنان منذ عهد القائمية والمتصوفية النظام الطائفي وترتيب علاقاته الإجتماعية على هذا الأساس وغذى الانتداب هذه النعرة وأزكّاها ليتمكن من السيطرة

7. شلق، سالم، «مدارس الإرساليات الأجنبية في لبنان في القرن التاسع عشر»، بيروت، رسالة أعدت لإنجاز مقررات شهادة الكفاءة في التربية كلية التربية – الجامعة اللبنانية، ١٩٧٧ (غير منشور).

بسهولة على أمور البلاد. وكان التعليم الأرض الخصبة لذر المزيد من بنور الطائفية والإقليمية ولقد تقدمت المدارس الخاصة تقدماً كبيراً بعد الحرب العالمية الأولى وفي عهد الإنذاب وعرفت الأنواع التالية:

- المدارس المذهبية وهي أكبر مجموعة من المدارس الخاصة وتديرها الطوائف الدينية المختلفة طمعاً في ضم أنائها تحت لوتها.
 - المدارس التابعة للجان والجمعيات لأغراض سياسية وتعلمية بحثة.
 - المدارس التابعة للأفراد والكثير منها قد أنشأها أصحابها لأغراض تجارية بقصد الربح.
- ونتيج عن هذا المناخ الطائفي الأمور التالية:
١. ان على كل طائفة أن تجذب إليها أبناء الطائفة وبناتها خوفاً من التحاقيهم بمدارس سواها من الطوائف.

٢. بروز تيارات ثقافية متصارعة منها الإقليمية كثقافة البحر الأبيض المتوسط والتي دعت إلى نزع لبنان عن محيطه العربي وهدفت إلى تحكيد الأثر الكاثوليكي الفرنسي في لبنان. والاتجاه القومي الذي ينهل من الثقافة العربية ويرى في لبنان قسماً من المحيط العربي وكان يعتقد أنصاره بأنه ينبغي أن تكون اللغة العربية لغة الدراسة والتعبير ويقطعنون في الرأي الذي نادى يجعل الفرنسية لغة التعبير بين اللبنانيين والعرب . واللغة الأجنبية في نظرهم ينبغي أن تكون وسيلة للوقوف على الفكر الغربي أما التعبير عن الفكر في ذاته - غربياً كان أم شرقياً - فيجب أن يكون بالعربية».^٨

«ولما حصل لبنان على الاستقلال بقيت الأوضاع التربوية كما كانت في عهد الإنذاب ولم تكن للحكومات سياسة تربوية واضحة الأهداف في بياناتها الرسمية . وكانت الدولة تلجم في معظم هذه البيانات ، إلى التعميم والغموض عند تناولها القضايا التربوية الحساسة أو عند محاولتها تحديد نوع التعليم الذي تسعى إلى تعزيزه» و «إن هناك هوة واسعة بين الرأي العام والدولة . في الحال التربوي ، تمثل بالشعور الغالب بأنه ليس للدولة أهداف تربوية ، وتبلغ الهوة حدّاً من الاتساع لدرجة أن الكثريين يعتبرون أن الأهداف التي تعنى بها الدولة ليست ذات أهمية وإن الدولة على أية حال غير جادة أو مهيئة للتنفيذ».

٨. علي ، سعيد إسماعيل ، «الفكر التربوي العربي الحديث» ، الكويت ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، عدد ١١٣ ، أيار ١٩٨٧ ، ص ٢٧٠ - ٢٨٨ .

لقد صرّح التشخيص الذي قدمه جوزيف زعور عن الوضع التربوي في لبنان وأصاب تنبؤه عندما توقع حصول أزمات عنيفة نتيجة لذلك الوضع التربوي في لبنان. وكان ذلك في محاضرة ألقاها المدير العام الأسبق لوزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة في الندوة اللبنانية بتاريخ ٢٧ أيار ١٩٦٨ أي قبل سبع سنوات من بداية الحرب الأهلية اللبنانية. وما جاء فيها :

«إن التخطيط للأمة يقتضي أن تعتبر الدولة نفسها دولة ، لا مجموع طوائف ... إن واجب وزارة التربية الوطنية هو أن تنتقل من دورها الذي تقوم به حالياً وجزئياً أي تؤمن التعليم إلى دور التربية للمواطن اللبناني . إن التعليم الخاص مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالصالح الفردية وحسب ، بل هو بالدرجة الأولى ، مرتبط بالمصالح الطائفية . وهذا الارتباط العميق هو نتيجة لمفهوم اللبنانيين للدولة اللبنانية ... إن حرية التعليم في لبنان تؤدي في يومنا خدمات مهمة ، من حيث أن القطاع الخاص يتحمّل مسؤولية جسمية ، تخفّف عن الدولة عبئاً ثقيلاً . لكن هذه الحرية تسيء إلى الدولة ، بمعنى أنها تنسي الدولة واجبها الأساسي الذي يقوم على التنظيم والتنسيق في سبيل العدالة الاجتماعية والديمقراطية الصحيحة ... إن المتسكّن بحرية التعليم ، كما هي الحال عليه الآن ، يؤدي في المدى الطويل إلى أزمات عنيفة يجب أن توقعها إذا لم تتغيّر العقلية السياسية ولم تستبدل بها عقلية جديدة» .

ومع اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية واستدادها ، عرف اللبنانيون مقولات ودعوات وأفكار مختلفة ، منها ما يدعو إلى التفتّت ومن أوضحها المطلب الذي جاء في البيان الخاتمي «للحجّة اللبنانية» في خلوتها في دير سيدة البير في ٢٣ كانون الثاني ١٩٧٧ . «اعتماد تعددية المجتمع اللبناني بترااثاته وحضاراته الأصلية ، أساساً في البيان السياسي الجديد بليban الموحد ، تعزيزاً للولاء المطلق له ، ومنعاً للتصادم بين اللبنانيين ، بحيث ترعى كل مجموعة حضارية جميع شؤونها ، وبخاصة ما يعلق منها بالحرية وبالشؤون الثقافية والتربوية والمالية والأمنية والعدالة الاجتماعية وعلاقتها الثقافية والروحية مع الخارج وفقاً لخياراتها الخاصة» .

ولقد ذهب بعض المفكرين في الحجّة اللبنانية إلى توجيه الاتهام إلى النظام التربوي بالمسؤولية عن الحرب اللبنانية : «منذ الاستقلال والدولة تحاول أن تطبق شعار الوحدة الوطنية بمفهومها الانصهاري ظناً منها أن خلط الناس في المدارس والجامعات ودوائر الدولة والجيش وقوى الأمن من شأنه أن يصهرهم في بوتقة واحدة . كانت النتيجة أن مناهج التعليم الموحدة

لم يكن لها أي أثر في توحيد العقول والشعور والاتجاهات بل كانت المنابع الروحية والثقافية في البيت والبيئة أقوى من أي منهج مدرسي ... وان الحرب الأخيرة كذبت هذه المحاولة بحيث وضعت المختلطين في متاريس مواجهة^٩.

وتبقى صحة ذلك التشخيص ودقة حجج ذلك الاتهام موضع شك كبير ، فهل حقاً ، عملت الدولة على تحقيق الوحدة الوطنية؟ وهل أُسست نظاماً تربوياً عمل على دمج الناس في مؤسسات تعليمية متجانسة؟ وهل كانت مناهج التعليم فعلاً موحدة؟^{١٠} وجواباً على ذلك نقول بأن الدولة لم تهتم بصهر المواطنين في وحدة واحدة وذلك واضح في تدريس مادة التربية الوطنية . وفي عهد الانتداب ، اعتُبرت التربية الوطنية مادة ثانوية لا أهمية لها وفي عهد الاستقلال ظلت التربية الوطنية تعاني من « تنازع » و « تفتت » و « طائفية » للأسباب التالية :

- لم تطلب مادة التربية الوطنية في امتحانات الشهادات الرسمية .
 - لم تهتم المدارس الخاصة الأجنبية ، في غالبيتها ، بتدريس مادة التربية الوطنية .
 - لما كانت المدارس ذات الطابع التجاري تتبعي الربح وترتكز على النجاح المدرسي ، لذلك فإنها تحصر اهتمامها بالمواد الأساسية المطلوبة في الإمتحانات الرسمية وتهمل المواد الثانوية والتي لا تطلب في تلك الإمتحانات إهمالاً كلياً منها التربية الوطنية^{١٠} .
- وكان النظام التربوي دائماً في خدمة توسيع المدرسة الخاصة وتقديمها وفي الحد من تطور المدرسة الرسمية وذلك لأسباب سياسية واجتماعية واقتصادية ترتبط بطبيعة النظام الطائفي في لبنان .

ولم يعرف لبنان ، في تاريخه ، منهاجاً دراسياً موحداً بل كانت هناك دائمًا مناهج متعددة ومتناقضه ومرتبطة بنوع المدرسة وبأنماطها السياسي والإجتماعي والطائفي . وفي مقابل ذلك كان لفئات أخرى من اللبنانيين مقولات هي النقىض لسابقاتها « للآن ، ومنذ الاستقلال ، لم ينشأ شيء يسمى مدرسة وطنية ابتدائية أو تكميلية أو ثانوية لأسباب عديدة : لأن المؤسسات الخاصة التي أعطت لنفسها صفة المربى للشعب اللبناني ، بالأخص

٩. بشور ، منير ، أهداف التربية في لبنان ، دراسة ميدانية (الأهداف التربوية في البلاد العربية) ، بيروت ، مكتب الأونيسكو الإقليمي للتربية في البلاد العربية ، بيروت ١٩٨٠ (دراسة في ٩٨ صفحة).

١٠. علي ، سعيد إسماعيل ، المرجع السابق ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

المؤسسات الطائفية ، ما زالت حتى الآن هي السيطرة على القطاع التربوي ، وكان القطاع الرسمي دائمًا القطاع الضعيف ، والقطاع المحترر»^{١١} .

أمام تلك الآراء والطروحات المقولات ، نجد لبنان في أزمة تربوية كبيرة إذا ما بقيت فإنها ستحضر لحرب جديدة أكثر هولاً وعنفًا من سابقاتها (أحداث ١٨٤٥ ، ١٨٦٠ ، ١٩٥٨ ، ١٩٧٥) . وتبين ذلك الأزمة في «وضع غير مألف من عدم الاستقرار ناجم عن ضغط زائد عن الحد يهدد الفرد والجماعة» «إنها حالة من الاضطراب والخلخلة وعدم التوازن بين إمكانات الأمة من جهة أو بين قدرتها على التأثير والتغيير من جهة أخرى»^{١٢} .

وليس تلك الأزمة ، في رأينا ، نتيجة تأثير عوامل خارجية وإنما هي من عندنا نتيجة عوامل داخلية نضع في طليعتها « التربية الإنسان اللبناني » ، منذ أن يولد حتى يموت ، التربية التي تتناول المواطن وبنته الأسرية والاجتماعية ، لا على صعيد التعليم فحسب ، بل على كل الأصعدة ، أي التربية النظامية وغير النظامية . وإذا قلنا ان التربية في لبنان وبخاصة النظامية المقصودة لم تسهم إسهاماً فعالاً في تكوين المواطن الصالح والنافع لنفسه ووطنه ، فقد يبدو حكماً ممحقاً إذا أصدرناه دون برهان دامغ أو تبرير معقول . غير أن هناك معياراً لا يختلف عليه إثنان ويمكننا الركون إليه وهو الحرب التي تصلح أن تكون حالة تدرس حيث تكثر أدلةها ومعطياتها للدراسة والملاحظة .

والإنسان اللبناني هو نتيجة تلك التربية ولا نجد حرجاً في القول بأنه كان على التربية أن تؤدي إلى الوحدة ، حتى ولو بأبسط نماذجها ، وأن تعمل على تعميق الوعي لدى كل المواطنين لتكون مواقفهم الصخرة التي تتحطم عليها كل الانحرافات التقسيمية والإقليمية والتعصبية الطائفية أو الخزبية .

إذن هناك أزمة تعري الإنسان اللبناني ومجتمعه بأكمله : أزمة في السلوك والمارسات والإنحراف عن القيم ، هي أزمة حضارة وأزمة مصير في وقت واحد . والإنسان اللبناني تعصف به الأزمة عصباً ، وهو مدعو للتفكير الجاد في التغلب عليها تغلباً حضارياً وعلمياً وليس باعتماد الشعارات الجردة ومسلسل الغايات والأهداف البعيدة عن التحقيق .

١١. بشور ، منير ، المرجع السابق ، ص ٩٥ .

١٢. يوسف ، عبد القادر ، «أزمة التربية في الوطن العربي» ، بيروت ، مكتب اليونسكو الإقليمي للتربية في البلاد العربية ، مجلة التربية الجديدة ، عدد ٣٤ ، كانون الثاني ، نيسان ، ١٩٨٥ ، ص ١٣ - ٢٨ .

إن القول بوجود أزمة كبيرة في التربية يتجسد في واقع مادي : نقص في الموارد المادية والمباني المدرسية والتجهيزات وفي هدر الطاقات في دراسات نظرية لا فائدة منها ... وفي واقع نوعي : عدم وضوح في الفلسفات والغايات والأهداف التربوية وتعدد في المحتوى وبعد عن حياة الفرد والمجتمع وعن واقعها ومتطلباتها وتختلف في أجهزة الإدارة والتوجيه وفي فعالية عمليات التعليم والتعلم وفي الجو التربوي كله ابتداءً من الأسرة حتى الجامعات بما في ذلك أجهزة الإعلام ...

إن التخلص من الأزمة أو تخفيف حدتها يقتضي بل يوجب إعادة النظر بالقضايا النظرية وبالممارسات من أجل تكوين مواطن واعٍ وصالح لنفسه ولوطنه .

أولاًً : على الصعيد النظري

آ) وضع فلسفة تربوية تقوم على أساس وحدة المجتمع اللبناني السياسية وعلى التنوع وليس على التعددية أو الإزدواجية ويقضي ذلك صياغة أهداف وطنية واضحة الخطوات من أجل مواطن سعيد ووطن مستقر تحكمه قيم الحضارة والتطور والعلم والعمل وليس قيم الطائفية والمذهبية والطبقية والعشائرية والعائلية والمحسوبية التي سادت فيه منذ الاستقلال .

ب) إعادة النظر بالأهداف التربوية الفردية : تهدف التربية في لبنان إلى حشو عقل التلميذ بالمعلومات عن طريق التقين فتتعدد المواد الدراسية وترتاد أحجام الكتب ويطول اليوم الدراسي وتكثر الدروس والواجبات ويطول السهر ويعيش التلميذ والأهل في حمى العمل المدرسي اليومي وحمى الامتحانات الطويلة وتكبر دفاتر العلامات ويتتنوع التقويم والمهدف من كل ذلك النجاح المدرسي . وتلك الأهداف هي النقيض الكبير لأهداف التربية الحديثة التي تعمل لتنمية شخصية المتعلم من جميع النواحي .

ج) ضرورة إعادة النظر بتدريس اللغات الأجنبية : قبل الدخول الأوروبي إلى سوريا ولبنان ، كان هناك نوع من الوحدة الثقافية بين مختلف طوائف المنطقة . وكانت جميعها ، عربية الثقافة ... ومع ذلك الدخول الاستعماري إلى لبنان والمنطقة ، إرتبط قسم من اللبنانيين ، وخصوصاً المسيحيين ، بثقافة دول الغرب ويتراهم الثقافي وبالتالي بلغاتهم . أما القسم الآخر من اللبنانيين فإن جذوره امتدت إلى الثقافة العربية وإلى حضارتها ، وتمسك باللغة العربية .

عمل الأتراك خلال حكمهم على نشر اللغة التركية وأضعفوا اللغة العربية . ولما جاء

الانتداب الفرنسي عزز اللغة الفرنسية في الإدارة وفي التعليم . ولما حصل لبنان على الاستقلال أصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية حسب الدستور . ولكن لم تطبق النصوص في التعليم ، فأصبح هناك ازدواجية لغوية في التعليم (لغة عربية + لغة أجنبية) من الخصانة إلى الجامعة . ويزداد تأثير اللغة الأجنبية في المرحلة المتوسطة والمرحلة الثانوية عندما نجد أن غالبية المواد تدرس باللغة الأجنبية (علوم - رياضيات - فلسفة) وبات امتلاك اللغة الأجنبية الأداة الأولى للنجاح المدرسي والسيف المرفوع فوق رؤوس التلاميذ الذين لا يملكونها وبسبب تقصير الدولة وعدم اهتمامها بالمدرسة الرسمية ضعف تعليم اللغة الأجنبية فيها . وأصبح تعليم اللغة الأجنبية سلعة ودعائية ترفقها المدرسة الخاصة التجارية المدفوعة لتجذب إليها الزبائن . وفي مدارس أخرى ، أجنبية وطائفية ، باتت اللغة الأجنبية اللغة الوحيدة المعتمدة لتدريس جميع المواد .

وبذلك تهدف الفلسفة الكامنة وراء تعليم اللغة الأجنبية إلى :

- إضعاف مكانة اللغة العربية وجعلها ثانية .
- تأمين السيطرة المسيحية على السلطة والتبعية للغرب وذلك بفرض لغتها الأجنبية : الفرنسية أو الإنجليزية .
- يؤدي امتلاك اللغة الأجنبية إلى النجاح المدرسي والعكس يؤدي إلى الرسوب وهذا يؤدي إلى تصفية أبناء الطبقات الشعبية التي لا يمكنها أن تعلم أولادها في المدارس الخاصة الجيدة .
- تعزيز مكانة المدرسة الخاصة في النظام الاجتماعي اللبناني وإضعاف مكانة المدرسة الرسمية .
- اعتقاد المناهج الأجنبية في التعليم وهذا يؤدي إلى تغريب التلميذ عن بيئته الوطنية والفوقيه .
- لا يهدف تعليم اللغة الأجنبية إلى التخصيص في المستقبل لأن عدداً قليلاً جداً من المتعلمين من أبناء الطبقات صاحبة النفوذ والمال سيتمكن من السفر إلى الخارج . وهذا يعني ضياع جهد وقت غالبية المتعلمين في تعلم لغة لافائدة مستقبلية منها . لذلك لا بد من إعادة النظر في الفلسفة الكامنة وراء الازدواجية اللغوية المعتمدة في التعليم في لبنان والاستفادة من تجارب الشعوب الأخرى . وإذا أردنا فعلاً تأمين التعددية اللغوية فيمكن ذلك بتأمين تعليم عدد من اللغات يختارها التلميذ حسب ميله وحاجاته

المستقبلية ، وعدم حصرها في لغة واحدة أو في لغتين . ولا بد أيضًا من إعادة النظر بتدرис اللغة الأجنبية في المرحلة الأولى من التعليم (روضة وابتدائي) لأن تدريس اللغة الأجنبية يضر باكتساب اللغة القومية (الوقت - الجهد - الأثر السلبي الناتج عن تعارض اللغة الأجنبية مع اللغة القومية) ويمكن تدريس اللغات الأجنبية في المرحلة المتوسطة أو في المرحلة الثانوية بطرق تعليمية متقدمة .

د) ضبط حرية التعليم : سمحت حرية التعليم للقطاع الخاص بالعمل التربوي دون حدود ولما كان هذا القطاع يملك النفوذ والمال فقد عمل على إضعاف التعليم الرسمي بوسائل مختلفة حتى بات غير قادر على المنافسة . وارتفعت أصوات أصحاب النيات السيئة تهم المعلمين بالقصير وتنادي بضرورة تعزيز التعليم الخاص وهم بذلك ينسون بأن ضعف التعليم الرسمي ناتج عن تقصير الدولة بواجباتها إتجاهه . والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال : لماذا نجحت المدرسة الرسمية في أغلب دول العالم القريبة منها والبعيدة وفشلت في لبنان؟ والجواب على ذلك واضح وغير متعب ويتجسد في المقوله بأن قوة المدرسة الرسمية من قوة الدولة وضعف المدرسة الرسمية من ضعف الدولة لأنها المسئولة الأولى عنها .

ثانياً : على صعيد الممارسات :

لا بد من العمل على تحسين شروط العمل التربوي :

١. تأمين المدرسة لجميع اللبنانيين دون تمييز طائفي أو طبقي أو مناطقي ...
٢. رفع شأن المدرسة الرسمية بتحسين ظروفها المادية والبشرية .
٣. مراقبة المدرسة الخاصة وعلى الأخص الأجنبية والطائفية منها والحد من أدوارها في تفتیت المجتمع اللبناني .
٤. التركيز على دور التربية في تنمية المجتمع اللبناني وذلك باستغلال الطاقات البشرية في دراسات واحتصاصات مفيدة (مهن عليا ومتوسطة) وبالحد من التعليم النظري .
٥. مراقبة وسائل الاعلام وضرورة التشدد على دورها الكبير في توحيد اللبنانيين تحت راية وطنية واحدة .
٦. مساعدة الأسرة في القيام بواجباتها التربوية وذلك بتقديم التوجيه اللازم لأفرادها .
٧. ضرورة إعادة النظر بالمناهج التعليمية وضرورة توحيدتها والتشدد في مراقبتها خصوصاً في

الأمور الوطنية والعمل على احترام نفسية المتعلم وحاجاته واحترام تنمية المجتمع وروح العصر.

٨. توسيع دائرة التقويم المدرسي بحيث يشمل كافة المواد الدراسية (تربيية وطنية ومهنية وفنية وغيرها) بحيث تهدف إلى التنمية العامة الشاملة لشخصية المتعلم وبذلك لا يعود هناك مواد أساسية ومواد ثانوية في التعليم.

وبعد إن الحرب التي عصفت بلبنان لمدة طويلة من الزمن ، كانت مخيفة ومها اختلف المخلّلون في أسبابها فإنهم يقررون بفشل التربية إذ خلقت الفرد – الطائفة والمذهب وكان عليها أن تخلق الفرد – المواطن أو الوطن . وإذا أُريد تأسيس لبنان – الوطن وتنشئة الفرد – المواطن فلا بد من قلب الأوضاع التربوية السابقة وتأنسيس أوضاع جديدة . وقدّيماً ، قال الأديب الهولندي إرازمس Erasmus (١٤٦٦ - ١٥٣٦ م) «سلمي إدارة التربية ردحاً من الزمن أتعهد لك أن أقلب وجه العالم بأسره». فهل نستفيد من تجارب الشعوب ونتعظ من حكم وعبر التاريخ؟.

مراجعات ، نقد

تقديم لكتاب Judith LAZAR سوسيولوجيا الاتصال الجماهيري *Sociologie de la communication de masse*, éd. Colin, Paris, 1991, 230 p. قيد الترجمة ، من المجمِّع الوسط

* د. شبيب دياب)

بعد أن أُلحقت المؤلفة كباحثة في جامعة تورنتو (كندا) في برنامج ماكلاوهان للثقافة والتكنولوجيا ، عادت لتدريس علم اجتماع الاتصال في جامعة باريس X . ولها أعمال سابقة في مجال الاتصال والتربية ، و يتميز مؤلفها الجديد هذا باجتاعه الخاص بالاتصال الجماهيري ، هذا المجال الذي يبقى «القريب الفقير للعلوم الإنسانية في فرنسا» ، رغم الجهد المبذولة مؤخرًا لإرساء قواعده بعد أن بدأت الميديولوجيا تشق طريقها بقوة للحلول محل الإيديولوجيات التي شكلت السمة الأساسية للقرن الماضي والتي بدأت تقهقر في أواخر هذا القرن .

ولا غرابة أن يحرز الاعلام قصب السبق في العقد الأخير ، لا سيما سنوات التحول الكبرى في العالم والشرق الأوسط ، خصوصًا بعد نجاحاته الباهرة في الحرب الباردة وحسمنها لصالح الغرب . فالاعلام هو السلاح الأكثر تطورًا وقابلية للتتطور ، والأكثر والأوسع استهلاً¹ في مختلف الأوساط الاجتماعية ، وكما ازداد الإقبال عليه ازداد تقدّمًا على المستوى التكنولوجي وتأثيرًا على المستوى الثقافي .

يقع الكتاب في عشرة فصول ، يتناول الأول ولادة وسائل الاعلام والاتصال الجماهيري منذ الصحافة المطبوعة الأولى مرورًا بالإذاعة والسينما حتى التلفزيون اليوم . ولا يفوت المؤلف أن يقوم في بداية هذا الفصل ببعض التعريفات الضرورية ومنها تعريف الاتصال الجماهيري بما هو عملية اجتماعية تستخدم وسائل الاعلام : الصحف والمحلات ، الإذاعة ، التلفزيون . ولكي تتحقق هذه العملية يجب أن تتوفر لها عناصر ثلاثة هي : المرسل والجمهور والممارسة الاتصالية بينهما .

* أستاذ في معهد العلوم الاجتماعية .

ويعالج الفصل الثاني مختلف المقاربات المنهجية في سوسيولوجيا الاتصال ، وتبقى النظرية الوظيفية في طليعتها وهي تطرح إشكاليات باللغة التعقيد على صعيد الممارسة التطبيقية كالمميز بين الوظائف الظاهرة للإعلام والوظائف المستترة ، بين الوظيفة نفسها والمهدف الذي تسعى إليه وهنا يحذر الكاتب من أفخاخ المنزج الوظيفي لا سيما تفضيلاتنا الإيديولوجية وأحكامنا المسبقة وأراؤنا الشخصية المتعلقة بالخير والشر في تقييم العناصر الوظيفية واللاوظيفية . ويقترح علينا العودة إلى النقد الذي قدمه K. Davies للمنزج الوظيفي لا سيما بجهة مبالغاته الغائية (finalité) . ص ٣٣ .

وفي الفصل الثالث نحو تاريخ الاتصال الجماهيري كمؤسسات قانونية في كل من فرنسا وبريطانيا والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتي من عام ١٩٨٥ وهنغاريا ولحة عن العالم الثالث .

ثم يعرض في الفصل الرابع ثلاث دراسات رائدة في سوسيولوجيا الجمهور تتناول أساساً خصائص هذا الجمهور وسلوكه الاتصالي حسب فئات عمرية وتعلمية واجتماعية - مهنية . وحسب تراكيب ثنائية أو ثلاثة لهذه الفئات ، وإقبالها على مختلف وسائل الاتصال الجماهيري وسلوكها ازاء كل منها ، إضافة إلى الاتصال الشخصي بين الأفراد والدور الذي يلعبه قادة الرأي في نقل الأفكار ، فتتم عملية الاتصال على مرحلتين عبر القادة المحليين أو الكسموبوليتين نحو قليل الاهتمام بمتابعة الأخبار .

إن الفصل الخامس فهو في سوسيولوجيا المرسلين Communicators وهم تعريفاً «أولئك العاملين في وسائل الإعلام والذين يؤدون أدواراً متصلة بمراقبة وعمل الاتصال الجماهيري» . ويسموا عادةً الصحافيين لأن أول العاملين في الإذاعات والتلفزة جاءوا من قطاع الصحافة المكتوبة ويمكن تصنيف هؤلاء المرسلين في أربع مجموعات كبيرة .

١. المدراء (من مراقبين ومديرين)
٢. المبدعين (كتاب ، مؤلفين ، ممثلين ، مخرجين)
٣. الصحافيين (المراسلين ، المعلقين ، المحققين)
٤. الفنانين (الرسامين ، خبراء التصنيع) .

وتنصب الدراسات السوسيولوجية على الفتئتين الثانية والثالثة لأنهما الفتئتين الأوسع والأهم والأكثر شعبية بين الجمهور .

في فرنسا وعام ١٩٨٩ بلغ عدد المراسلين العاملين في الإذاعات والتلفزيون والصحف ووكالات الأنباء حوالي ٢٠ ألفاً، بلغت نسبة النساء ٣٤٪ وهي في ازدياد وقد كانت ٢٥,١٪ عام ١٩٨٥، كما أن ثلث العاملين تتراوح أعمارهم بين ٣١ و٤٥ سنة وتبين أن ٥٠٪ من المجموع تقع في الفئة العمرية ٢٥ - ٣٤ أما الذين لم يبلغوا الخامسة والعشرين فإنهم يشكلوا نسبة ٣٪ فقط. وتبادر النساء العمل في الاعلام في عمر مبكر أكثر من الرجال، كما أن الغالبية العظمى لمجموع العاملين تتسمى إلى البرجوازية المتوسطة. أما القادمون من الأسر العليا لكتاب الموظفين والمدراء فإن نسبتهم تبلغ ٢٧,١٪ من النساء مقابل ١٧,٧٪ عند الرجال.

أما بجهة التوارث المهني فإن نسبة ٧,٣٪ فقط من العاملين سبق لأحد والديها أنه كان عامللاً في ذات القطاع.

وإذا كان الجسم الاعلامي يتمركز بكتلته الاساسية في العاصمة الفرنسية فإن الأمر يختلف تماماً في الولايات المتحدة الأمريكية حيث يتوزع العاملون على الولايات وقد بلغ عددهم عام ١٩٨٢ - ١١٢٠٧٢ وتبين من الدراسة التي أجريت عام ٨٦ أنهم أكثر شباباً من زملائهم الفرنسيين (٨٠٪ دون الخمسين من العمر) وتبلغ نسبة العاملات بينهن ٣٣,٨٪ وبلغ عدد الملونين ١٥٪ فقط من المجموع وهذا الرقم آخر في الازدياد، أما نسبة اليهود أو الذين نشأوا في أسر يهودية فقد بلغت ٥,٨٪ علماً بأن نسبة اليهود على مجموع السكان في الولايات المتحدة تبلغ ٢٪ فقط. وللنخبة من الصحافيين الأميركيين رواتب أعلى من رواتب السياسيين والتوجه منهم العاملين في محطات التلفزة الكبرى يفوق مستواهم الاجتماعي أعضاء مجلس الشيوخ.

وفي النص السادس يعالج مسألة تحليل المصمون للاتصال الجماهيري فيبدأ بالاتجاه الأميركي الذي يقيس التكرارات كذلك التي يكررها المتناظرون في الانتخابات الرئاسية، وكذلك كيفية تقديم النساء ، الأقليات ، الخ ... ثم المنح السيميائي في التحليل وهو خلافاً لسابقه يعتمد على المدلول لا على الدال لأنه وإن كان الدال واحداً فإن المدلول لا يدرك بذاته الطريقة في مختلف الثقافات وإنما حسب التصورات الاجتماعية المختلفة لذلك له . ويحرري المؤلف مقارنة بين المقاريتين آنفي الذكر ، فتحليل المصمون الأميركي هو كمّي بينما يميل السيميائي لكي يكون نوعياً فيفتح عن الدلالة الكامنة في العلاقات بينما يعزّ الأول المعنى الظاهر والسيميائي استدلالي بينما الأميركي استقرائي .

وبقية الفصول ليست أقل غنى من سابقاتها وسنكتفي بعرض موجز لمضمونها نظرًا لضيق المجال . ففيها التأثير الاجتماعي للإعلام . وبين الحربين العالميين كان هم الباحثين إثبات القدرات اللامحدودة للإعلام ، وبعد الحرب الثانية بدت لهم هذه القدرات متواضعة ، وابتداءً من السبعينات بدأ التشكيك بقدرة الإعلام حتى في حدودها الدنيا ، لا سيما بعد وصول التلفزيون ، حيث بدأت الدراسات تراقب تأثير البرامج الترفية عن التنشئة الاجتماعية بفعل المضمون المعرفي أو المعتقد الذي تحمله تلك البرامج .

كما نجد فيها نظرية تزايد المسافة المعرفية بين فئة متقدمة تتلقى كمية من المعلومات الفورية وفئة أخرى متواضعة الإمكانيات . ثم فرضية «وظيفة المفكرة» ولو لم يلتف الصمت والثقافة والسلوك والعنف ، ويعطي المؤلف أهمية خاصة لموضوع الاقتناع على مبدأ S/R الحافر والخواب أو رد الفعل ، وفشل بعض الحملات الإعلامية بسبب المقاومة التي تلاقتها من الجمهور ، إضافة إلى الإعلام والتنشئة الاجتماعية للطفل والتنشئة السياسية للشباب وتنشئة البالغين . وأخيراً التأثير الاجتماعي للتكنولوجيا الجديدة القائمة على التفاعل بين المرسل والم المستقبل لهذه الأجهزة (الفاكس ، الأفكار الصناعية ، الكابل ، الخ.) . ويتسائل المؤلف عما إذا كان التطور التقني وتركز مؤسسات وسائل الإعلام في شركات معدودة سينعكس سلباً على مضمون الاتصال وحرية التعبير فإذا كانت وسائل الإعلام منذ نشوئها في خدمة السلطة فإن التقدم التقني أحدث «الثورة الإعلامية» التي لم تغير في الواقع السلطة السياسية ، فمن الأفضل أن نسميتها «إنقلابات إعلامية» على غرار الانقلابات العسكرية في العالم الثالث أما الفكرة الشائعة عن التعارض بين السلطة والمعرفة فإنها غير دقيقة ، فالسلطة تقوم على المعرفة والمعلومات ، ولكنها معلومات ليست في متناول الجميع .

يعرف المؤلف أنه لم يقدم في لوحته الواسعة كافة وجوه الاتصال الجماهيري نظرًا لغنى الموضوع وتشعيه ، ومع ذلك فإنه يبقى مؤلفاً قيمًا ، يغنينا بتعريفاته ، يمتع القراءة ، بالغ الوضوح . تعزّزه سعة اطّلاع المؤلف على آخر وأهم الأبحاث في أوروبا وأميركا مما جعله مرجعاً مختصراً لأهم نتائج تلك الأبحاث والتي تقدم فائدة معرفية إضافة إلى الفائدة المنهجية والتقنية ، وهو وإن كان يبدو كتاباً أكاديمياً لطلاب الإعلام وعلم الاجتماع فإنه أيضاً معد ليقدم هذه المادة للعامة والراغبين من أي اختصاص كان .

مؤتمرات ، ندوات

شهدت العاصمة اللبنانية بين أواخر سنة ١٩٩١ ومطلع ١٩٩٢ عشرات الندوات وأكثر من ثلاثة أو أربعة مؤتمرات تقاطعت على نحو جوهري وأساسي مع الموضوعات والمسائل والإشكالية التي تدرج عموماً في الإطار السوسيولوجي العام ، معرفياً ومنهجياً .
نذكر من هذه المؤتمرات :

- «إماء لبنان الاجتماعي» ، الذي نظمه مركز الدراسات والتوثيق في «المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى» بتاريخ ١٥ - ١٦.
- ندوة «المجتمع المدني...» ، الذي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بتاريخ
- «المؤتمر اللبناني الثاني حول التنمية والسكان» ، الذي نظمه المجلس النيابي اللبناني وجمعية تنظيم الأسرة في لبنان بتاريخ ٩ - ١٠/١٩٩٢.
- ندوة «الحرب والمجتمع» ، التي نظمتها الجمعية العربية لعلماء الاجتماع بتاريخ ٢٤ - ٢٥/١٩٩٢ من أبحاث هذه الندوات اختنا أوراقاً أربعة ، على أن نحاول في أعداد آخر تقديم أوراق أخرى بالنظر إلى أهميتها على أكثر من مستوى وصعيد .



التهجير والإئماء*

* بطرس لبكي

يقع الموضوع المختار للمؤتمر البرلاني الثاني حول التنمية والسكان «التهجير وتنمية العنصر البشري في لبنان» في وسط المشاكل الملحة التي يتخبط فيها الوطن في هذه المرحلة. فمشكلة إعادة المهاجرين إلى بيوتهم لا تزال أحدى أهم المقررات غير النافذة في اتفاق الطائف. فهي تعيق الوفاق الوطني خاصة عندما يفترض أن يكون الأمن قد استتب وكذلك حكم القانون على أكثرية المناطق التي طالها سيف التهجير.

لكن هذه المشكلة لها انعكاسات على صعيد الاقتصاد والمجتمع قلّ ما انكبّ عليها الباحث حتى الآن، وهي أحدى العوائق الأساسية أمام إعادة انطلاق سيرة الإنماء المطلوبة. فالتهجير يمكن أن نحده كمعادرة قسرية لجماعة بشريّة معينة موقع عيشها إلى موقع آخر، أما التنمية فهي جملة التغيرات الذهنية والاجتماعية التي تجعل مجموعة بشريّة معينة تزيد إنتاجها الإيجابي من السلع والخدمات بشكل ثابت وترامكي. فالتنمية تؤدي على الصعيد الاقتصادي إلى:

- تحسين مستوى المعيشة على كافة الأصعدة (دخل ، تغذية ، صحة ، تربية ، سكن) مما يعني نمواً اقتصادياً أي بزيادة للإنتاج.
- زيادة الترابط بين النشاطات الاقتصادية المختلفة في البلد.
- تحفيظ الاتصال أو التبعية نحو الخارج وزيادة نسبة الاكتفاء الذاتي.

فالتنمية هي سيرورة الخروج من التخلف أي الفقر والتبعية والتفكير. منذ أن بدأت الحروب للآخرين على أرض لبنان عام ١٩٧٥ ، ارتبط العديد من

* قدمت في «المؤتمر البرلاني الثاني حول التنمية والإسكان».

** أستاذ في معهد العلوم الاجتماعية ، الجامعة اللبنانية ، نائب رئيس مجلس الإنماء والإعمار.

العناصر المؤثرة على الإنماء والتخلّف بظاهره التهجير وبشكل سلبي ومعيق إجمالاً. هنا ما سنفصله فيما يلي :

القسم الأول : التهجير والتخلّف

اربط التهجير في لبنان منذ عام ١٩٧٥ بأهم ظواهر التخلّف عامة. وسنعرض هذا الإرتباط مرتكّبين أساساً على التواحي الإقتصادية للتخلّف.

١. انخفاض الإنتاج والدخل ومستوى المعيشة

وقد طال هذا الانخفاض أكثريّة قطاعات الإقتصاد. وهذا الانخفاض في الدخل ومستوى المعيشة هو من مظاهر التخلّف الأساسية.

أما تأثير التهجير على انخفاض الإنتاج والدخل ومستوى المعيشة فسنعرضه فيما يلي في أهم القطاعات الإقتصادية ومن ثم بشكل عام.

١. ١ : انخفاض الإنتاج والدخل الزراعيين

في القطاع الزراعي نتج من التهجير في مناطق الريف (بعض المتن ، والبقاع ، وأقصيه بعضاً وعالياً والشوف وصيداً وحاصبياً وجزين ومرجعيون ، وبنت جبيل وصور والمنطقة والبترون) بوار جزئي أو كلي للعديد من الأراضي الزراعية خاصة الشجريات . فانخفضت المساحات المزروعة من /٢٢١٦٤٥/ هكتار عام ١٩٧٣ إلى /٩٣٨١٣/ هكتار عام ١٩٨٦ ، وقد طال هذا الانخفاض بعض المزروعات بشكل : فالمساحات المزروعة تفاصياً انخفضت من /١٢٢٩١/ هكتاراً عام ١٩٧٣ إلى حوالي /٤٠٠٠/ هكتار عام ١٩٨٩ . والمساحات المزروعة تبعاً انخفضت من /٧٥٠٩/ هكتار إلى /١١٩٠/ هكتار في الفترة نفسها . كذلك انخفض عدد رؤوس البقر الحلوبي من /٨٣٨١٧/ رأساً عام ١٩٧٣ إلى /٤٥٤٠٠/ رأس عام ١٩٨٦ ، وانخفض عدد رؤوس الغنم من /٢٢٦٤٥٦/ إلى /٤٠٠٠/ في الفترة نفسها . أما عدد رؤوس الماعز فقد انخفض من /٣٣٠٠٤٣/ إلى /٧٥٠٠٠/ في الفترة نفسها أيضاً . كما انخفضت قيمة الإنتاج الزراعي من /٩٠٤/ مليون ليرة لبنانية عام

الجدول رقم ١ :
الخسائر في طاقات إنتاج الزراعة والإنتاج الحيواني
لدى مهجري جنوب جبل لبنان حتى عام ١٩٨٣

نوع الأرضي	الأراضي غير المزروعة (هكتار)	الأراضي المزروعة (هكتار)	تربيه الدواجن	الأبقار	عدد المزارع	الخنازير عدد الرؤوس
بعبدا	٣٩١٥	٤٠٣٥	١٧٥,٠٠٠	٣٣٠	٤	٦٠٥
عالیه	٩٤٣٥	٩١٢٠	١٨٠,٠٠٠	٥١٨	١٠	١١٨٥
الشوف	١٦٧٨٥	٣٧٨٠	٢٠٥,٠٠٠	١٣٨٠	٢	١١٠٠
المجموع	٣٠١٣٥	١٦٩٣٥	٥٦٠,٠٠٠	٢٢٢٨	١٦	٢٨٩٠
الخسائر بالأسهم بالليرات اللبنانية بأسعار ١٩٨٣			٥,٦٠٠,٠٠٠	٣٣,٤٢٠,٠٠٠	٤,٣٥٠,٠٠٠	
١ ل.ل = ٠,٢٢ دولار						

المصدر : تحقيق ميداني لأجراي عام ١٩٨٤ مع مهجري أقضية بعبدا وعالیه والشوف.

الجدول رقم ٢ :
الخسائر السنوية المقدرة لقيمة الإنتاج الزراعي والحيواني
لمهجري أقضية جنوب جبل لبنان - حتى عام ١٩٨٣

نوع الإنتاج	الإنتاج النباتي	الإنتاج الحيواني	القضاء
بعبدا	٣٩,٤١٥,٠٠٠		
عالیه	٥٨,٩١٠,٠٠٠		
الشوف	١٠١,٥٨٥,٠٠٠		
المجموع (ل.ل ١٩٨٣)	١٩٩,٩٠٥,٥٠٠	٥٠,٣٧٠,٠٠٠	

المصدر : تحقيق ميداني لأجراي عام ١٩٨٤ مع مهجري أقضية بعبدا وعالیه والشوف.

إلى ٤٣٥ مليون ليرة عام ١٩٨٧ (بأسعار ١٩٧٣) أي إلى حوالي النصف^١. وذلك يعكس انخفاض الإنتاج والدخل الزراعيين ، رغم كون أكثر من ربع قيمة الإنتاج الزراعي عام ١٩٨٧ متأتية من الزراعات غير الشرعية (حشيش ، أفيون) مع العلم ان هذه الزراعات كانت محدودة جداً عام ١٩٧٣ ولم تكن تحسب في قيمة الإنتاج الزراعي آنذاك. فقيمة الإنتاج الزراعي الشرعي عام ١٩٨٧ لم تعد تمثل إلا ٣٩٪ من قيمة مثيله عام ١٩٧٣ ، أما قيمة الدخل فقد تكون أقل من ذلك.

لا أدّع أن التهجير قد تسبب بكل هذه الخسائر لكنه بالتأكيد قد تسبّب بجزء كبير منها. هنا أذكر على سبيل المثال لا الحصر الخسائر التي لحقت بهجري أقضية الشوف وعالية وبعداً بين عامي ١٩٧٥ و ١٩٨٣ والتي استنبطناها من تحقيق ميداني أجربناه بعد تهجيرهم ، وقد صنفت هذه الخسائر إلى فئة : الخسائر بالطاقات الإنتاجية والخسائر بالإنتاج السنوي هذا مع العلم ان مهجري هذه الأقضية الثلاث يشكلون ثلث مهجري لبنان تقريرياً^٢.

١. ٢ : انخفاض الدخل والإنتاج الصناعي والحرفي

أما في النشاط الصناعي والحرفي فتهجير العديد من العمال من ضواحي بيروت الشرقية والجنوبية ، كما عمليات مماثلة في مناطق أخرى. واستبدل بعض العمال السوريين والفلسطينيين واللبنانيين عمال من مصر والهند وسريلانكا وباكستان وبنغلادش والفلبين وغيرها من البلدان. وبقي العديد من المصانع والمحترفات بدون عمال والعديد من العمال بلا مصانع ومحترفات . فحاول بعض العمال إعادة الأحياء بأنفسهم في مناطق سكنهم الجديدة ، كذلك فعل بعض الصناعيين والحرفيين. نتائج التهجير في قطاع الصناعة والحرف هجرة إلى

١. رياض سعادة ، «الإنتاج الزراعي اللبناني ١٩٨٩» ، التقرير السنوي السابع والثلاثون مشورة في لي كومرس دي ليفان ، ١٩٩٠/٧/١٥ ، ص ١٨-٧ ، مجموعة الإحصاءات اللبنانية ، وزارة التصميم العام ، مديرية الإحصاء المركزي ، المجلد ٩ ، عام ١٩٧٣ ، ص ١٣٠.

٢. خليل أبو رجبي وبطرس لبكي ، الرعايا المهجرة من كنائس لبنان ، مشورات كاريتاس ١٩٨٧ .

الخارج بحثاً عن عمل مأجور أو عن مجال لإنشاء المصنع والمخلفات في بلد آخر^٣. كما دمرت العديد من المؤسسات الصناعية والحرفية نتيجة للتهجير. ونورد هنا على سبيل المثال لا الحصر كشفاً بالمؤسسات التي خسرها مهجرو أقضية بعيداً وعاليه والشوف بين ١٩٧٥ و ١٩٨٣ قد قدرت قيمة هذه المؤسسات بـ ١٧,٥ / ٣,٨٥ مليون ليرة أي / ٣,٨٥ مليون دولار بقيمة ١٩٨٣.

١. ٣ : إنخفاض الدخل والإنتاج في القطاع التجاري

على صعيد القطاع التجاري انعكس التهجير أساساً على وسط بيروت التجاري مباشرة إذ دُمِر بنسبة ٨٠٪ تقريباً. فانتقل النشاط التجاري إلى الأحياء السكنية (الروشة، المصيطبة، مار الياس، المزرعة، الأشرفية، البسطة، شارع بدراو)، وإلى الضواحي (فرن الشباك، الدورة، جل الديب، انطلياس، الجديدة، سن الفيل، الغبيري، برج حمود، الزلقا)، وإلى مدن وبلدات أخرى (جونية، جبيل، البترون، بکفيا، برمانا، الخلوات، عاليه، بعقلين، صيدا، صور، النبطية، زحلة، شتورة، بر الياس). وكان تأسيس ١٠٩١ / ١٩٧٥ محلّ تجاريًّا جديداً ما بين نيسان ١٩٧٥ وأيار ١٩٧٧ في أحياي بيروت السكنية وضواحيها والبلدات القريبة منها (جونية، الأشرفية، برج حمود، برمانا، شارع الأووزاعي، شارع مار الياس، الزلقا، بولفار المزرعة، الجديدة، انطلياس، جل الديب، شارع بدراو، وفرن الشباك). وكانت نسبة نمو عدد المحلات التجارية في أيار ١٩٧٧ مقارنة بما هي في نيسان ١٩٧٥ كما يأتي : بحسب المناطق (جونية ٢١٢٪، الجديدة ١١١ في المئة، شارع مار الياس ١٠٦، برمانا ٨٥، الأشرفية ٨٠، جل الديب ٧٢، انطلياس ٧٠، برج حمود ٦٨، الزلقا ٩، شارع الأووزاعي - البسطة ٣٢، بولفار المزرعة ٢٣، شارع بدراو ١٧). وأهم المباصعات للمحلات الجديدة على حسب أهميتها المتناقضة : الألبسة، الأحذية، والجذادين، الصيارة، المطاعم، الأفقيّة، المصوّغات وال ساعات. كما ظهرت « الأسواق على الأرصفة » في الروشة والصنائع والمتاحف^٤. وفي مدينة طرابلس ظاهرة « تهجير تجاري »

٣. بطرس لبكي ، تطور الدور الاقتصادي بمنطقة بيروت الحضرية ١٩٦٠-١٩٧٧ في الحال الاجتماعي للمدينة العربية ،

منشورات مزون نوف لاروز ، باريس ١٩٧٩ ، ص ٢٤٤-٢١٥ .

٤. بطرس لبكي ، « زبيبة الإنتصارات وبعض السكارى في لعبة الترحيل لا أحد يربح » ، النهار ، ١٩٨٥/٧/١٦ ، بيروت .

المؤسسات المعرفية والصناعية التي خسرها مهجرة أقضية بعدها عاليه والشوف - حتى عام ١٩٨٦

النفخاء	بعبدا	الشوف	عاليه	الجُمُوع						
محلات حداوه	محلات نجارة	محلات تصليح سيارات	محلات كاراج مناشر	محلات مطاحن أحجار	محلات معامل بلاط	محلات جبس؛ زغتون	محلات معاصر أحجار	محلات مؤسسات أخرى	المجموع	
٣٠	٢٨	٥٢	٨٩	١٧١	٣٦	٢٣	٧٧	٢٣	١٧٥	١٧٥
٣٠	٢٨	٥٢	٨٩	١١١	٦٧	٣٧	٤٧	٣٨	٦١	٣١٧
٣٠	٢٨	٥٢	٨٩	٦٠	١٢١	٣٣	٤٣	٣٤	٢٠	٦٠٧
٣٠	٢٨	٥٢	٨٩	١١١	٦٧	٣٧	٤٧	٣٨	٩٥	٢٧٤
٣٠	٢٨	٥٢	٨٩	١١١	٦٧	٣٧	٤٧	٣٨	٩٠	١٦٩

المصدر : تحقيق ميداني أجري عام ١٩٨٤ مع مهجري أقصيمية بعبدا وعليه والشوف .

لكن على أضيق في اتجاه مدن وقرى مجاورة (زغرتا وبعض قرى قصائصها ، شكا والكورة) .
أما في جبل لبنان فقد خسر مهجري أقضية بعبدا وعالیه والشوف حوالي ألفي مؤسسة تجارية
موزعة كما يلي على الفروع التجارية والأقضية :

الجدول رقم ٤ :
المؤسسات التجارية التي خسرها مهجري أقضية
بعبدا وعالیه والشوف - حتى عام ١٩٨٣

القضاء	محلات سهام لحامين	محلات بذرين محلات أخرى	نوفوتيل	محطات بنزين محلات أخرى	المجموع	
بعبدا	٢٠٩	٤٠	٣٤	١٧	٥٢	٣٥٢
الشوف	٤٢٦	٨٧	٦٧	٤٦	٦٤	٦٩٠
عالیه	٥٥٧	١٠٦	١١٨	٥٧	٨٣	٩٢١
المجموع	١١٩٢	٢٣٣	٢١٩	١٢٠	١٩٩	١٩٦٣

المصدر : تحقيق ميداني لأجri عام ١٩٨٤ مع مهجري أقضية بعبدا وعالیه والشوف .
 وقد قدرت قيمة هذه المؤسسات التجارية عام ١٩٨٣ بـ ١٩٠,٠٩١,٢٠٠ ل.ل . أي
 حوالي ٤٢ / مليون دولار بقيمة ١٩٨٣ . ومن نتائج « التهجير التجاري » رفع كلفة التسويق
 لتعدد المراكز وإضعاف الإنتاجية وخسارة « وفورات الحجم » .

١. ٤ : انخفاض إنتاجية القطاع المصرفي

وتأثير القطاع المصرفي بالتهجير فلحقت الفروع وزبائنها من السكان والتجار إلى أحياe
 بيروت وضواحيها والمدن والبلدات . كما هذه الفروع ومراكزها الجديدة أيضاً دفعتها التعويض
 عن مراكز وفروع دمرت في وسط بيروت التجاري خلال حرب الستين إلى إنشاء ١١٠ /
 فروع ومراكز للمصارف في بيروت الكبرى ٤٢ / في شطرها الغربي و ٦٨ / في شطرها
 الشرقي ، وبين ١٩٧٤ و ١٩٨١ ، انخفض عدد المراكز الرئيسية للمصارف في وسط العاصمة
 من ٤٠ / إلى ٧٦ /، وارتفع عددها في الشطر الغربي لبيروت الكبرى من ٤ / إلى ٢٠ /
 وفي شطرها الشرقي من صفر إلى ٢٥ /، كما هذا العدد في باقي المناطق من صفر إلى ٥ / .
 أما الفروع بين ١٩٧٤ و ١٩٨١ خارج بيروت الكبرى فمن ١٠٢ / إلى ١٨٣ / . نتيجة

لصعوبة انتقال الموظفين بين شطري العاصمة اختل ميزان العرض والطلب وانخفضت الإنتاجية . وانعكس التهجير على الإدارة العامة ، شرذمة للدوائر بين شطري بيروت الكبرى ما زاد من قلة فاعليتها من ترايد غياب الموظفين والاتصال والمستندات والوثائق وزيادة تعقيد المعاملات^٥ .

١.٥ : انخفاض الدخل والإنتاج في القطاع السياحي

ضرر القطاع السياحي ضربة قوية بسبب التهجير فانقطع العديد من العاملين اللبنانيين عن المطعم والملهى والمسبح والفندق ، خاصة في بيروت والمناطق المحيطة^٦ . ودمرت أو عطلت عشرات الفنادق والمسابح والمطاعم والمقاهي ، وذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر الخسائر التي لحقت بمهرجى أقضية بعيداً وعالیه والشوف حتى عام ١٩٨٣ بمؤسساتهم السياحية :

الجدول رقم ٥ :

المؤسسات السياحية التي خسرها مهجرى أقضية

بعبدا وعالیه والشوف - حتى عام ١٩٨٣

نوع المؤسسات				
مقاه و مطاعم	مسابح	فنادق	القضاء	
٣٢	-	٢٥	بعبدا	
٨٤	٥	٧١	عالیه	
٥١	٩	٨	الشوف	
١٦٧	١٤	١٠٤	المجموع	

المصدر : تحقيق ميداني مع مهجرى أقضية بعيداً وعالیه والشوف أجري عام ١٩٨٤ .

وقد قدرت قيمة هذه الخسائر بـ ١٠,٢٣٠,٠٠٠ لـ ٢,٢٥ / أي دolar.

٥. بطرس لبكي ، تطور الدور الاقتصادي ... ، مرجع سابق ، ص ٢١٥-٢٤٤ .

٦. خليل أبو رجيلي وبطرس لبكي ، لبنان : كلفة ١٦ من حروب الآخرين على أرضه ، كتاب قيد النشر ، منشورات لارمانان ، باريس ، ١٩٩٢ .

١. ٦ : إنخفاض الطاقات والمداخيل في القطاع العقاري والسكنى

وظهرت إنعكاسات التهجير في القطاع العقاري في شكل عنيف بانخفاض أسعار العقارات في المناطق المهجّرة وارتفاعها اصطناعياً في المناطق «المهجّر إليها». والأمر مماثل للإيجارات والخلوات ، وكل أشكال المداخيل .

كما خسر المهجّرون عشرات الآف المساكن جزء منها دُمّر كلياً وجزء دُمّر جزئياً ، والكل حُرم أصحابها منها . ونعرض هنا ما أصاب مهجري الأقضية الجنوبية في جبل لبنان من خسائر على صعيد المساكن :

الجدول رقم ٦ :

عدد المساكن التي خسرها مهجري أقضية بعيداً وعالية والشوف حتى عام ١٩٨٣

القضاء	بعداً	عالية	الشوف	المجموع	المساكن	عدد
مهجّرو القضاء	أي ليرة لبنانية / ١,٠٢٥,٤٢٠,٠٠٠ /	٢٢٦ مليون دولار أمريكي عام ١٩٨٣	١٢٤٣٥	٩٩١٧	٢٦٩٤٧	مسكن قيمتهم

المصدر : تحقيق ميداني أجري عام ١٩٨٤ مع مهجري أقضية بعيداً وعالية والشوف .

١. ٧ : إنخفاض الطاقات الإنتاجية ومستوى الإنتاج في قطاع التربية

كذلك انخفض أداء القطاع التربوي بسبب انتقال وتشرد في المؤسسات وزيادة مراكزها دونما موازاة في الجهاز التعليمي (لقلة عودة أحياناً وصعوبة انتقاله أحياناً أخرى) وكذلك في العناصر الأخرى المطلوبة للعملية التعليمية كالمباني والتجهيزات : ونشير هناك إلى خسائر القرى المهجّرة في أقضية بعيداً وعالية والشوف حتى عام ١٩٨٣ :

الجدول رقم ٧ :

خسائر القرى المهجّرة في أقضية بعبدا وعالیه والشوف بالمؤسسات التربوية حتى عام ١٩٨٣

القضاء	المجموع	مدرسة رسمية	مدرسة خاصة	مدرسة مهنية	نوع المؤسسة
بعبدا	١٣	٢٥		١	٣٩
عالیه	٣٤	٣٩		٢	٧٥
الشوف	٢٨	٥٨		١	٨٧
المجموع	٧٥	١٢٢		٤	٢٠٧

المصدر: تحقيق ميداني أُجري عام ١٩٨٤ مع مهجري أقضية بعبدا وعالیه والشوف.

١. ٨: انخفاض الطاقات الإنتاجية والإنتاج في القطاع السكاني

والأمر مماثل بالنسبة للقطاع الصحي حيث أدى تهجير الأطباء والمستشفيات والمستوصفات إلى انخفاض مستوى الأداء والخدمات وزيادة سوء توزيعها. ونعرض هنا ما حصل من خسائر في التجهيز الصحي في القرى المهجّرة في أقضية بعبدا وعالیه والشوف:

الجدول رقم ٨ :

الخسائر في المؤسسات الصحية في القرى المهجّرة في أقضية بعبدا وعالیه والشوف حتى عام ١٩٨٣

القضاء	مستوصف	مستشفى	عيادة طبية	نوع المؤسسة
بعبدا	١٠	١	٥	
عالیه	٢٠	٤	١٤	
الشوف	٢٢	٤	٨	
المجموع	٥٢	٩	٢٧	

المصدر: تحقيق ميداني أُجري عام ١٩٨٤ مع مهجري أقضية بعبدا وعالیه والشوف.

الوضع مشابه بالنسبة للخدمات الأخرى كالخدمات الفنية والعلمية والنقل والمواصلات وقطاع البناء.

١.٩ : إنخفاض الدخل الوطني ومستوى المعيشة :

- إنخفاض الدخل :

خلاصة القول أن التهجير كان تعطيلًا لطاقات إنتاجية من خلال عزل قوى عاملة عن مراكز إنتاج أو تشغيلها في غير مجدها ومستوى كفایاتها مما ينقص من أدائها ، ويوسع عدد الوظائف غير المنتجة والتي خلقتها ضرورات تعدد فروع المؤسسات ، ويجعل العديد من الفروع تعمل دون طاقتها لضيق المنطقة التي تخدمها ويرفع من كلفتها ويخسرها وفوات الحجم . كما أن التهجير يدفع نحو أسواق ومناطق اقتصادية متعددة شبه متكاملة وشبه مكتفية ذاتيًّا في بلد كان يشكو من ضيق سوقه الداخلية عندما كانت موحدة .

- إنخفاض مستوى المعيشة :

لا شك أن بعض المناطق (أطراف بيروت وضواحيها على حساب وسطها ، مناطق استقبال المهجّرين بشكل عام) والفتات اللبناني استفادت لفترة من التهجير وحصلت على تحسن مؤقت لمستوى دخلها : وقد حصل ذلك من زيادة الطلب على السكن والخلافات التجارية والأرض والسلع والخدمات في المناطق التي أتى إليها المهجّرين ، وكذلك من خلال سلب ونهب واستثمار ممتلكات وأراضي ومباني ومنازل و محلات ومصانع ومزارع ومحمل المؤسسات التي كان يملكها أو يديرها مهجّرون ، كذلك من خلالأخذ أسواق المؤسسات التي كان يملكها المهجّرون .

لكن هذه المفاعيل كانت محدودة كنتائج عامة : لأن الأرضي والمؤسسات المسؤولة لا تستثمر بشكل مكثف وعقلاني بسبب الخوف من المخاطرة بتثمير المال بأملاك الغير . كذلك المساكن وغيرها . مما يؤدي إلى انخفاض الإنتاجية في هذه المؤسسات والانخفاض في الدخل العام رغم ارتفاع دخل المستثمر .

لذلك فخسارة الأسواق واليد العاملة وفرض العمل بسبب التهجير هي أسباب إضافية أخرى في تدني الدخل ومن ثم مستوى المعيشة .

المهجّرون الذين يشكلون حوالي ربع الشعب اللبناني ولدى اللبنانيين بشكل عام . ونتج عن ذلك كله ظاهرتين أساسيتين هي من سمات التخلف الأساسية :

- زيادة التبعية والاتكال على الخارج .

- تضييع العلاقات بين القطاعات الاقتصادية والمناطق وتراجع التكامل الاقتصادي الوطني. ستناولها بالتالي :

٢. التهجير وزيادة التبعية والاتكال على الخارج للحصول على الموارد الازمة للعيش

هذه ظاهرة أخرى من مظاهر التخلف.

نرج عن التهجير تحويل قسم من المهاجرين إلى أناس يعيشون من المساعدات الحكومية أو مساعدات الجمعيات الأهلية أو الأجنبية بسبب فقدانهم لموارد رزقهم. كما زادت تبعية لبنان الاقتصادي نحو الخارج بسبب النقص في الإنتاج الذي ساهم فيه التهجير إلى حد كبير، مما استوجب زيادة في الاستيراد لسد الحاجات. والنقص في الإنتاج من أسبابه فصل قسم من القوى العاملة عن وسائل الإنتاج بسبب التهجير وهجرة قسم من القوى العاملة المهاجرة إلى الخارج بحثاً عن عمل لها ولإعالة عائلتها المهاجرة على أرض الوطن والتي فقدت موارد رزقها. فأصبح الاقتصاد والمجتمع اللبناني أقل اكتفاءً ذاتياً وأكثر تبعية بالنسبة للخارج للحصول على الموارد الازمة لسد الحاجات ، أكانت هذه الموارد خاصة (تحويلات المغربين) أو عامة (مساعدات أهلية أو حكومية خارجية).

٣. تضييع العلاقات بين المناطق واضعاف التكامل الاقتصادي الوطني

وهذا التضييع هو من أهم سمات التخلف. فقد سبق لنا وذكرنا بشكل تفصيلي كيف أن التهجير تسبب بتعطيل طاقات إنتاجية واسعة في قطاعات ومناطق . كذلك فالتهجير عطل التواصل بين المناطق فخلق حواجز من الكراهية والخوف منعت التبادل وانتقال الأشخاص والسلع والخدمات بين المناطق : فأصبحت الكثير من الأسواق والمنشآت الاقتصادية أكثر ارتباطاً بخارج لبنان وأقل ارتباطاً بمنشآت وأسواق لبنانية مما كانت قبل التهجير. وتنوع لبنان بسبب التهجير إلى أن يصبح مجموعة من الكائنات الاقتصادية هي أكثر ارتباطاً بالخارج مما هي بين بعضها البعض. وحصل ذلك في العديد من المناطق والنشاطات والمؤسسات نذكر منها الحالات : النقل الجوي ، النفط ومشتقاته ، العديد من فروع الصناعة وبعض فروع الزراعة ، القوى العاملة ، التداول بالعملات غير اللبنانية .

بعد هذا العرض لارتباط التهجير بأهم سمات التخلف ، حان لنا أن ننتقل إلى الجانب الإيجابي لنختتم موضوعنا بمنظور إيجابي وطني فعلاً منطلقاً من مفهوم عقلاني للمصلحة العامة ولضرورات إعداد لبنان للقرن الحادي والعشرين .

القسم الثاني : العودة والإئماء

قبل أن أنتطرق إلى ارتباط الإئماء بالعودة علي أن اركز على كون التهجير جزءاً أساسياً من الحروب من أجل الآخرين التي فرضت على الأكثريّة الساحقة من اللبنانيين . فالتهجير هو جزء من نتائج هذه الحروب التي أعادت لبنان من موقع بلد كان يخرج تدريجياً من العالم الثالث إلى بلد منهوك القوى الكثيرة من طاقاته مهدّمة والبعض الآخر مشرّد في أصقاع الدنيا والبعض الآخر مشرّد على أرض وطنه :

فإعادة إئماء لبنان التي لا تفصل إلى إعادة إعماره تمر حتماً عبر عودة المهاجرين إلى بيوتهم ومواقع عيشهم السابقة . وذلك لعدة أسباب أهمها :

- سياسياً :

التهجير «قنبلة مؤقتة» تهدّد في أي وقت مسيرة السلام . ومسيرة السلام شرط ضروري ومبني على عودة ثقة اللبنانيين بموطنهم ودولتهم وهذه الثقة وحدها تعيد طاقات اللبنانيين البشرية والمالية إلى لبنان والتي بدونها لا إئماء ولا إعمار . وعودة المهاجرين هي مؤشر أساسى لنهاية الحروب على أرض لبنان .

- اقتصادياً :

لأن عودة المهاجرين إلى مناطقهم هي شرط لإئمائها من خلال إعمارها وإعادة تنشيط قطاعاتها الاقتصادية من زراعية وصناعية وخدماتية وغيرها . كما إن إعادة المهاجرين إلى مناطقهم تفترض إعمارها أو على الأقل إعادة تأهيلها لأن التجهيز ترافق غالباً مع التدمير الجزئي أو الكلي أو إهمال المساكن والبنية التحتية والخدمات العامة والمؤسسات الإنتاجية ، وذلك يجعل العودة ممكّنة .

هكذا فإذا كان الإنماء هو المعنى المعاصر للسلام على الصعيد العالمي فالأمر صحيح أيضاً على الصعيد الوطني : فلا إنماء بدون سلام ولا سلام حقيقي بدون إنماء حقيقي أي عادل ومتوازن .

والإنماء والسلام المتلازمان مرتبطان بالجواهر بخطيط عادل وعقلاني ومستقبلٍ لأهم آفة من آفات الحرب أي التهجير وذلك من خلال عودة كل مواطن لبنيٍّ إلَيْهِ بيتَه إلى حقه إلى كرامته .

٧. بطرس لبكي ، زبيبة الإنتصارات ... ، مرجع سابق .

قضية الحرب والتهجير في لبنان

من منظار مختلف*

الدكتور عبدالله إبراهيم

لقد قيل كل شيء تقريباً حول قضية التهجير وكتب كل شيء. فهل من مجال لقول إضافي بعد؟ ألا يتبع الطابع الأكاديمي للمؤتمر وهوية الجهة الداعية له واهتمامات المشاركين فيه أنفسهم الفرصة لصياغة بعض الأفكار التي لم تُطرح بعد؟ سوف نعتبر ، مع انعقاد المؤتمر ، ان تلك الفرصة قد سُنحت لنا ، وسوف تستغلها دون إبطاء عن طريق عرض المداخل المنهجية الضرورية التي تعبر عن منحى أو منطق مختلفٍ نتبناه وندعو لمارسته وتحويله إلى مواقف ذهنية وعاداتٍ فكرية ومبادئ أساسية ينطلق منها الباحث الاجتماعي في كل دراسةٍ تتعلق بالتهجير.

المدخل المنهجي الأول :

هل التهجير نتيجة من نتائج الحرب؟
للوهلة الأولى ، يبدو السؤال من البديهيات كما ينتهي الجواب عليه ، للوهلة الأولى أيضاً ، إلى البديهيات .
لنجاول طرح السؤال بصيغة أخرى : هل يوجد فارقٌ منهجيٌ ما بين اعتبار التهجير من نتائج الحرب أو اعتباره الحرب نفسها؟
يبدو هذا السؤال بدوره شكلياً إلى حد بعيد. فهل نحن في وارد اللعب بالألفاظ والكلمات أو طرح البديهيات؟

* ورقة قدمت إلى ندوة «الحرب والمجتمع» الذي نظمته الجمعية العربية لعلم الاجتماع المنعقد بين ٢٥ - ٢٢ كانون الثاني ١٩٩٢

لا بالتأكيد ، فالمُناسبة لا توحى بذلك ، والقضية في رأينا ، ليست شكلاً على الإطلاق . إنها تتعلق بمنهج الرؤية ومنطق الفهم وتترتب على اختيار أحد الإجابتين وجهة في البحث والتحليل تختلف أشد الاختلاف وتعارض إلى حد بعيد مع الوجهة الأخرى التي تستوحي الإجابة الثانية المتأحة .

وإذا كان النظر إلى التهجير كنتيجة من نتائج الحرب يسود داخل المؤتمرات وفي الأبحاث والدراسات فإن الازمة المراقبة له تسود بدورها وتمثل في اعتبار التهجير مشكلة اجتماعية مطروحة على الحل باللحاج شديد . ولكن ، هل التهجير مشكلة إجتماعية بالفعل ؟ نعود من جديد إلى ما يبدو انه سؤال بدئهي آخر يؤدي إلى إجابة تتسم للبداية ذاتها . لنحاول الدخول إلى الحقل المنهجي الذي يعتبر التهجير حرباً وليس نتيجة لحرب . ونبداً بالمحددات التي تفرض هذا الاعتبار :

١. التمييز في مصطلح الحرب بين الأحداث العسكرية التي تنتظم في سلسلة واحدة متكاملة وال الحرب كمرحلة تاريخية يتشكل المجتمع خلالها على أساس تغيرات بنائية تتجاوز حدود المورفولوجيا الاجتماعية لتطال مستويات الحياة المجتمعية كافة .
٢. التهجير وال الحرب قضية واحدة على الصعيد النظري . وما دامت الحرب مستمرة فالتهجير كذلك .

٣. لم تنته الحرب اللبنانية بعد كمرحلة تاريخية . ونحن عندما نقول ذلك نعني أن التغيرات البنائية الاجتماعية التي بدأت معها ما زالت تتجه الاتجاه نفسه ولم تصل بعد إلى ما يشكل نهاية مرحلة تاريخية وببداية مرحلة أخرى . وقد يكون انتهى أو توقف وجه من وجوهها على الأقل هو الوجه الأمني والعسكري ولكن الوجه الأخرى ما زالت حاضرة بقوة .

قد يستنكر البعض هذا الرأي فيقول : «انتهت حال الحرب وفتحت المناطق على بعضها البعض ، وانتشر الجيش وقامت حكومة وفاق وطني ولم يعد ثمة حائل دون قيام المهاجرين بتفقد أملاكهم وأرزاقهم ومساكنهم وهو ما لم يكن متيسراً من قبل ». ولكن هذا البعض لا يملك بعد ذلك سوى الإشارة إلى المظاهر الملحوظة لاستمرار التغيرات البنائية التي يرتبط وجودها بالحرب فيقول : «على رغم انتشار قوى الجيش وانتهاء الحرب وفتح المناطق على بعضها فقد فوجئ المهاجرون بمنعهم من زيارة منازلهم وحصادِ

أرضهم وَفَقَدَ أُملاكَهُمْ وَمِنْ اسْتِطاعَهُمْ ذَلِكَ تلقى تهديداتٍ أو نصائحَ بوجوب المغادرة».

ويذهب البعض نفسهُ أبعد من ذلك إلى القول : «نشأ حَالٌ من القلق والخوف على المصير لدى المهاجرينَ الذين لا يعرفونَ ماذا سيكونَ وضعُهم مستقبلاً وكيف تُحلُّ قضيتهم وهل يكونَ الحلُّ جزئياً أو بعيداً المدى».

ويضطرُّ هذا البعضُ نفسه في نهايةِ الأمر إلى الصراخ : «أنظروا كيف تم إزالةُ معالم الحياة في المناطق المهجورة بهدم المنازل وقطع الأشجار واستثمار الأرضي الزراعي وانظروا كيف تستبدلُ معالم الحياة السابقة للتغيير بمعالم حياةٍ بديلة».

٤. لن يتحول التغيير في أي وقت إلى مشكلة اجتماعية كتعاطي المخدرات أو الإسكان أو الغلاء أو التسول ... الخ. وهو قد يتحول مع انتهاء الحرب إلى واقعٍ مجتمعي ملموس يتضمنُ الحلول الإدارية والتلقينية الملائمة وتوافر الأموال الازمة لإعادة البناء ولكنَّه يكون قد انتهى بالتأكيد كقضية تحمل عنوانَ التغيير.

٥. عندما نشير إلى استمرار الحرب بمعنى استمرار التغيرات التي ترتبط وجهتها البنائية بها نكون لا ندري طبيعة السلام الذي بلا ريب ، كما نكون لا نعرف محتواه وتوازناته بعد . فما الداعي إلى الافتراض بأنه سوف يؤدي بالضرورة إلى حل قضية التغيير بالوجهة التي تم الدعوة إليها في الوقت الحاضر؟ ونُصبَّأ علينا في التاريخ اللبناني القديم والحديث تتعدد الأمثلة حول سوابق تغييرية محددة مع ما رَسَّتْ عليه من معطيات مورفولوجية اجتماعية؟

٦. لا معنى لكل الكلام السائد على أولوية حل قضية المهاجرين وعلى مساهمة هذا الحل في تأمين السلام . وما دامت الحرب مستمرة بأوجهٍ مختلفة فإن أي قرار بإنهاء التغيير سوف يأخذ هذا الاستمرار بعين الاعتبار . وما ينبغي انتظاره بالفعل هو قرار لا ندري كنهه ولا مصدره بعد يؤدي إلى قلب المسار وتغيير الاتجاه وليس قراراً على مستوى السلطة الرسمية بإنهاء التغيير ونستطيع التأكيد منذ الآن بأن كلَّ شيء سوف يحصل في اللحظة البنوية الإجتماعية ذاتها أي انتهاء الحرب وإنهاء التغيير .

ولأنَّ التغيير حربٌ وليس نتيجةً لحرب ، فالكلام حوله كلام حربي أو «حرجي» إذا صاح التعبير . وهو ينتقل بين طرفٍ يُلقي اللوم على آخر ويحمله تبعةً منع مهجرينَ معينينَ من العودة وطرفٍ يردُّ بضرورة العودة الشاملة لكلٍّ مهجر . وإذا كان استخدام التغيير ورقةً في الصراع السياسي القائم يقدم الدليلَ على صحة ما نقوله ، فإنَّ ما ينبغي التوقفُ مطولاً عنده

هو مساهمة الأبحاث والدراسات والاستقصاءات في هذا الاستخدام الدائر. ويتبدى ذلك بوجهين :

- فئة من الباحثين الأكادميين تخلط بين الممارسة السياسية اليومية والممارسة النظرية ذات المحتوى السياسي فتلبس اللباس الأكاديمي لتقول ما تقوله، أو ما ترغب قوله، في ممارستها السياسية اليومية. وهذه الفئة مدركة تماماً لدورها وخطابها.
- فئة أخرى تَطْمُس وجود الحرب عن طريق تحويل قضية التهجير إلى مشكلة اجتماعية. أنها تمارس شكلاً من الأشكال الإيديولوجية وتعمل على استمرار الحرب، إيديولوجياً، عبر خلق الوهم بوجود السلام.

المدخل المنهجي الثاني

نحن نعرف أن تحديد ظاهرة معينة يعني الكشف على قضاياها الخاصة بهدف رسم الحدود النظرية المميزة لها. ولهذا السبب ، يتطلب كل تعريفٍ صياغةً معينةً تشير إلى تلك القضايا .

وبتفحصنا للدراسات والأبحاث وأوراق العمل المتعددة نواجه تحديداً واحداً للتهجير يتكرر على الدوام : « التهجير هو المغادرة القسرية لجماعة بشرية معينةٍ لواقع عيشها إلى م الواقع آخر » أو « التهجير هو التزوح الداخلي القسري » .

لتحاول التفتيش في هذه الصياغة الشائعةِ عما يميّز التهجير كقضية نظرية مطروحة للدراسة :

١. نحن نجد فيها فكرة المغادرة أي مغادرة موقع العيش الأصلي. وهذا التعبير لا يختص بالتهجير لوحده ويمكن إدراجه في أي تعريف آخر للتزوح الداخلي التقليدي أو الهجرة إلى الخارج .

٢. نحن نجد فيها مفهوم « القسر » أي المغادرة القسرية . وهذا الوجه أيضاً قد يتخذ أشكالاً مجتمعية ملموسة تتفاوت بين التهديد بالعنف وممارسته والخوف منه والقسر الذي يرتبط بشروط موضوعية معينة تمتاز بقوة قاهرة تفرض نفسها على النازح التقليدي أو المهاجر التقليدي وترغمُهما على ترك موقع عيشها الأصلي .

٣. كما نجد فيها مفهوم الجماعة أي المغادرة القسرية الجماعية لا الفردية . وفي هذا الإطار يجري الحديث في العادة عن موجات التزوح والهجرة . ولا نظن أن عدد مغادري موقع

العيش الأصلي أو الفترة الزمنية الفاصلة بين مغادرة وأخرى هي التي تميز التهجير على الصعيد النظري.

في الحقيقة إذن ، يدفع بنا التحديدُ السائدُ للتهجير بعيداً عن قضيائِه الخاصة ويدخلنا في نطاقِ اللبس الشائع بين التهجير والهجرة والتزوح الداخلي .

ولسنا بحاجة للتفتيش طويلاً عما يميز التهجير كمفهومٍ وموضوعٍ قضية . إنها الحرب كمرحلة تاريخية . وبهذا المعنى نقول إن التهجير هو الحرب وليس نتيجتها . وبهذا المعنى أيضاً نعتبر التهجير حرباً . ولعلّ أفضلَ صياغةٍ بديلةٍ ممكنة لعنوان ورقة تأخذ على عاتقها مهمة دراسة التهجير هي « تهجيرُ الحربِ أو حربُ التهجير ». وفي هذه الصياغة يمكن وجْه بارز من أوجه الحرب اللبنانيَّة .

المدخل المنهجي الثالث

يمضي الإنسان العادي كلَّ لحظةٍ من لحظاتِ الحرب في مقارنةٍ تفصيلية مستمرة مع نموذجِ السلمِ الحاضر في ذهنه على الدوام . ولا يهم إذا كان هذا النموذجُ متطابقاً مع ما كان سائداً عشيةِ الحربِ أو مع أي نموذجٍ سلمي آخر يقوم الفردُ باختراقه ، فالأكثرُ أهميةً هو وظيفةُ هذه المقارنة التي تحملُ المعايضةَ النفسيَّةَ اليومية للحرب ممكناً عن طريق حجب قساوتها ووحشيتها عن الوعيِّ المباشرِ وذلك بواسطة حجبِ واقعِ الحرب نفسه عن الوعي المباشر .

وهكذا تصبحُ الحرب ظرفاً استثنائياً سوف يتنهى غداً أو بعد غد ويصبحُ نموذجُ السلم هو البنية .

وإذا كان حجب الواقع في حياة الحرب اليومية واحتاجاته يشكل نمطَ التكيفِ الأكثر شيوعاً في ملموسِ العيشِ الاجتماعي فإنَّ تسلُّلَ هذا النوع من المقارنة إلى الأبحاثِ والدراساتِ وأوراقِ العمل يؤدي إلى عدم دراسة واقعِ الحرب . أما سبب ذلك فهو الاستدلال القائم على نسخِ نموذجِ السلام ، والاكتفاء بقياسِ قربِ أوضاعِ الحرب أو بعدها عنه .

وإذا كانت المقارنة خطوةً منهجيةً تُغيِّر الفكر فإنها في أحيان كثيرة تبرز عقبةً أمام المعرفة وذلك عندما يسودُ الخلطُ وعدمِ وعيِّ الفارق النظري بين تشابهِ واختلافِ السمات الظاهرة في الملموس والمقارنة كعملية معرفيةٍ واحية . وفي أساس المقارنة بناءً نظريًّا يسمح بالعمل على

أشكال اجتماعية مختلفة . وهذا النطُّ من التفكير هو الذي يضفي صفةَ الخصوصية العلمية على إقامة المقارنة بين المجتمعات أو المراحل التاريخية المختلفة أو بين أنظمةٍ متفرعةٍ ضمن المجتمع الواحد .

كيف يعكس نسخُ نموذج السلم في واقع دراسة قضية التهجير ؟
يتم إهمال حقيقة ان لا عودة ، على مستوى التغيرات البنوية ، إلى السلم السابق . وإذا حصلت تلك العودة فإنها سوف تترافق مع كل التحولات زمن الحرب ومن الأكيد ان بنية السلم الآتي بلا ريب سوف تكون مختلفة عنها عشية الحرب .
إن الأبحاث والدراسات وأوراق العمل كافة تفترض أن السلم الجديد سوف يؤدي إلى عودة كل المهجّرين . فما الذي يدعوها إلى افتراض ذلك سوى ما تقوم به من قياس استدلالي ؟

وإذا كانت المعالم النهائية للسلم الجديد لم تتضح بعد فإن ما تتاح دراسته هو التغيرات التي تحصل في أماكن التهجير الأصلية وما يجري فيها بالإضافة إلى المدى الذي يذهب إليه الخراط المهجّرين في موقع عيشهم الجديد .

ولعلّ في هذا النوع من الدراسات نجد الجواب على السؤال المتعلق بالوجه المورفولوجي الاجتماعي لما سوف يرسو التهجير عليه . وما دام هذا النوع من الأبحاث غير موجود وغير شائع فإن كل إجابة تبقى في دائرة الإفتراضات .

وفي الوقت نفسه الذي تحصل فيه على الأرض تغييراتُ الحرب البنوية تبقى الدراسات وأوراقُ العمل تخلق في الفضاء وتعيشُ أحلامَ السلامِ الواحدِ تلو الآخر دون أن تصحو أبداً .

المدخل المنهجي الرابع

نحن نعلمُ الصلاتِ والروابطِ الوثيقةَ بين منطقِ أيِّ بحثٍ في رؤيةِ الأمور ونوع المشكلات والقضايا التي يتناولُها ونمطِ المعطيات التي يقوم بتجمعها وطريقة تجميل المعطيات ووجهة تحليلِ النتائج وتفسيرِها . وهذه الصلاتُ والروابطُ تُتيجُ محطاتَ البحثِ الاجتماعي المنهجية وتقنياته . وعلى هذا الأساس نطرحُ السؤالَ حول نموذجِ البحث التجاري الملائم لمداخلنا المنهجية السابقة .

لقد حددنا منطقاً رؤيتنا لقضية التهجير على أنها حرب وليس نتيجةً لحرب ، كما دعونا إلى تجنب النسخ على نموذج السلام بمعنى ضرورة دراسة التغيرات البنوية الحاصلة زمن الحرب . فما هي طبيعة البحث الميداني المنسجم مع هذا المنطق؟ وما هي مراحله ومحطاته وتقنياته؟ وهل ينوجد هذا النمط في واقع البحث اللبناني الملموس لقضية التهجير؟

من الملاحظ وجود نمطين لا ثالث لها :

- (١) مسوحاتٌ مجهريةٌ أو شاملةٌ أو أبحاثٌ توثيقيةٌ تقوم بجمع المعلومات الإحصائية من مصادرها المختلفة حول حجم التهجير وتوزيعه الجغرافي ومتابعه موجاته زمنياً.
- (٢) دراساتٌ استقصائيةٌ ميدانية تعتمد منهجية العينة وتستهدف المهاجرين بغية الإجابة على عدٍد من الأسئلة الجوهرية ، لتصل بعد ذلك إلى الإحاطة بالميزات الديمografية والإجتماعية والاقتصادية للمهاجرين وكيفية إدراكهم لحياتهم في بيئتهم الأصلية وببيئتهم خلال التهجير.

ما هي حدود الفهم التي تصل إليها هذه الأبحاث؟ في الحقيقة ، إن حدودها مرسومة في الأصل وهي التي حرضتها على القيام بهذا النوع من الدراسة الميدانية . إنه الفهم الذي ينظر إلى التهجير ويعامله كأي مشكلة اجتماعية أخرى .

وفي المقابل ، نحن نقترن النموذج التجريبي التالي :

- أولاًً : اختيار منطقة معينة عرفت التهجير أو اختيار مجموعات مهجرة محددة .
- ثانياً : المتابعة الميدانية الدقيقة لمسار التهجير وشروطه منذ لحظته الأولى وحتى الاستقرار في موقع العيش الجديد .

إن المطلوب هنا هو سيرة التهجير الذاتية المنتجة على قاعدة سير التهجير الذاتية .

ثالثاً : دراسة ميدانية معمقة لما حصل وحصل في منطقة التهجير الأصلية . من سكن فيها؟ ما هي التحولات في المنطقة بعد التهجير؟ هل تغيرت طبيعة انحرافها في مجالها الاجتماعي المحلي الأوسع؟ بأي معنى وبأي محتوى؟

رابعاً : دراسة ميدانية معمقة للمنطقة التي سكن فيها المهاجرون . ولماذا سكنتوا فيها بالذات؟ والإحاطة بوضعها الجديد وتحولاتها وشبكة علاقاتها الاجتماعية الجديدة ومدى انحراف المهاجرين ضممتها .

بواسطة هذا النموذج يمكن الإجابة على الأسئلة المطروحة في الصفحات السابقة . وفي هذه الحالة لا نكون نقىس على نموذج السلم المحدد سلفاً ونكون لا نعتبر التهجير مشكلة

اجتماعيةً كغيرها أو نتيجةً لحرب. وضمن هذا المسار فقط يُعتبر التعرف على أوضاع المهجّرين وميزاتهم الديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية وآرائهم بها جزءاً لا يتجزأ من دراسة قضية التهجير.

إنها دعوةٌ منهجيةٌ لدراسة قضية لم تزل ما تستحقه من دراسة بعد. وعلى جميع الأحوال تبقى بعض الأسئلة معلقةً حتى إشعار آخر : من يدرس؟ من هو المؤهل لدراسة من هذا النوع؟ من له مصلحة بدراسة من هذا النوع؟ من يسمح بدراسة من هذا النوع؟ من يسمح له بدراسة من هذا النوع؟ من يطلب دراسة من هذا النوع؟ من هم الباحثون الذين يعيشون الحرب وبإمكانهم ، في الوقت عينه ، الحفاظ على ما نسميه البعد الاجتماعيُّ الذي يفترض وجوده بينهم وبين الظاهرة المدرستة؟

كلها أسئلة ولا إجابات محددة عليها حتى اللحظة الراهنة.

نختم أخيراً بالقول : ما يفصل بين وجهة نظر وأخرى هو خيط من الفهم دقيق جداً يسهل اجتيازه إلى حدٍ كبير كما يصعب اجتيازه إلى حد أكبر. وشكراً لكم على إصغائكم.

نشاطات أكاديمية

بين نهاية ١٩٩١ ومطلع ١٩٩٢ ، شهد معهد العلوم الاجتماعية عدداً من الندوات والاحتفالات الأكاديمية ، في هذا العدد وتوثيقاً لبعض هذه الأنشطة الأكاديمية نقدم نصيin :

- الأول ، احتفالي ، وهو نص الكلمة التي ألقيت في الاحتفال التكريبي الذي أُقيم بمناسبة صدور العدد الأول من «العلوم الاجتماعية - بيروت» .
- والثاني ، أكاديمي ، وهو نص مداخلة فضل ضاهر في بدء نقاش أطروحة الدكتوراه التي تقدّم بها في معهد العلوم الاجتماعية ، اليوم الأول بتاريخ ١٠/١٢/١٩٩١ .

المشكلات الإجتماعية للأسرة

«دراسة ميدانية حول أوضاع الشباب» *

أسعد الأنات

«إن الوظيفة الأساسية لأي بناء اجتماعي هي إرساء نظم تخدم حاجات الإنسان ، وتحقق له هذا الشعور بالعزّة والكرامة ... أما البناء الذي يدفع أفراده إلى حلول يائسة فهو بناء لا يستحق البقاء ولا بدّ أن يختفي ويُستبدل بغيره». *

فراونت فانون *

مدخل عام

لا ندرى فيما إذا البناء الإجتماعي القديم في الجمهورية الأولى قد تحطم واننا على مشارف قيام بناء جديـد ، يهدف إلى تحقيق عزة الإنسان وصون كرامته؟ وربما هذا الجديد الذي نحلم به في ظل الجمهورية الثانية تبيـن ملامحـه من كيفية تعاطـي المسؤولـين ومقاربـتهم «للمشكلـات الإجتماعية» التي نرـزح تحت كواهـلـها؟

لقد آلت مفاعيل الحرب الأهلية خلال عقد ونصف من الزمن إلى خلخلة الوضع الإجتماعي في لبنان وإلى مراكمة تشوـهـات متعدـدة في بيـنـته الإجتماعية. وإذا قدر بعض الخبراء الاقتصاديين التكـلفـة الاقتصادية للصراع العسكري بـ ٨ مليارات دولار أمريكي فإن كلفتها الإجتماعية باهـظـة المـنـ وـأـبـعـدـ أـثـرـاـ على تـطـورـه المستـقـبـليـ. وإذا كان الاهتمام الأسـاسـيـ للمـسـؤـولـينـ حـالـياـ يتـجـهـ نحوـ إـعادـةـ الـإـعـمـارـ عـلـىـ مـسـتـوـيـ الـبـنـاءـ التـحـتـيـ، وهذاـ لـهـ مـبرـراتـ الـحـيـاتـيـةـ والـوـاقـعـيـةـ، فإـنـ استـمرـارـ اختـلالـ الـوـضـعـ الإـجـتمـاعـيـ وـتـشـويـهـ عـنـاصـرـهـ قدـ يـعرـقلـانـ هـذـاـ التـوـجـهـ وـيـخـدـانـ مـنـ إـمـكـانـيـةـ الـاستـفـادةـ مـنـهـ.

* دراسة قدمت في مؤتمر إنماء لبنان الاجتماعي ١٥-١٦ تشرين الثاني ١٩٩١ ، نظمها مركز الدراسات والتوثيق والنشر ، المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى ، بيروت .

* طبيب من جزيرة المارتيل الواقعـة تحت الحكم الفرنسي إبان الثورة الجزائرـية ، يحمل الجنسـيـة الفـرنـسيـة . عـيـنتهـ السـلـطـاتـ الفـرنـسيـةـ طـبـيـاـ في مستـشـفىـ مـدـيـنـةـ بـلـيـدـةـ بـالـجزـائـرـ. انـضمـ إلىـ صفـوفـ الثـورـةـ الـجزـائـرـيةـ إـلـىـ أـنـ اـسـتـشـهـدـ فيـ كـانـونـ الـأـوـلـ ١٩٦١ـ.

ان «المشاكل الاجتماعية** التي تعاني منها اليوم كثيرة ومتعددة. وإذا كانت الحرب قد أفرزت البعض منها فانها فاقت من أزمة بعضها الآخر السابق وجودها على اندلاعها. ومثلاً طمست هذه الحرب معالم المشكلة الاقتصادية البنوية^١ فإنها تطمس الخلل الفعلي في بناء لبنان الاجتماعي القادر على تعميق أزماته الاجتماعية وعلى إعادة إنتاجها باستمرار. ونميل للقول بأن هذه «المشاكل» شكلت الأجواء والمناخات الرئيسية في تفجير أتون الصراع السياسي والعسكري.

ولعل الطائفية تشكل أبرز مشكلة بنوية في تركيب لبنان الاجتماعي وهي الأساس لاختلالات متعددة و مختلفة : سياسية واقتصادية واجتماعية ... الخ. وهي تحمل في طياتها مضمون طبقية واجتماعية تفاقم من حدة التناقضات بين أبناء البلد الواحد وتنبع إمكانية تكون مجتمع لبناني بمعناه الموحد اجتماعياً مثلما هي الحال في أغلب البلدان العربية ، إن لم يكن حال جميع العرب في كافة بلدانهم^٢. وهذه المشكلة الأساسية تفاقم من أوضاع المشاكل الأخرى وتعيق من إمكانيات وضع الحلول الملائمة لها. ويمكن أن يضع الباحث لائحة بعشرات المشاكل الاجتماعية التي تعاني منها تبدأ بالمشاكل العامة لتتدرج إلى المشاكل الفرعية في المناطق والأحياء والجماعات السكانية الفرعية مثل الطلاب والشباب والمسنين والمتيدين والعاطلين عن العمل ... الخ.

أما أبرز «المشكلات» التي أفرزتها الحرب فيمكن التذكير بالتهجير الذي طاول حوالي ٢٢٪ من السكان اللبنانيين المقيمين في لبنان^٣ وإلى الهجرة الخارجية التي فاق حجمها النصف مليون مواطن حتى بداية عام ١٩٩١ ، أي ما يوازي ١٧٪ من مجموع سكانه^٤ إلى تدني مستوى التعليم ، حيث جاء ترتيب البكالوريا اللبنانية - القسم الثاني في الدرجة ٩٣ على لائحة الأونيسكو ، المعدة لترتيب دول العالم حسب مستوى هذه الشهادة عام ١٩٨٨ ،

** إننا نحتفظ باستعمال هذا المفهوم ، لأنه لا يعبر عنحقيقة الأوضاع التي تعاني منها.

١. الدكتور الياس سايرا ، في المسألة الاقتصادية (١) «حزب الحرب وحزب السلام» ، جريدة السفير اللبنانية ، تاريخ ١٩٩٠/٩/٥ .

٢. د. حليم بركات ، المجتمع العربي المعاصر ، ومؤشرات مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٥ ، ص ١١٢ .
٣. دراسة لم تنشر نتائجها وهي حول التهجير القسري في لبنان ، معهد الدراسات والعلوم الاجتماعية التطبيقية ، الجامعة اليسوعية ، بيروت ١٩٨٧ .

٤. دراسة قلنا بها حول التهجير والهجرة في لبنان سيصدر قسم منها في كتاب حول لبنان اليوم ، يعده مركز دراسات الشرق الأوسط المعاصر ، بالإشتراك مع المركز الوطني للأبحاث العلمية في فرنسا .

في حين أن الرقم ٩٥ كان الأخير فيها^٥. أما السكن فأزنته مستشرية وتشكل معضلة إجتماعية ، بخاصة في بيروت وضواحيها ، حيث أن إجرة سكن مؤلف من ثلاث غرف ومتفعاتها ، أي على مساحة لا تزيد عن ٧٥ متراً مربعاً ، تفوق الـ ١٨٠ ألف ليرة لبنانية في أحد الأحياء الشعبية الفقيرة في ضاحية بيروت الجنوبية مثل الأوزاعي أو حي السلم أو الرمل العالى في برج البراجنة . أي إن أجراً مسكن متواضع من حيث مواصفات البناء والتجهيز والمساحة تبلغ حوالى ٢٤٠٪ من الحد الأدنى للأجور حالياً . أما أزمة الأقساط المدرسية ، في المدارس الخاصة ، فبلغت حدّاً جعلت الهيئات الرسمية والسياسية والنوابية وحتى الدينية منها تضغط بكل ثقلها للجم حدتها . وتوجّت هذه الأزمات بمجزرة الإمتحانات الرسمية ، فعوضاً من أن تلجاً وزارة التربية إلى إعلان حالة استنفار تربوي ، تعوّض فيه على الطلاب ما منعهم الحرب من تحصيله ، عمدت لإجراء الإمتحانات وفق مقاييس ومعايير سابقة على الحرب وعلى إفرازاتها ، وحمّلت الطلاب ، بخاصة الفقراء ومتوسطي الحال منهم ، وزر الحرب ونتائجها ، وهذا فيما لو سلّمنا جدلاً بصحبة المناهج والبرامج التعليمية المعتمدة وبأن الرواتب التي يتلقاها المعلمون تسمح لهم بإعادة إنتاج وتحديد قوة عملهم الذهنية والفكرية والتعليمية؟

ويعبّي المجتمع اللبناني من «مشاكل» أخرى مثل ارتفاع معدلات التيم وانتشار آفة الإدمان على المخدرات وتوسيع الاتجار بها من خلال إضفاء قيمة مجتمعية عليها تقوم على توسيع مقوله الحصول على الثروة بهذه الطريقة بأنها «شطارة». وهذه لا تنتهي نتائجها بالأشخاص المعينين فيها فقط وإنما تمتدّ للأوساط الاجتماعية التي يعيشون وسطها هؤلاء . فالمدمونون على المخدرات من الشباب يمكن أن ينقلوا عدواً تعاطيها إلى أترابهم من جماعة رفقائهم الآخرين من الجيران والأقرباء . إذ تبين أن ٢٩٪ من الشباب في لبنان يرون أن معياري علاقات القرابة والجوار السككي يشكلان الإطار الأفضل لاختيار الرفاق والأصدقاء . وان مدى الاختلاط والمعاشرة في هذين الوسطين قوية جداً إذا ما قيست بمثيلاتها في المدرسة والجامعة أو في مكان العمل ، مما يساعد على إمكانية التأثير المتبادل بين جماعة الرفقة الشبابية بسهولة أكبر .

٥. نتيجة اطلاعى على تقرير حول التعليم في لبنان في مركز منظمة الأونيسكو في باريس أثناء قيامي بمهمة تقييم مشروع تربوي في المغرب خلال شهر اذار ١٩٨٩ .

ولا تتحصر مخاطر هذه المشكلات في حقلها الخاص بها فقط وإنما أيضاً بما يمكن أن تنتجه من مشاكل أخرى وعلى مستويات متعددة اجتماعية ونفسية وسياسية وفكرية ... الخ. وهي تشبه بذلك ، والى حد ما ، التخلف في البلدان النامية الذي يعاود إنتاج نفسه من جديد بأطر وأشكال مختلفة.

هذا ، ويشكل الشباب بعمر ١٥ - ٢٤ سنة مرحلة عمرية في حياة الإنسان ، الأكثر عرضة لحمل أعباء أوزار تلك المشكلات والتشوهات الاجتماعية . ففي هذه المرحلة من دورة الحياة ، يكون الشباب مواقفهم الاجتماعية والسياسية الأساسية التي قد تحكم سلوكهم في الحياة طوال العمر ، إذ إن نوع هذه المواقف المتكونة تعتمد جزئياً على تجاربهم الاجتماعية وعلى ظروف المجتمع أثناء انتقالهم من فترة المراهقة إلى سن الرشد^٦.

وتكتسب « مشاكل » الشباب في بلادنا أهمية كبيرة وأكثر إلحاحاً عن مثيلاتها في البلدان الأخرى ، ليس بما سيورثونه لأحفادهم من قيم في الحياة فحسب ، باعتبارهم آباء وأمهات الغد ، وإنما بما يخلقونه من أوضاع إجتماعية مضطربة وبما يحملونه من تشوهات وموروثات قد تعرقل المساعي الناشطة لإعادة الإعمار الاجتماعي المفترض أن يقوم جزئياً عليهم و لهم. لذلك ، حضرنا اهتماماً في هذه الدراسة بمعالجة بعض من قضايا هذا القطاع السكاني ، حيث توفرت لدينا نتائج دراسة ميدانية تقوم بها حول « أوضاع الشباب ومواقفهم في لبنان » على عينة ممثلة من الشباب بعمر ١٥ - ٢٤ سنة^٧.

تختزل وتختزن في الآن نفسه معاناة الأسرة ، بحيث أن الشباب فيها هم الأكثر حيوية والأكبر نشاطاً وعنوان مستقبلها . ويرى الأهل فيهم الأمل في تحقيق طموحات وأهداف عجزوا هم عن تحقيقها أيام شبابهم .

هدف الدراسة

في هذه الدراسة نهدف إلى تحليل جوانب من أوضاع الشباب اللبناني ، هي الجوانب المتعلقة بدراسة الشباب للذوات وليس بعلاقتهم ، أي دراسة المواقف والتطلعات والقيم

٦. ريتشارد ومارجريت براونجارت ، « مشكلات الشباب والسياسة في الثمانينيات . بعض المقارنات الدولية » ، الثقافة العالمية ، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت ، العدد ٣٨ ، الكويت ١٩٨٨ ، ص ٧٠.

٧. تقوم بهذه الدراسة بالاشتراك مع الدكتور يعقوب قبانجي بتكليف من جمعية تنظيم الأسرة في لبنان التي تشكر موافقتها على استخدام هذه النتائج في هذا المؤشر قبل صدور الدراسة .

السائدة بين صفوفهم ، وهي جوانب أهملتها الدراسات السابقة حول الموضوع نفسه . بحيث نرى أن دراسة هذا المستوى بين الشباب يمكن أن يصف مظهراً من المظاهر الأساسية لمقاييس الحرب الأهلية على المجتمع اللبناني .

وعليه ، فإن الفروض الأساسية تقوم على ثلاثة محاور أساسية هي :

١. تراجع دور الشباب التعبيري بمختلف شرائحهم على مستوى المجتمع الكلي لصالح الانكفاء نحو أطر اجتماعية ، وذلك تحت تأثير ثقافة الحرب ومؤسساتها وفي ظل احتلال دورة الإنتاج الاقتصادية وتراجعها لمصلحة سوق الاقتصاد الموازي التي سبقت الإشارة إليه .
٢. أدى تهميش المجتمع المدني ومؤسساته إلى تقييم قيمه وإلى استعادة الأطر القرابية والجهوية والطائفية ، أي الولايات العمودية ، دورها في احتضان الشبيبة وإعادة شحذ تمسكهم بقيم اجتماعية .
٣. ان رغبة الشبيبة بالهجرة مظهر من مظاهر تحفيز الميول الكامنة لدى الشبيبة للهروب من الوضع القائم ، وإنها تشكل بداية وعي مجتمعي «سلبي» يسقط الولايات العمودية ولا يرى أفقاً للبلورة ولاءات أفقية .

المصادر البيانية

إن البيانات أو النتائج الواردة في هذه الدراسة توفرت من مسح بالعينة ، ممثلة بمجتمع الشباب في لبنان بالمدلول الإحصائي ، قامت بتنفيذها جمعية تنظيم الأسرة في لبنان بإشراف الباحث والدكتور يعقوب قبانيجي . لقد احتوت العينة على ١١٨٥ شاباً وشابة توزّعوا على مختلف المناطق اللبنانية وحسب أربع متغيرات أساسية أخرى وهي العمر والجنس والمستوى التعليمي والمهني . وتم تنفيذ هذا المسح في الرابع الأخير من عام ١٩٩٠ .

الشباب قضية مجتمعية

يشكل موضوع الشباب قضية أساسية يعمل المسؤولون في أغلب المجتمعات ، بخاصة المتقدمة منها صناعياً ، على إيلائهم الاهتمام والعناية المتزايدتين باعتبارهم يشكلون الجيل الذي يتوقف عليه مسار تطور المجتمع مستقبلاً .

والشباب مفهوم تتنوع تحدياته حسب تعدد ميادين المعرفة التي تتناولهم بالدراسة والتحليل. ييد أن التحديد الديموغرافي يبدو الأكثر استخداماً وتقاطعاً مع بقية تحديات الاختصاصات العلمية الأخرى. وانهم عبارة عن مرحلة من مراحل عمر الفرد ، يدخل في أمر تحديدها الزمني خصائص متعددة مثل : التحولات الفيزيولوجية أو النفسية والإعداد المهني والتعليمي . يرتبط بروزها واكتامها أو تجاوزها بتلك المرحلة نفسها.

هذا ، ولا يوجد معيار عملي ثابت وموحد يحدد مرحلة الشباب . فهذه المرحلة تتطلّع وتقتصر حسب مقتضيات البحث أو حدود الحقل المنوي دراسته ، مما يفسح في المجال لاجتهدات مختلفة حولها . فعمر الشباب يبدأ حسب بعض الدراسات من سن ١٣ سنة ويمتد في بعضها الآخر حتى سن ١٨ سنة . أما إنتهاء هذه المرحلة فقد يكون بسن ٢٥ عاماً وبعض الدراسات تمدّها حتى سن ٣٠ عاماً^٨ أما نحن فقد اثروا اعتقاد العمر ١٥ - ٢٤ سنة كمرحلة عمرية تسمى مرحلة الشباب لأنها تتضمن معايير اجتماعية :

١. معيار ديموغرافي : يشكل العمر ١٥ سنة حدّاً لنهاية ما يصطلح على تسميته بمرحلة الطفولة لتبدأ من ثم مرحلة الشباب بفترة المراهقة وتمتد إلى سن ٢٤ عاماً حيث تكتمل السمات النهائية لتكون الشاب فيزيولوجياً واجتماعياً .

٢. معيار مهني وتعليمي : حيث يشكّل العمر ١٥ سنة فترة انتهاء مرحلة التعليم المتوسط وببداية مرحلة التعليم الثانوي . ويمثل العمر ٢٤ سنة فترة انتهاء التعليم الجامعي العام أو المهني ودخول الشباب أسواق العمل وفي دورة الحياة المنتجة .

هذا على صعيد تحديد فئات الشباب . أما على صعيد معالجة قضيائهم ، فميل أغلب الكتابات الإجتماعية حولهم لتحصر المشكلة الأساسية بمسألة التوازن بالعلاقات بين الراشدين والشباب^٩ المحكومة بالأحكام الطاحنة إلى التجانس والانسجام على مستوى علاقتهم بالمجتمع

* ٨. على سبيل المثال حدّد الشباب على أنهم الأشخاص الذين تراوح أعمارهم ما بين :

* ١٨ - ٢٤ سنة في دراسة : ريتشارد ومارجريت براونجارت ، *مشكلات...* ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٢

* ١٣ - ٣٠ سنة في دراسة : د. ليلى داود ، « منطلقات بحث قضيّاً الشّباب في الوطن العربي » ، مجلة الفكر

العربي ، عدد ٤٧ ، بيروت ١٩٨٧ ، ص ١٤٤ .

* ١٦ - ٣٠ سنة في دراسة : د. زهير الخطيب ، « انحرافات الشباب في مجتمع الحرب في لبنان » ، مجلة الفكر

العربي ، عدد ٤٧ ، بيروت ١٩٨٧ ، ص ٩٤٠ .

٩. د. زهير الخطيب ود. عباس مكي ، *مأزم الشباب العلاقي* ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ؛ وغسان يعقوب ، *أزمة المراهقة والشباب* ، منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٨ .

وبالراشدين ، وبالتالي تقديم التأزم والتعارض المميزان لهذه العلاقات كلحظات مفتعلة وعارضة في مطلق الأحوال ، إذ إنها تنشأ على الأرجح عن نزق الشباب ورعونته . في حين يرى بعض الباحثين الآخرين أن الشباب يشكلون فئة مميزة لها خصوصية فرعية واجتماعية^{١٠} .

وهكذا ، تعمد المقاربة المعتمدة على مشكلية التوازن إلى تأكيد اختلاف الشباب وتمايزهم عن المحيط الاجتماعي الذي يشكلون أحد جموعاته . وبالمقدار الذي يكون فيه هذا المحيط مت fremm ما يساعدهم على اجتياز هذه المرحلة الانتقالية في عمر الإنسان « دون أن ترك أثراً كبيراً أو تثير صراعاً حاداً بينهما »^{١١} . أما إذا واجه هذا المحيط الشباب وحاول إخضاعهم لمنطق قيمه ومثله ونظمه ، فإنهم يتظرون الفرصة المناسبة لإعلان رفضهم ، وبأشكال مختلفة ومتنوعة ، للقيم التي أكروها على تمثيلها . وبالتالي ، يختلس التوازن الاجتماعي بين الفئات العمرية مما يستدعي التفتيش عن أطر جديدة أو وسائل تمكن من إعادة التوازن المفقود يضبط علاقة هؤلاء الشباب بمجتمع الراشدين . وينشأ ذلك كله نتيجة عاملين مختلفين ، إما بسبب نزق الشباب وطبيته وإما نتيجة عدم تفهم الكبار لكيفية التعامل والتعاطي معهم . إن مقاربتنا للموضوع لا تقوم على أساس نفي مقوله الانسجام والتجانس بين الشباب ونظائرهم من الراشدين ، وهو المعتمدان في مشكلات التكيف والتوازن ، بل للتأكد بأن ذلك ما هو إلا نتيجة لأوضاع اجتماعية تاريخية محددة وليس سبباً لنشوء الظاهرة . فالإنسان في هذه الفئة العمرية ، فئة الشباب ، يتمتع بدون شك بمواصفات وبخصائص مميزة عن مثيلاتها في الفئات العمرية الأخرى ، ولكن المحددات الاجتماعية – الاقتصادية والسياسية تحكم مسار التطور الاجتماعي بعمده ، وهي تشکل الأساس لنمط العلاقات المحتمل نشوئها بين الأجيال المختلفة .

ييد أن ذلك ، يجب ألا يغيب دور العوامل الذاتية والأسرية التي يمكن أن تلعب دوراً وسيطاً قد يسهل أو يعيق فعل العوامل البنائية السابقة ويؤثر على بلورة الأهداف لدى الشباب وعلى تحقيقها ، كما وأنه في ظروف محددة يمكن أن يتقل إلى مرتبة التغير الحدد والمؤثر عليهم . وهكذا ، فإن الشباب يشكلون حالة مجتمعية ، أو جزءاً منها على الأقل ، تتمكن

١٠. د. أحمد بعلبكي ، « إطار نظري لطرح المسألة الشبابية » ، مجلة الفكر العربي ، عدد ٤٧ ، بيروت ١٩٨٧ .

١١. د. زهير الخطيب ، « انحراف الشباب في المجتمع الحرب في لبنان » ، مجلة الفكر العربي ، يصدرها معهد الإنماء العربي ، عدد ٤٧ ، بيروت ١٩٨٧ ، ص ٩٠ .

قضيتهم الأساس في اندراجهم والخراطهم في المجتمع الذي يتحكم بمعايير قيمه جيل الراشدين المنصبين أنفسهم أوصياء على الأصغر منهم سناً.

وبالرغم من ذلك كله ، فإن التركيب العمري للسكان يتمتع بأهمية على صعيد الاختلاف والتباين بين أفراد المجتمع الواحد . فالنشاط السكاني ، الجسدي والذهني ، على علاقة وثيقة بالعمر ، إذ إن المعرف الجديدة ، المتسنة بالتنوع وسرعة التغير في عصر الاتمته ، وكذلك تعلم أساليب الإنتاج المستخدمة تستوعب بسهولة أكبر من قبل الشباب .

شباب موحد في طريقه إلى الانقسام

أواخر السبعينيات وخلال النصف الأول من عقد السبعينيات برزت حساسية الشباب في لبنان إزاء القضايا الاجتماعية بأوضح صورها خاصة تلك التي تهدد حياتهم ومستقبلهم . فعرفت الحركات الشبابية توسيعاً ملحوظاً على المستويين الرأسي والأفقي ، فازدادت أعدادها وتسع حجم كل منها على أساس اجتماعية من مهنية وتعليم وترفيه . وقد تجلى ذلك بخاصة بحركات الإضرابات الطلابية في الثانويات وفي الجامعات . وحقق الطلاب الكثير من المطالب التي رفعوها ، بحيث أدت إلى رفع مستوى التعليم وإلى تحسين ظروف تلقّي العلم نسبياً (منح تخصص في الخارج ، مختبرات ...) وكذلك عممت إلى حدٍ ما ديمقراطية^{١٢} . كذلك ، استطاع الاتحاد العامي العام ، مستنداً بشكل أساسياً على قاعدة شبابية وبدعم منها ، لتحسين ظروف العمل وشروطه ولا تنزع مكافآت خدماتية متعددة . وقد بلأ الشباب في مواجهة قضاياهم الحياتية إلى اعتماد أساليب «غير رسمية» في تحقيق أهدافهم أبرزها الإضرابات والمظاهرات وصولاً إلى الاعتصامات . أما هذه القضايا فكانت تتمحور أساساً حول الإصلاح الاجتماعي في حقول التربية والخدمات الاجتماعية والصحية والديمقراطية . لا شك بأن الظروف الاجتماعية والسياسية السائدة آنذاك هيأت المناخات الإيجابية لصعود حركة الشباب ولتحقيق بعض من طموحاتها التغييرية في المجتمع مؤقتاً لأن ذلك حصل نتيجة ضعف السلطات اللبنانية وليس على أساس مساومة معها حول ضرورات الإصلاح . إذ إن تحويلات اقتصادية بنوية كبيرة كانت قد حصلت خلال العقد الذي سبق اندلاع الحرب

١٢. انظر حول هذا الموضوع ، العدد الخاص عن «قضايا التربية والتعلم في لبنان» ، مجلة الطريق ، عدد ١ ، بيروت . ١٩٧٥

الأهلية ، من توسيع مترايد للرأسمالية في المناطق الريفية وتحفيز التزوح الريفي باتجاه التجمع المديني البيريوي ، بخاصة ضواحي بيروت ، إلى ازدياد حركة التصنيع وتوسيعها المعد إنتاجها للتصدير إلى أسواق الدول العربية بشكل أساسي مما زاد من نسبة العمال الصناعيين من مجموعقوى العاملة في لبنان ، إلى إنشاء شركات ومصارف أجنبية نافست وهددت مثيلاتها اللبنانيه بالتوقف عن العمل وبالتهبيش ، إلى ازدياد عدد المتعلمين وخريجي الجامعات الذين لم يجدوا مسرباً لهم في سوق العمل^{١٣} فقد فرت جميع الشروط المجتمعية ، المتمثلة ببروز أزمات اجتماعية ، لخوض نضالات اجتماعية متنوعة وبأشكال مختلفة .

وبموازاة ذلك ، كان النظام السياسي ، بخاصة بعد إجهاض المحاولة الإصلاحية الشهابية عام ١٩٧٠ ، عاجزاً عن تقديم حلول فعلية للأزمات الاجتماعية المتزايدة والمتفاقه بحيث بات الخروج منها يتطلب ضرورة القيام بإصلاحات جذرية يمكن أن تؤدي إلى إلغاء هذا النظام الطائفي نفسه ، وكذلك ، كان قد أصبح عاجزاً عن مواجهة أو قمع الحركات المطلبية المتعددة : طلاب ، معلمون ، موظفون ... الخ . وهكذا ، استطاع الشباب أن يخوضوا نضالات متعددة أدت لانتزاع مكاسب متنوعة .

و مع ازدياد ضعف النظام السياسي وت pari المطالبة بإقامة دولة العدل والمساواة عمدت البرجوازيات الطائفية المحافظة إلى استئثار قواها الطائفية ، بخاصة بعد دخول العمل الفدائي إلى لبنان على أثر هزيمة العرب في حرب حزيران ١٩٦٧ وتولّد انقسام سياسي شعبي رسمي لاحقاً حول كيفية التعاطي مع هذه المسألة المستجدة . وحينذاك برع بوضوح سطوع أهمية دور الشرط الاجتماعي بإعادة إنتاج أزمة شرط الشباب الخاص ، وبأنهم لا يمكن أن يشكّلوا فئة اجتماعية متजانسة تحمل ذات الهموم والمصالح إلا ضمن ظروف محددة من سياق تطور اجتماعي . وتبيّن إن الإيديولوجيات السائدة بين صفوفهم عامة كانت أضعف من أن تواجه الإيديولوجيات الفرعية مثل المناطقية ، العشائرية ، الطائفية ... الخ في بلد يتصف تركيبه الاجتماعي بالفسيفسائي وتسسيطر فيه هذه الولاءات العمودية التقليدية . ومع بداية عام ١٩٧٥ كان هؤلاء الشباب قد ابتدأوا ينخرطون في معسكرين متخاصمين ومحاربين مما بدّد وحدتهم وتوحدّهم وليركونوا الأداة الأساسية في تدمير الوطن

*
١٣. انظر حول هذا الموضوع ، سليم نصر وكولد روبار ، *الطبقات الاجتماعية في لبنان* ، ترجمة جورج أبي صالح ، منشورات مؤسسة البحث العربي ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ٣٥٦ وما بعدها .

وفي ترسیخ ظاهرة التفسخ الإجتماعي وتدعيم «الولاءات التقليدية ورسوخ الفكر الغبي»^{١٤}. ويطرح التساؤل المنهجي عن حدود إمكانية مقاربة موضوع الشباب كفئة متميزة موحدة نسبياً إزاء الفئات الأخرى في ظل مجتمع مشكلته الأساسية أنه مجتمع تعددي لم يتمكن من بلورة انتهاء اجتماعي موحد؟

تراجع دور الشباب التعبيري

لما كانت قد حصلت تطورات باللغة الأهمية والتعقيد خلال الخمسة عشر عاماً الماضية ، فإن السؤال المطروح هو حول المدى الذي يختلف فيه شباب اليوم في مواقفهم السياسية والاجتماعية عن مواقف أترابهم لسنوات ما قبل الحرب . إذ أن تراجع الدورة الاقتصادية وانكماسها لمصلحة الاقتصاد الموازي ، أي النشاط الاقتصادي الخارج على القانون والشرعية . الذي «أخذ يتسع ويتضخم ويتعمق مع مرور الزمن»^{١٥} والتباين المتزايد لل المجتمع ومؤسساته طبعت مواقف الشباب الإجتماعية بسمات من القلق والارتباك والإنكفاء . وبالطبع تختلف هذه المسألة حسب الجنس وكذلك حسب الطائفة وبعض المعاير الأخرى مثل إذا كان عمر الشاب أقرب إلى سن الطفولة أو إنه على مشارف بلوغ سن الرشد.

أولاً : شباب قنوع

إذا كانت السمة العامة لمرحلة الشباب العنفوان والثورة على التقاليد التي تعيق إمكانيات نمو قدراتهم وتحقيق تطلعاتهم نحو الأفضل وهم يختلفون بذلك عن الأكبر سنًا . فإن الشباب الذين نحن بصدده دراستهم ، وهم إما ولدوا خلال الحرب أو شاركوا جزئياً فيها . فإن تطلعاتهم المستقبلية متواضعة ، هذا فيما لو وجدت . فإنهم راضين عن حياتهم المتردية والمدرسية . وهذا الموقف يختلف عن موقف أسلافهم في الفترة التي سبقت الحرب ، فإذا

١٤. حليم بركات ، المجتمع العربي المعاصر ، منشورات مركز الدراسات الوحدات العربية ، بيروت ١٩٨٥ ، ص ١١٩ .

١٥. انظر حول هذا الموضوع : د. الياس سaba ، في المسألة الاقتصادية «الاقتصاد الموازي وإناء الحرب» جريدة السفير اللبناني ، تاريخ ١٩٩٠/٩/٧ .

* لقد أسقطنا من حساب هذه النسبة عدد الشباب البالغ ٣٩٩ شخصاً الذين لم يحيوا أو صرحو بأنهم غير معنيين بالسؤال المتعلق بالنشاطات الدينية وهو عدد لا يُستهان به ، يمثل نسبة ٣٤٪ من حجم العينة .

كانت أغلب الإضرابات الطلابية في مرحلتي التعليم الثانوي والجامعي ، في بداية السبعينيات قد تمت لتعبير عن عدم رضى الطلاب على الوضع الدراسي آنذاك ، يتبعن بعد حوالي عقدين من الزمن ، تعطلت خلالها إمكانية تطوير برامج ومناهج التعليم وتبدلت فيها مستوياته ، كما أشرنا إلى ذلك قبلًا ، بأن شباب اليوم في المدارس والجامعات راضيون عن وضعهم الدراسي؟ كيف يمكن تفسير هذه المفارقة؟ يبدو أن اختزال المساحة الإجتماعية التي يدور في فلكها الشاب ، حيث ينعدم التواصل المجتمعي ويتم تهميش دور المجتمع المدني في حياة الناس ، تؤدي إلى التفوق وإلى تراجع وتدنى مستويات الوعي ، طالما انه متغير تابع حددت ظروف الحرب ومفاعيلها الدمرة لجميع أطر العلاقات والولايات الأفقية طريقة تشكيله على نحو قد يكون مشوهًا؟ أو ربما ساعدت الحرب على تطوير أداء المدرسة أو الجامعة؟

في حين من نتائج الدراسة أن ٨٨٪ من الشباب الذين لا يزالون يتبعون دراستهم هم راضين عن حياتهم المدرسية. أما بالنسبة للموقف من أوضاعهم الحياتية حيال عدد من الأوضاع الشخصية أو العلائقية أو العامة ، تبين أن أغلبهم عبروا عن أوضاع ، إن لم تكن جيدة فهي مقبولة على الأقل ، إذ صرخ ٧٤٪ من حجم العينة بأن علاقاتهم جيدة مع الوالدين وان ٦٦٪ منهم يقدرون بأن الأوضاع جيدة أيضًا داخل أسرهم (أنظر جدول رقم ١) ، في حين أنَّ من قدروا أو وصفوا أوضاعهم بالسيئة والصعبة حيال هذين الوضعين لم تتعد نسبتهم ٣,٤٪ و ٦,٢٪ . وان نسبة الراضين بشكل عام عن أوضاعهم الحياتية بالنسبة لمختلف المواضيع المطروحة لم تتناسب عن ٥٠٪ ، وذلك بالنسبة للنشاطات الدينية. أما الشيء الملفت للنظر فقد كان عدم تأثير الانتهاء الديني أو المتغيرات المحددة الأخرى مثل المستوى التعليمي والمهنة والجنس في مواقف الشباب حيال المواضيع المطروحة عليهم. فإن هذه العوامل لم ينبع عنها اختلاف أو تمايز ذو دلالة بين الشباب حيال تقديرهم الإيجابي لأوضاعهم الحياتية.

ثانيًا : شباب يقترب من الأهل

أما بالنسبة لموضوع توافق الأهل والشباب في بعض المواضيع العامة والحياتية فيبيت النتائج الإحصائية (أنظر جدول رقم ٢) بأن أغلب الشباب يزعمون بتوافقهم مع الأهل لدرجة التطابق فيما يخص أمور الدراسة والعمل والأمور الدينية. وان نسبة هؤلاء كانت ،

وعلى التوالي ، ٦٩ و ٦٥,٤ و ٥٦,٥٪ من مجموعهم . بينما ٦٣٪ من هؤلاء وجدوا أنهم يختلفون مع أهلهم ، حتى حدود التمايز عنهم والتعارض معهم ، حيال موضوع النظرة للحياة أو إقامة علاقة مع الجنس الآخر . وكذلك بالنسبة لمسألة العادات والتقاليد أو لتساوي الفرص بين الذكور والإإناث .

يبعدوا إذاً ان الاختلاف في نظرة الأجيال من بعض المواضيع على علاقة بطبيعة الموضوع نفسه ، بحيث تزداد وتيرته في المواضيع الشخصية والذاتية وتتدنى اهميته في الموضوعات العامة . مما يؤكّد هنا ضعف أثر المحددات الإجتماعية (المستوى التعليمي ، المهنة ، الأصول الإجتماعية ...) في توليد الاختلافات أو التمايز بين الأجيال كلما كانت القضايا المواجهة لهم عامة وشاملة . في حين أن فعلها يزداد ويتناهى كلما أصبحت هذه القضايا ذات طابع ملموس اجتماعياً مثل النظرة للحياة أو العلاقة مع الجنس الآخر والعادات والتقاليد ... الخ .

ويهدف التعمق بمقارنة موقف الشباب مع مواقف أهاليهم حيال بعض المواضيع المطروحة سابقاً اختبرنا موضوع تساوي الفرص بين الذكور والإإناث إزاء هذه المواضيع . فتبين عدم وجود تمايز ، بالطبع حسب تقدير الشباب ، بين مواقف الشباب ومواقف أهاليهم حول تساوي الفرص بين الجنسين بالنسبة للعمل والدراسة .

فأغلب الشباب ، وكذلك أغلب أهاليهم ، يؤيدون ذلك . إذ بلغت نسبة الشباب المؤيدة أو الداعمة على التوالي ٧٧٪ و ٩٢,٥٪ ، في حين بلغت هذه النسبة عند الأهالي ٥٤٪ و ٧٥,٨٪ . فالأهل لا يرون ما يحول دون مساواة الفرص بين أبنائهم وبينهم في تلقي العلم وإكمال الدراسة ، بينما لا يدعم هذه المساواة على صعيد العمل سوى أكثر من نصفهم بقليل .

ويتميز موقف الأهل بتحفظهم ومعارضتهم للمساواة بين الجنسين فيما يخص إقامة علاقات بينهما ، بحيث أن ٨٣٪ منهم يعارضون ذلك . ييد أن موقف الشباب يتميز بمعارضته لهذه المساواة على صعيد القيود الدينية والعادات والتقاليد ، بينما نجد الأهل أقل تحفظاً ومعارضة من أبنائهم في تساوي الفرص بين الجنسين على هذين الصعيدين . هذا ، ويعيل النساء عامة ، بنات وأمهات ، إلى جانب تساوي الفرص هذه أكثر من الرجال بالنسبة للعمل والدراسة .

ثالثاً : شباب قلق

وقد خصصت عدة أسئلة لاستطلاع آراء الشباب الاجتماعية والسياسية . ووفقاً لمعطيات الجدول رقم (٤) فإن الموضوعات التي اعتقاد الشباب بأنها تثير اهتمامهم أكثر من غيرها كانت في الغالب محسورة بالحرفيات العامة وبالمساواة بين المواطنين ، حتى ان الاهتمام بالدرجة الأولى كان حول هذين الموضوعين ، في حين أن الدفاع عن الوطن جاء في الدرجة الثالثة ، وقد يعود ذلك إلى أن الشباب اللبناني يعتبر مسألة الدفاع عن الوطن أمراً محسوماً بالنسبة إليه أو لربما كانوا يقدرون تعقيدات السياسة الإقليمية حوله وأهميتها في تقرير مصيره . ويبدو ان قضية المساواة بين المواطنين والحرفيات العامة من القضايا الأكثر أهمية عند الكثirين من الشباب . ويفهم موقفهم بأنه رد سياسي على النظام الطائفي الذي يميز بين المواطنين في أمور كثيرة أبرزها الوظائف العامة ، وكذلك على الميليشيات المسلمة التي قفت الحرفيات وانهكت جميع القيم والأعراف المتعلقة بها ، بخاصة ان الشباب الذين صرحوا بأنهم ساهموا بأنشطة مختلفة خلال الحرب لم تتعذر نسبتهم ١٠ % .

لكن ما يتغير القلق بين الشباب في لبنان أكثر من غيره على المستوى العام وحدة الدول العربية وتفاعلاته الوضع الدولي بحسب تراوحت ما بين ١٩٪ و ١٥٪ من الشباب . ويلي ذلك مدحنية العالم الثالث ، بينما يأتي الصراع العربي الإسرائيلي في الدرجة الرابعة حيث ١٣٪ من الشباب قلقون منه . يبدو هنا تشتت مواقف الشباب اللبناني وعدم التجانس حول القضايا العامة الدولية . أما قلقهم على المستوى المحلي فكان الخطر على وحدة لبنان ومصيره (٢٩٪) وعدم قدرة الدولة على استعادة سيادتها على الأراضي اللبنانية (٢٠٪) ومن ثم الاحتلال الإسرائيلي (١٨,٦٪) . بينما الوضع الصحي وعدم وجود فرص للحمد والتغذية شكلاً أكبر مصدر لقلق ٢٣٪ من الشباب وذلك على المستوى الشخصي ، لتأتي بعد ذلك الحياة الجنسية إذ تبين أن ١٤٪ من الشباب يقلقون هذا الأمر . وثمة اشكال أخرى من أشكال القلق تحظى بأهمية أكبر عند الشباب . وعلى سبيل المثال ، فإن الاحتلال بـالـأـيـامـ الـجـارـيـةـ يـجـدـ شـكـالـيـنـ إـلـيـكـمـ يـقـلـقـونـ عـنـهـ ،ـ إـذـ أـبـدـىـ أـكـثـرـ مـنـ نـصـفـ الشـابـابـ عـمـلـاـًـ عـنـدـمـ يـرـغـبـونـ بـذـلـكـ يـشـكـلـ هـاجـسـاـ بـيـنـهـمـ ،ـ إـذـ أـبـدـىـ أـكـثـرـ مـنـ نـصـفـ الشـابـابـ ،ـ حـوـالـيـ ٥٣ـ٪ـ مـنـهـمـ مـخـاـوفـ جـديـةـ مـنـ أـنـهـمـ قـدـ لاـ يـجـدـونـ عـمـلـاـًـ لـدـىـ الـبـحـثـ عـنـهـ .ـ فـيـ حـيـنـ أـنـ حـوـالـيـ ٢١ـ٪ـ مـنـ الشـابـابـ يـرـتـابـونـ مـنـ التـوقـعـ بـأـنـ يـصـبـحـوـ عـاطـلـيـنـ عـنـ الـعـلـمـ بـعـدـ فـرـةـ مـنـ مـزاـولـتـهـمـ اـيـاهـ .ـ وـيـرـىـ ،ـ مـنـ جـهـةـ أـخـرىـ ،ـ حـوـالـيـ ١٨ـ٪ـ مـنـ الشـابـابـ بـأـنـهـ مـنـ الصـعـوبـةـ

إنجاح عمل يتناسب مع الاختصاص الذي حصلوا عليه أو في طريقهم لتحصيله. وطالما أن أغلب الشباب بعمر ١٥ - ٢٤ سنة لا يعملون ، بحيث أن نسبة العاملين منهم لا تتجاوز ٣٠٪ ، لقد ساورتنا بعض الشكوك حول مدى تطابق مواقف الشباب مع الواقع الفعلي بالنسبة إلى قلقهم من احتمالات عدم توفر فرص للعمل في المستقبل ، إذ لربما كان القلق المصرح عنه يعبر عن تقديرات غير واقعية . وقياسنا ، في مكان آخر ، لكيفية رؤية الشباب العاملين إلى أعمالهم التي يزاولونها ، أكد على أن هذا القلق هو فعلي . فحوالي ٥١٪ من الشباب العاملين اعتبروا أن عملهم الحالي هو مؤقت ومرحلي ، ربما يتكونه أو يستبدل به عمل آخر غيره ، أو انهم لا يرضون به ومحبون عليه . فقط ٣١٪ أبدوا رضاهם عن الأعمال التي يؤدونها .

رابعاً : شباب مرتبك

لكن عندما طلبنا من الشباب إبداء آرائهم حول الأمور الأكثر أهمية في تحقيق النجاح ، فإن أغلبهم رأوا أن هذا النجاح يعود بصورة رئيسية إلى القدرات والكفاءات المهنية وللمجهود الشخصي ، بحيث وصلت نسبة هؤلاء إلى حوالي ٥٥٪ من مجموعهم . وان حوالي ١١٪ فقط رأوا أن النجاح في الحياة يرتبط بمكانة الأهل الاجتماعية أو السياسية . في حين أن من يعزون ذلك إلى الحظ والقدر لا تتعدي نسبتهم ١٣٪ . نعتقد بأن هذه المسألة يتوجب التوقف عنها ، فلا ندري فيما إذا كانت إجابات الشباب تنم عن رغبتهم في أن يتحقق النجاح حسب القدرات والكفاءات الشخصية أو إنها تعكس مواقفهم الفعلية حيال هذا الموضوع ، بخاصة وان معظم الشباب من أوساط اجتماعية متعددة أو متواضعة؟ إذ بعدما عرضنا على الشباب لائحة بعض الأهداف الممكنة التحقيق وسألناهم عن أي منها هي الأقرب إلى نفوسهم تبيّن ان ٤٠٪ منهم يفضلون تحقيق مكانة اجتماعية مرموقة وان ٢٥٪ يودون أن يصبحوا أغبياء ، بينما رأى ١٨٪ ان الأقرب إلى نفوسهم هو أن يكونوا مواطنين عاديين . يبدو أننا إزاء مفارقة في مواقف الشباب فهم من جهة لا يرون لمكانة الأهل الاجتماعية أهمية في النجاح في حين تشكل هذه المكانة المهدف الأقرب إلى نفوسهم ويستغون الوصول إليها ومن ثم إلى الثروة والغني . برأينا ، تشكل هذه الإجابات الأخيرة مدخلاً لفهم عدد من المواقف ومن السلوك الاجتماعي سواء بين الشباب أو بين الأكبر منهم سنًا . فالمكانة

والثروة في لبنان أو في بلدان ما يسمى بالعالم الثالث لا تتحقق عبر قنوات اجتماعية تقوم على الجهد الشخصي وعلى العمل المتاجر إنما يحصل أغلبها في سياق آخر تحقق في لبنان خلال سنوات الحرب عبر قنوات الاقتصاد الموازي ، الذي يشمل الأعمال غير الشرعية ، كالتهريب على كافة أنواعه وصولاً للاتجار بالمنوعات أو فرض الخروات . وتترجم هذه الطموحات على أرض الواقع بتفشي الروح العدائية بين الشباب واستعدادهم الدائم للتخاصم أو التشاجر والتصادم ، حتى باستعمال السلاح ولو لم يقتض الأمر ذلك ، لأنّه الأسباب (مرور سيارة ، نظرة أو فعل تحدي ، صوت راديو... الخ) . لكن هذه الصورة القاتمة لا تحجب وجود شباب آخرين ، وإن كانوا قلة ، يرضون ويهدفون إلى أن يكونوا مواطنين عاديين .

يبدو أنه خلال الحرب شاعت قيم وعلاقات ، استمدت كينونتها الأساسية من نظام اقتصادي ، الشرعي منه واللا شرعي ، تلازم وجوده مع شيعون أعمال السمسرة والسرقة . لقد خربت الحرب منظومة القيم والمفاهيم التي كانت سائدة ومقبولة إلى حدٍ ما قياساً على ما يسود منها حالياً . فإذا كانت هذه القيم تستمد « مباشرةً من أنماط المعيشة والوضع الطبيعي والعائلة والدين والنظام العام السائد في المجتمع »^{١٦} ، فإنّ أغلب المحکمات تغير مسار تطورها باتجاه آخر طمس ملامح بروز قيم أفقية تقوم على أساس ولاءات اجتماعية ووطنية ، وثم ترسّخ قيم تنظيم اجتماعي هرمي (ولاءات عمودية أساسها العشائرية ، المناطقية ، الطائفية ... الخ) وتحول نظام القيم أو اختلّ توازنه باتجاه التعصب والتقوّع والتقليل والخنوع الإيديولوجي والامتاليّة ... الخ ، مما جعل الشباب يعيشون أوضاعاً يشوبها الاختلال القيمي ويصرّحون بمواقف متناقضة تعبّر فعلاً عن تناقض في قيمهم المستمدّة من معايير متنوعة ومتختلفة غير مستقرة . إذ وإن طفت قيم الحرب العمودية ، بعض من قيم الأهل الأفقية كانت لا تزال موجودة في حالة صراعية مع الأولى ، ولا بد أنها كانت تسلح الشباب وتحصن مواقفهم لتمحّيمهم من الواقع في أحضان القيم الأولى العمودية .

إننا إزاء مسألة معقدة ، أي تشكّل قيم ومعايير أخلاقية وسلوكية ، وظهور طبيعتها المعقدة في كثرة المتغيرات المؤثرة في بلورتها ، بخاصة دور الأهل ، في وقت يمر فيه المجتمع في حالة من انعدام الوزن . ييد أن الثابت في ذلك كله تحول سلبي وعدائي في مواقف الشباب نحو المليشيات بشكل عام وطروحات أحزابها السياسية بعد أن سقطت أوهام الاستئثار بكيانات

١٦. د. حليم بركات ، المجتمع العربي... ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٤٩

صغريرة متجانسة طائفياً أو حتى مذهبياً . وابتدأ يتهاوى بعض من منطق الولايات العمودية ، ولعل ذلك ما يفسر جزئياً ظاهرة الجنزال عون في أوساط الشباب ، بخاصة طلاب المدارس والجامعات ، في المناطق التي كانت تحت سيطرته .

شباب مهزوم ، الهجرة قبلته

المigration في لبنان ليست مسألة طارئة في حياة بنيه . إنها تكاد تلازم تاريخه المعاصر ، لقد كان أغلب السياسيين والاقتصاديين يفخرون بها ويعتبرونها الرد الطبيعي على ضعف موارد لبنان وثرواته الطبيعية ، حتى يصل بهم الأمر إلى تشجيعها وتحفيزها باعتبارها تشكل مصدرًا من مصادر الدخل القومي . فلبنان فقير بموارده وغني بشبابه الذين يشكلون قوة عمل وكفاءات عالية ، تقدم هجرتها فوائد جمة للوطن . وهذا موقف عام ، ليس في لبنان فحسب ، وإنما في كافة البلدان النامية ، يرتكز على وجهة نظر كلاسيكية في التحليلات الاقتصادية ، ترى بأن الهجرة الخارجية تتحقق فوائد اقتصادية جمة للفرد وللدولة أيضاً المهاجر منها . نحن لسنا بقصد مقاربة الموضوع على هذا المستوى من التقييم الإيجابي أو السلبي لظاهرة الهجرة ، أي فوائدها أو مضارها ، لأن ذلك يفترض طرحه على أساس المصلحة الوطنية العامة والأهداف المرسومة ، إذ على ضوئها يمكن تقدير الموقف الصحيح حيال الهجرة . والسؤال ينتقل إلى مستوى التساؤل حول ما إذا ناقش المسؤولون أو فكروا بتجديد مصلحة وطنية؟ وكانت بترتيل حيئتنة ضرورة وجود سياسة سكانية تمهد لتأسيس اندماج اجتماعي يتخطى التركيب الفسيفسائي السابق على الحرب والتفتت اللاحق بها حتى على صعيد الولايات العمودية نفسها؟

فالهجرة في لبنان ، مثلها مثل أي ظاهرة ديمografية أخرى ، تنشأ في سياق مجتمعي محدد ، نفهمها من زاوية نظر التطور نحو الإنتاج الرأسمالي في لبنان وتدميره لبني الإنتاج المحلي . وارتقت جراء ذلك الصعوبات الاقتصادية للسكان وابتدأ الناس يعانون من حالات العسر والفقير . وكانت الهجرة الخارجية أحدى المظاهر demografique لهذا التطور ، بخاصة في جبل لبنان في بدايات هذا القرن ١٩٠٠ - ١٩١٣ الذي شهد قبل غيره من المناطق اللبنانية دخول هذا النطاق الإنتاجي وعرف تطوراً أكثر أهمية وسرعة . إذ تقدر نسبة المهاجرين

اللبنانيين والمتحدرين من أصل لبناني حتى عام ١٩٥٩ حوالى ٤٥-٣٣٪ من مجموع السكان اللبنانيين والمتحدرين منهم .^{١٧}

أولاً : هجرة كبيرة وبعيدة المدى

بينما خلقت الحرب معايير أخرى وأسباباً إضافية دفعت بقسم كبير من السكان إلى أن يترك الوطن بالتجاه بلدان الاغتراب. إذ إن التقديرات التي توصلنا إليها حول حجم المиграة الخارجية تشير إلى أن حوالى ٤٧٥٠٠ ألف نسمة هاجروا من لبنان على امتداد فترة الحرب الأهلية، أي بمعدل وسطي بلغ حوالى ٣٣ ألف مهاجر سنوياً، وما نسبته ١٧٪ من سكانه المقيمين حالياً البالغ عددهم حوالى ثلاثة ملايين نسمة.^{١٨} وان أغلب المهاجرين غادروا لبنان في السنوات الثلاث الأولى لاندلاع الحرب أو الأخيرة منها. إذ بينت نتائج دراستنا بأن حوالى ٦,٢٪ من مجموع أفراد أسر المستجوبين يقيمون في بلدان الاغتراب ، وان ٢٣٪ منهم غادروا لبنان في الأعوام ١٩٧٥-١٩٧٨. في حين بلغت المиграة ذروتها في الأعوام ١٩٨٧-١٩٨٩ ، حيث تبين أن ٣١٪ من هؤلاء المهاجرين غادروا لبنان خلال هذه الفترة الأخيرة. أما البلدان التي قصدها فكانت متعددة بحكم كبر حجمهم. إذ بينت النتائج الإحصائية ان أغلب المهاجرات كانت بعيدة المدى ، بحيث أن ٦٦٪ من هؤلاء المهاجرين توجهوا نحو القارتين الأميركية والأوروبية . إذ إن الولايات المتحدة وكندا استقطبنا بمفردهما حوالى ٢٧٪ منهم. بالطبع ، يتربّط على المدى الجغرافي الذي تبلغه المиграة نتائج محددة ، بحيث أنه كلما اتسعت المسافة بين الوطن وبلد الاغتراب كلما تضاعفت إمكانيات العودة . فاختيار بلد المهاجر يرتب مسبقاً على المهاجر مواقف وترتيبات معينة مهنية وعائلية وسكنية ومعيشية وربما دراسية ، وعلى حد سواء في بلد المغادرة وفي البلد المستقبل ، يصبح من الصعوبة استبدالها أو إلغاءها بسهولة . إذ يصبح المهاجر ، بخاصة المصطحب عائلته معه ، أسير أوضاعه الحياتية الجديدة وهي التي غالباً ما تتحكم بقراره بالنسبة لموضوع

١٧. انظر حول هذا الموضوع :

— Elie SAFA, *L'émigration Libanaise*, université St. Joseph, Beyrouth 1960;
— Y. COURBAGE et PH FARGUES, *La situation démographique au Liban*, Publications du centre des Recherches, U.L., Institut des sciences sociales, Beyrouth 1974, tome II, pp. 39-48.

١٨. من دراسة للباحث ، لم تنشر نتائجها بعد.

العودة ، هذا فيما لو تتوفر الشروط المجتمعية المؤاتية في وطنه والتي تجعله يفكر بها . لكن ، هذه النسب الواردة أعلاه لا تشكل معياراً يمكن تعديمه على كافة الأسر اللبنانية ، فعينة دراستنا من الشباب لم تحدد على أساس تمثيلها لمجتمع الأسر اللبنانية . بيد أنها تقدم أدلة تأشيرية هامة حول ظاهرة الهجرة الخارجية .

هذا ، ولقد تبيّن أن حوالي ٢٧,٥ % من الشباب في لبنان صرّحوا بأنه يوجد شخص واحد على الأقل من أفراد أسرهم في بلدان الاغتراب . وان حوالي ٦٢ % منهم لديهم أقرباء مهاجرين (جدول رقم ٦) .

ثانِيًّا : شباب محبط

يسعى المرء باستمرار في أي مرحلة عمرية كان إلى تحقيق تلبية وإشباع حاجاته الأساسية من مادية وروحية وثقافية ، والتي تختلف معاييرها بين الناس حسب متغيرات متعددة ، من ضمنها أسرة الفرد التي ترسم له أدواراً وتطلعات معينة . وطالما أنه لا يستطيع تحقيق إمكاناته وملائكته واستعداداته في مكان وجوده أو إقامته فيقتضي عن ذلك في مكان آخر . أما في حالة لبنان الراهنة ، إذ بالإضافة إلى استفحال الأزمة الاقتصادية والى احتلال سوق العماله بما يتعارض وإمكانيات إشباع احتياجات الناس الأساسية ، تسود الفوضى وتهاون البنية الإجتماعية ، مما يفضي إلى توzerات تسود العلاقات المجتمعية وإلى تداعيات تطال المستوى الأخلاقي والقيمي تتفّر المرء من البقاء في وطنه .

هذه العوامل مجتمعة لا تشكل حواجز فقط للهجرة ، وإنما أيضًا وسائل تضغط باتجاهها . هذا ، وتشير البيانات الإحصائية (جدول رقم ٦) إلى أن حوالي ٤٧ % من الشباب يرغبون بالهجرة ، ولم يعارضها سوى ٣١ % منهم . وتبين من جهة أخرى ، أن أغلب الشباب تربطهم صلات متنوعة مع أناس مقيمين في الخارج .

وكذلك تبيّن أن حوالي ٣٠ % من الشباب في لبنان لا يشجعون المهاجرين على العودة إلى الوطن ، إذ لم يشجعهم على ذلك سوى ٢٣ % فقط و ٣٤ % يشجعونهم وإنما بتحفظ . لقد ساورتنا بعض الشكوك حول مدى صحة الإجابات فعمدنا بسؤال آخر للتحقق من مدى تساوي مواقف هؤلاء الشباب مع رغباتهم . فعندما سألناهم عن الأمر الذي يمكن أن يوفر إمكانية للتجديد في حياتهم ، فإن ٣٩ % منهم رأوا بأن الهجرة توفر هذه الإمكانيّة . وعندما

سألناهم فيما إذا يرغبون بالسفر إلى الخارج فإن ٧٤٪ منهم أجابوا بنعم. أما الأسباب فتوزعت إلى ٢٠٪ للسياحة و ٢٠٪ للتفيتيش عن أفق حياة مختلف و ٣٤٪ للعمل أو الدراسة.

إن الشباب اللبناني يرغبون بالهجرة ليس لأسباب محلية بنائية مرتبطة بسوء الأحوال الاقتصادية أو المجتمعية فقط ، بل ، وكذلك ، نتيجة إغراءات أو ما يسمى بعامل حذب تمارسه الأخبار المروية عن المهاجرين . إذ صرّح حوالي ٤٣٪ من الشباب بأن هذه الأخبار تغريهم وتحفزهم على الهجرة ، بينما لم يصرّح سوى ٩٪ منهم على أنهم يقفون ضد الهجرة نتيجة الأخبار المفبركة المروية عن هؤلاء المهاجرين .

ويختلف توزيع النسب السابقة فيما لو تم قياسها وفق بعض المحددات الاجتماعية مثل الجنس والطائفة . إذ يبدو أن الذكور أكثر تأييداً للهجرة ، فحوالي ٥٣,٦٪ منهم مقابل ٣٩,٣٪ من الإناث يؤيدونها . فالهجرة إلى الخارج تعني بشكل أساسي الذكور . برأينا ، هذا ناجم عن فعل الأسرة في تشتيتها الاجتماعية للأولاد ، فهي ليست محايضة ، إذ تلعب دوراً يساعدها على تحقيق ذاتها . إن الرغبة في ترك الوطن و اختيار الهجرة هي تعبير ، ليس فقط عن إيجاد منفذ يمكن أن يلبّي حاجات الشباب الأساسية بل وكذلك عن موقف يرفض التكيف مع الوضع القائم : نظام حروب و انغلاق مجتمعي و تدهور في قيمة العمل المنتج وإخفاء قيمة مجتمعية على الأعمال غير المتوجهة المؤدية إلى الإثراء السريع ، حيث يحظى أصحابها باللحاظ والسلطة والمكانة الاجتماعية وحتى ربما بالتقدير « الرسمي »؟

إن الشباب يشكلون جزءاً من المجتمع وما يرونـه في تحقيق ذاتـهم ليس سوى صورة عن تحليـات ذاتـ أثراـبـهم الأكـبـرـ سـنـاـ . وصـرـحـ ٨٧٪ منـهـمـ بـأنـ مـؤـسـسـاتـ الدـوـلـةـ هـيـ الإـطـارـ الـوـحـيدـ لـضـبـطـ حـقـوقـ الـمـوـاطـنـينـ وـوـاجـبـاتـهـمـ . وـعـنـدـمـاـ تـتـدـاعـيـ هـذـهـ الـمـؤـسـسـاتـ لـلـأـسـبـابـ الـمعـرـوفـةـ إـيـاـهـاـ سـوـاءـ خـالـلـ الـحـرـبـ أـوـ فـيـ أـعـقـابـهـ ، كـيـفـ لـاـ يـرـوـمـ الشـابـ الـهـجـرـةـ وـالـسـفـرـ إـلـىـ الـخـارـجـ؟ـ يـبـدوـ أـنـاـ إـزـاءـ هـجـرـتـينـ ، الـأـوـلـىـ فـعـلـيـةـ وـالـثـانـيـةـ كـامـنـةـ فـيـ النـفـوسـ أـشـدـ وـطـأـةـ وـأـكـثـرـ خـطـرـاـ منـ الـأـوـلـىـ . فـالـهـجـرـةـ الـكـامـنـةـ هـذـهـ تـخـلـقـ اـضـطـرـابـاـ وـعـدـمـ اـسـتـقـرـارـ بـجـيـثـ تـجـعـلـ الشـابـ بـحـالـةـ مـنـ اـنـدـاعـ الـوـزـنـ الـإـجـتـمـاعـيـ يـعـيـشـ فـيـ مـكـانـ وـهـوـاجـسـهـ وـرـغـبـاتـهـ وـخـواـطـرـهـ تـعـوـمـ إـلـىـ أـمـكـنـةـ أـخـرىـ فـيـ الـأـفـقـ الـبـعـيدـ .

لقد أفرزـتـ هـذـهـ الـحـرـبـ مشـكـلاتـ كـثـيرـةـ وـأـوضـاعـاـ مـعـقـدـةـ ، لـكـنـهـاـ ولـدـتـ آفـةـ خطـيرـةـ تـنـخـرـ فـيـ جـسـمـ الـوـطـنـ ، إـنـاـ آفـةـ الـهـجـرـةـ وـأـدـدـتـ إـلـىـ تـقـرـيمـ أـدـوارـ الشـابـ وـإـلـىـ شـرـدـمـهـ بـشـكـلـ

وخلقت أوضاعاً سوداوية نهشت في بنية المجتمعية حيث تتقدّم أدوار الشباب وتزول فيها هوبيتهم الشبابية كفتة متّيزة تحمل لواء التجدد الإجتماعي باتجاه متّهور ومتقدّم.

خلاصة

لقد تحفظنا في البداية على وصف واقع بعض الظواهر الإجتماعية على إنها مشاكل. إذ إن المشكلة تفترض بأن حلها يزيل بعض التشوّش والبلبلة عن طريق انتظام تطور المجتمع وفق مشروعه المحدد. وإذا كان التفتت والتشتت وانيار المتسكّن الاجتماعي؛ تشكّل التوصيف الملائم لحالة المجتمع اللبناني الراهنة، أي إننا في حالة من «الأنوميا» بالمعنى الدوركيهايي، فهل يصح أن نسمّي هذه الظواهر على أنها مشاكل اجتماعية؟ أم إنها شيء آخر.

فالتجدد والهجرة وتدّور قيمة العمل المنتج وغياب خصوصية الظاهرة الشبابية وتتحقق أهداف وتطلعات أصحابها، ليست مشاكل، إنما هي معطيات اجتماعية - ديموغرافية قادمة بذاتها. وإذا صح استخدام مفهوم المشكلة على مستوى البناء التحتي، ماء وكهرباء، وطرق وآفاق ومدارس أو على مستوى بعض الحالات النفسية العلاجية أو الجماعات الصغيرة (أسرة، عائلة، حي) فإن ذلك لا يصح على مستوى قضايا مجتمعية كبيرة أرست حراكاً مهنياً وديموغرافياً لا يمكن تخطيّها. بحيث أنه على ضوء الإجابة لأي نظام اجتماعي - اقتصادي يؤسس النظام السياسي في الجمهورية الثانية يمكن أن تطرح التوجهات الصحيحة في التعاطي مع هذه الأوضاع المستجدة في بلادنا. إذ إن استفادة الدولة لبسط سيادتها ولدورها في الحياة السياسية يمكن أن يوفر المناخات والأجواء لصوغ مشروع ما يحيط بكلّ المعطيات الموجودة وبكافّة عناصر الوضع القائم، يؤسس لتأثير الناس حوله نحو بناء مجتمع متسكّن تسوده قيم الولاء للوطن وللعدالة وللمساواة.

وان تحليل بعض أوضاع الشباب في لبنان قادنا إلى نتائج هامة يمكن تلخيصها فيما يلي :

١. عدم وجود خصوصية شبابية ، وافتقار الشباب لدورهم التغييري في المجتمع وانهم يتمثّلون قيماً غير افتتاحية تقوم بشكل أساسى على الولاءات العمودية .
٢. لا يزال للأهل الدور الأهم في توجيه الشباب وفي تحديد خياراتهم ، دون أن يعني ذلك ثبات وتوقف التجدد الإجتماعي بين صفوفهم. في ظروف الحرب يحصل هذا التجدد

من خلال إنعاش معين للأطر التعاقدية التي تضعف ، إلى حدٌ ما ، تبلور نماذج الرأي والسلوك الأكثر إنفتاحاً .

٣. إن الرغبة الجامحة لدى الشباب بالهجرة هي تعبير عن الصراع البارز على سلم مستوى القيم بين الظهرانية المرغوبة في القيادة ومعها قيم أفقية كامنة وايديولوجيا الشطارة القائمة على نظام اقتصادي يسوع أعمال السمسرة والسرقة المقننة .

جدول رقم ١ :

توزيع مواقف الشباب من الوضع الحياتي الراهن بالنسبة لبعض المواضيع المعاشرة .

الموضوع	جيد	لا بأس	الموقف	سيئ	غير معنٍ	المجموع
			صعب	أو لا جواب		
العلاقة مع الوالدين	٨٧٩	٢٥٧	٣٢	٨	٩	١١٨٥
الوضع داخل الأسرة	٧٧٩	٣٢٨	٦٠	١٣	٥	١١٨٥
العمل	١٢٠	٢١١	٦٨	٦٩	٧١٣	١١٨٥
الدراسة	٢٩٥	٢٣١	٣٣	٤٤	٥٨٢	١١٨٥
السكن	٤٠٧	٥٨٥	١١١	٧٣	٩	١١٨٥
النشاطات الدينية	١٥٩	٤٤١	٩٠	٩٦	٣٩٩	١١٨٥
العلاقات العاطفية	٢٧٢	٤٨٨	١٠٧	١٢٧	١٩١	١١٨٥
تمضية أوقات الفراغ	٢٢٦	٥٩٢	١٨٩	١٦٤	١٤	١١٨٥

جدول رقم ٢ :
درجة توافق الشباب مع الأهل في بعض المواضيع والأمور الحياتية

الموضوع	تطابق	تمايز	تعارض	غير معني	المجموع
				أو لا جواب	
العمل	٧٧٥	٢٢٣	١٧٨	٩	١١٨٥
الدراسة	٨٢٢	٢٠٨	١٤٧	٨	١١٨٥
النظرة للحياة	٤٣٧	٥٣٩	٢٠٧	٢	١١٨٥
السياسة	٥٤٩	٣٢٩	٢٩٦	١١	١١٨٥
الأمور الدينية	٦٧٠	٣٢٨	١٨١	٦	١١٨٥
الأمور اليومية (مثل :					
مشتريات ، مسؤوليات متزلاة)	٦٤٢	٣٩٤	١٤٧	٢	١١٨٥
العلاقة مع الأصدقاء	٦٢٥	٤٤٣	١١٤	٢	١١٨٥
العلاقة مع الجنس الآخر	٤٢٠	٤٩٨	٢٦٣	٣	١١٨٥
العادات والتقاليد	٤٥٩	٥١٤	٢٠٩	٢	١١٨٥
تساوي الفرص بين					
الذكر والأنثى	٥٤٠	٤٥٩	١٨٣	٢	١١٨٥
الواجبات الاجتماعية	٥٨٨	٤١٥	١٧٩	٢	١١٨٥

جدول رقم ٣ :
**موقف الشباب والأهل من تساوي الفرص بين الجنسين
 في بعض المواضيع الاجتماعية**

						الشباب	
						مع	متحفظ ضد لرأي المجموع
						مع	متحفظ ضد لرأي المجموع
العمل						١١٨٥	٢٥
الدراسة						١١٨٥	٢٢
العلاقة مع						١١٨٥	٤٠
الجنس الآخر						١١٨٥	٤٢٩
القيود الدينية						١١٨٥	٦٧
العادات والتقاليد						١١٨٥	٤١

جدول رقم ٤ :
**الموضوعات الجديرة بإثارة اهتمام الشباب والالتزام بها حسب الأولوية
 (المستجوب اختار ثلاثة موضوعات بادئاً بالأهم)**

الموضوع	درجة الاهتمام رقم (١)	درجة الاهتمام رقم (٢)	درجة الاهتمام رقم (٣)
الحرفيات العامة	٣١٣	٩٠	١٥٣
العقيدة الدينية	٧٥	٣٤	٢٦
المساواة بين المواطنين	٢٣٠	٢٨٧	١٧٣
المدرسة	١٠١	٩٦	٤٥
ديمومة العمل	٨٧	٩٠	٩٠
المساواة بين الجنسين	٨٣	١٣٢	١٠٦
تماسك العائلة	٩٣	١٨٩	١٥٠

الموضوع	درجة الاهتمام رقم (٣)	درجة الاهتمام رقم (٢)	درجة الاهتمام رقم (١)
الدفاع عن الوطن	٢٦٠	١٤٥	٧٢
الديمقراطية	١٥٥	٨٣	١٠٦
الالتزام الحزبي	١٢	٤	٨
وحدة الطائفة	٦٥	٣٠	١٠
غيره ، ...	٤	٥	٧
المجموع	١١٨٥	١١٨٥	١١٨٥

جدول رقم ٥ :
توزيع المهاجرين من أفراد أسر الشباب حسب مكان الهجرة

المكان	عدد المهاجرين	النسب المئوية
البلدان العربية	١٠١	٢٠,٧
القارة الأوروبية	١٦١	٣٣,١
الولايات المتحدة وكندا	١٣١	٢٦,٩
أميركا الوسطى والجنوبية	٣٠	٦,٢
أفريقيا	٥٥	١١,٣
آسيا	٤	٠,٨
أستراليا	٢٢	٤,٥
المجموع	٤٨٧	١٠٠,٠

جدول رقم ٦ :

توزيع الشباب ، أفراد العينة ، حسب الصلات التي تربطهم مع مقيمين في الخارج
(السؤال : هل تربطك صلات مع مقيمين في الخارج)

نوع الصلة	%	نعم	لا	المجموع
أهل أو أخوة	٢٧,٤	٣٢٥	٨٦٠	١١٨٥
أقرباء	٦٢	٧٣٤	٤٥١	١١٨٥
أصدقاء	٥٦,١	٦٦٥	٥٢٠	١١٨٥
معارف	٥٢,٨	٦٢٦	٥٥٩	١١٨٥

جدول رقم ٧ :

توزيع الشباب حسب الجنس وحسب الموقف من الهجرة إلى الخارج (بالنسبة المئوية)

الموقف	الذكور	الإناث	الذكور والإناث معاً
مؤيد	٥٣,٦	٣٩,٤	٤٦,٧
معارض	٢٥,٢	٣٦,٤	٣١,٢
لا مبالي	٧,١	١٠,٢	٨,٦
لا رأي	١٣,١	١٤	١٣,٥
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠

جدول رقم ٨ :
توزيع نسب الشباب حسب الانتماء الديني وحسب الموقف من الهجرة إلى الخارج

الموقف	%	المسيحيون	شيعة	سنة	دروز
مؤيد	٥١,٢	٤٨,٨	٤١,٤	٤٧,٨	
معارض	٢٥,٧	٣١,١	٣٠,١	٣٩,٦	
لا مبالي	٩,٣	١٠,٧	٨,٤	٧,٥	
لا رأي	١٣,٨	٩,٤	٢٠,١	٥,١	
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

الحرب الأهلية في السودان

بين ضرورة التعددية وإيديولوجيا الفتنة*

د. حيدر إبراهيم علي

مدخل

حالة الحرب وضع إنساني غير طبيعي أو عادي لأن بعض المعايير وأنماط السلوك والقيم والاتجاهات والأفعال وردود الأفعال التي كانت سائدة ومقبولة ومتوقعة في الموقف والأوضاع الاجتماعية يتم التنازل عنها أو التغاضي عن خرقها لفترة معينة تكفل من التبيئة للحرب وخلق أجواء ومعنويات وتكيف جديد ، وتستمر حتى بعد إنتهاء الحرب الفعلية أي فترة إزالة أو التقليل من آثار الحرب . فالسوسيولوجى حين يعالج ظاهرة الحرب يدرس الاجماعي في مداره داخل المجتمع أي حين يصل «التفاعل» بين طرفين حد إلغاء الآخر ، لذلك فهو بالضرورة يبحث في أفراد وجماعات غير عادية وذات قدر ما من السلوك المنحرف أو المرضي - على الأقل مؤقتاً . يبقى هذا الجانب في أي حرب منها كانت تسميتها «حرب عادلة» أو حرب مقدسة أو دينية ، ولذلك تحتاج أي حرب لجهد كبير من أجل شرعنتها وعقلتها وتبريتها ، وهذا قناع كثيف يجعل معرفة الأسباب الحقيقة للحرب صعبة التتحقق وكذلك فهم الممارسات التي تحدث أثناء الحرب . تزداد محاولات الشرعنة والتبرير تعقيداً في حالة الحروب الأهلية لأنها تم بين مواطنين تجمعهم روابط تاريخية وسياسية واقتصادية عديدة خلافاً للحرب ضد «عدو» خارجي أو «غاز أجنبي» . وفي حالة الحرب الأهلية قد تكون الأسباب جلية ولكن المغالطات والمصالح السياسية والمواقف الإيديولوجية ، تغمرها وتجعلها تبدو غامضة ومتتشابكة مع غيرها من أسباب ثانوية وجانبية قد ترفع لتكون الأسباب البديلة . مثال ذلك الحرب الأهلية في السودان والتي لها أسباب موضوعية تمثل في التنمية غير المتوازنة ورواسب نظرة عنصرية ارتبطت بتجارة الرق في السودان ولكن تفسر خطأ عن

* ندوة سوسيولوجيا الحرب ، بيروت ، يناير ١٩٩٢ .

قصد بأنها مؤامرة من قبل الاستعمار الغربي و مجلس الكنائس العالمي والصهيونية ، وعلى ضوء هذا الفهم لا تعالج الأسباب الحقيقة للحرب الأهلية.

تهدف هذه الورقة إلى إزاحة الإيديولوجي والدعائي في فهم أسباب الحرب الأهلية في جنوب السودان والتي تمتّد تدريجياً إلى مجموعات قبلية أخرى غير عربية ، و مسلمة – وذلك بسبب عدم مواجهة العوامل الحقيقة التي تفاقم الصراع والتوتر . ورغم أن الحروب أصلاً غير منطقية في جوهرها ، فالحرب الأهلية في السودان من أكثر الحروب عبثية وعدم جدوى فقد أهدرت دون معنى ٢٥ سنة من جموع عمر الاستقلال البالغ ٣٦ عاماً أفرزت الحرب الأهلية في السودان ظواهر اجتماعية مصاحبة يمكن أن تخصّص لها دراسات اجتماعية منفصلة . لذلك مست الورقة جوانب أسميتها مبدئياً : سوسيولوجية المخاعة والإغاثة وسوسيولوجية التهجير والهجرة وسوسيولوجية الأقليات وسوسيولوجية العنف والجهاد والفتنة . كما أن الحرب الأهلية تبرز دور الجيش في الحياة السودانية والسياسية بالذات كقوة تناست نتيجة الحاجة لها في الصراع الدائر ، وتهتم الدراسة أيضاً كما يوحى العنوان – بعدم تدرين هذه الحرب لأن ذلك يزيد من عنصرتها أكثر مما يجعلها حرباً مقدسة أو عقدية . فهي حرب أكثر ارتباطاً بالشروط الاجتماعية فتشوّها وطريقة سيرها يقوم على علاقة ذات طابع عنصري أو بالأصح إثنى يجمع العرقية والثقافة بما فيها اللغة والدين وطريقة الحياة ، هذه العلاقة التي تميزت بعنف ناجم عن تقسيم اجتماعي قائم على مفهوم الرق المارس تاريخياً والمرموز ثقافياً في الواقع المعاصر .

خلفية الصراع

تفترض هذه الورقة أن التمييز المستتر أو المعلن أو الكامن القائم على الأصل العرقي أو بالأصح الثاني والذي يقسم السودانيين إلى عرب وغير عرب ، قد حكم كل أشكال العلاقات القائمة في السودان خلال تاريخه الحديث رغم الجذور البعيدة للتكون العرقي وعدم وضوح الفوارق بالذات في السودان الشمالي الذي يدعى العروبة الخالصة بين أغلب المجموعات القبلية التي تعيش في منطقة أواسط السودان النيلي وشماله . فالسودان الشمالي يتكون من مجموعات مسلمة وعربية ، وأخرى مسلمة ولا تتحدث العربية وهي تدمج بين الإسلام والعروبة بحيث تجعل من إسلامها ما يساويها بالجموعات العربية في المكانة والتسلسل

العرقي . وبالتالي يتم تداول مصطلحات مثل أولاد عرب وعييد أو زنوج ، وكان بعض الشماليين يستعمل كلمة سوداني ليعبر بأدب عن الأصل غير العربي ولم يعد يستخدم هذا المصطلح بعد الاستقلال حين أخذ كل القطر اسم السودان . يتداول الكثيرون في السودان مفاهيم وأوصاف مثل عبد وعييد وخادم (للأثنى) وفرخ وفرخة (لصغر السن من هذه المجموعات) ، ورغم أنها قد تفقد عند بعض المجموعات والجيل الأصغر مضمونها في الحديث والمخاطبة ولكن في المعاملة والاندماج الاجتماعي بالذات المصاهرة والزواج وأحياناً السكن والجوار سرعان ما تشحن هذه الأوصاف والمفاهيم بكل دلالتها ومحمولاتها التاريخية والاجتماعية المترسبة في العقل الجمعي والتي نقلتها التنشئة الاجتماعية إلى أجيال لم تعاصر أو حتى تدرس مباشرة تجارة الرق والمؤسسات التي نجمت عنها ، وذلك حتى بداية هذا القرن . لذلك يمكن أن نسميه ثقافة الرق فقد اندثرت مؤسسة الرق سواء الرق المتربي أو الجندي كا انتهت الغارات لحلب العبيد والتي كان يقوم بها تجار عرب من السودان ، وخارجه وبعض الأجانب ، كما ألغت أسواق النخاسة أو العبيد . وكانت السعودية و Moriutania آخر دولتين تقومان بتحريم هذه التجارة رسميًا الأولى في السبعينات والثانية في الثمانينات . مع هذا الانفراط المادي والتحريم الدولي والإنساني لهذه الممارسة ، فقد استمر الرق أو العبودية وترسخ في ثقافة محددة تظهر كاتجاهات وقيم وشعور وطريقة تعامل وأداة للتفايز والتمييز أي للتقسيم والامتيازات ، ومعيار لتحديد كل العلاقات الاجتماعية الوثيقة والمحمية (أي العلاقة الشخصية والواجهة face-to-face) ثقافة الرق هي السبب الحقيقي الثاني في كل الأسباب الأخرى اقتصادية ، سياسية ، إدارية ، اجتماعية . فالنظرية الدونية للجنوبين أو للمجموعات غير العربية هي السبب في تركيز مشروعات التنمية مثلاً في منطقة الجزيرة ، الخرطوم شرق وشمال السودان أي مثلث التنمية المعروف حيث تتكدس المشاريع الزراعية والطرق والمواصلات والمدارس والمستشفيات وكل الخدمات . وليس مصادفة أن هذا المثلث تقطنه المجموعات العربية – الإسلامية .

ارتبط الرق في أذهان السودانيين بالعرب ، ورغم الجدل والبرير الدائر الآن والذي يحاول أن يعطي ظاهرة الرق طابعًا عامًا وأن كل المجتمعات الإنسانية عرفت هذه الممارسة ، تظل الحقيقة العينية لدى المجموعات الزنجية أو النيلية أو الخامدة في السودان ، هي أن الرق في مجتمعهم قد مارسه العرب سواء عمليًا في شكل مؤسسة أو كثقافة كما هو الواقع الآن . ويصبح الحديث عن الرق في زمن أفلاطون مثلاً لا معنى له لدى شخص يسمع كلمة عبد

تُطلق عليه اليوم في السوق أو في مكان العمل أو في مركبة عامة للنقل . وهكذا تعتبر هذه المجموعات كل العرب تجارة رقيق ، كما أن من يسمون أنفسهم عرباً يحددون حسب سمات فيزيقية مثل اللون والشعر وشكل الأنف والقسم والبنية ، ويُضاف لها تلقائياً ما يسمى أخلاق أو طبع العبيد والذي تدخل فيه كل الصفات المبودة مثل الغدر والبخل والانحلال الخلقي (بالذات الجنسي وحسب معايير العرب - السودانيين) . بالتأكيد عرف السودان القديم ظاهرة الرق ولكن يؤرخ لاتفاقية (البقط) بين حاكم النوبة (السودان القديم) وعبد الله بن أبي السرح أمير مصر في عام ٢٥ هـ - ٦٤٦ ، كأول اعتراف رسمي بتجارة الرقيق أو مؤسسة الرق والتي تتعذر الاستخدام المتزلي . فقد نصت هذه الاتفاقية على أن يدفع ملك النوبة ٣٦٠ عبداً سنوياً لحاكم مصر ، كما كان تبادل المدايا بالعبيد أمراً سائداً . وعندما أنشأ ابن طولون كتيبة السود في جيشه زادت هذه التجارة^١ وخلال دولة الفونج (١٥٠٤ - ١٨٢١) انتشر الرق وكان من سمات المكانة والعزّة عند الفقهاء ورجال الدين امتلاك أعداد كبيرة من الرقيق ، ويتردد كثيراً في كتاب «الطبقات» الخاص بالأولياء والصالحين وعلماء الدين - وصف مواكب يسير فيها هؤلاء الرقيق للاستعراض . نقرأ عن الشيخ حسن و د. حسونة أشهر فقهاء تلك الفترة : «وسعي العبيد وركبهم الخيل (...) والمتواتر عند الناس خمسينات عبد كل واحد شايل سيفاً قبضته وإيزية ومحاصيره فضة» وفي موقع آخر : ... جاءت مائة وعشرون فرخة لابسات الفرك ... وكل فرخة وراها فرخة في يدها سوار فضة»^٢ أردت القول أن ظاهرة الرق كانت مقبولة بل مستحسنة دينياً واجتماعياً في الثقافة التقليدية السودانية والتي لم تؤثر عليها كثيراً عمليات التحديث المحدودة الفاعلية خاصة وأن القيم والتقاليد أكثر بطناً في التغير والتحول . جاء الحكم التركي - المصري بعد ذلك (١٨٢١ - ١٨٨١) ليكسر الرق ويتوسع في هذه التجارة التي دخلت فيها عناصر غير محلية ووصلت إلى أسواق جديدة في الجزيرة العربية والشام وأسيا الصغرى وشمال أفريقيا . وكان من أهم أسباب فتح محمد علي للسودان كما تذكر المصادر التاريخية أو حسب الشاعر الشائع :

١. لمزيد من التفاصيل راجع : خطط المقريزي ، الجزء الأول ، طبعة القاهرة ١٣٢٤ هـ ، ص ٣٠٧ وما بعدها . وكتاب

يوسف فضل حسن ، (بالإنجليزية) العرب والسودان الشرقي ، طبعة ادنبرة ١٩٦٧ .

٢. كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين وعلماء والشعراء في السودان ، للفقيه العالم محمد ضيف الله بن محمد الجعلى المكتبة الثقافية ، بيروت (ب. ت) ص ٤٩ و ٥٠ .

«من أجل المال والرجال» لم تقم الثورة المهدية (1881-1898) بإلغاء الرق بل اكتفت بطلب حسن المعاملة والرحمة.

قامت الدول الأوروبية لأسباب يتشابك فيها الإنساني والاقتصادي، بمحاربة تجارة الرقيق في السودان وفرض على الخديوي إسماعيل تعين حكماء مثلاً مثل غردون وغيره بهدف الحد من هذه التجارة. قطعت فترة الدولة المهدية هذه الجهود لذلك قامت حكومة الحكم الثنائي بتحريم تجارة الرقيق رسميًا، ولكنها واقعياً لم تلغ واستمرت المؤسسة لفترة. فقد أرسل الحاكم العام كتشنر مذكرة للمديرين عام 1899 - يعلن عدم الاعتراف بالعبودية ولكن يطلب منهم عدم التدخل بالقوة لتنفيذ ذلك في حالة وجود من يتعاملون كأسيد وعيid. ولكن لو تعرض أي فرد للعنف والقسوة وأجبر على أداء أعمال كان يقوم بها في السابق «كعبد» فلا بد من تطبيق قانون العقوبات. واجهت قارات إلغاء العبودية صعوبة في التنفيذ بسبب الأحوال الاقتصادية إذ لم يجد المحررين بدائل وضمانات للعيش ففضلوا البقاء في أوضاعهم السابقة. مثل ذلك سجلت قبيلة البقارة عام 1928 حوالي ٦٠٠٠ شخصاً من سمو المولدين ، قبل ثلثهم فقط استسلام ورقة الحرية من الحكومة^٣. استمرت ثقافة الرق رغم المنع القانوني والقضاء على المؤسسة رسميًا مع تزايد العمل بالأجور وضعف الروابط القبلية والعشائرية نسبيًا. فقد ظل التزاوج بين الجموعتين «العرب» وغير «العرب» غير وارد حتى اليوم ، إذ يمكن أن يتزوج تاجر شمالي جنوبي مثلاً ولكن العكس لا يحدث أبداً أن يتزوج جنوبى شماليه . وأكاد أن أجزم بانعدام أي زينة في تاريخ السودان بين جنوبى وجعلية أو شايقية (هذه قبائل عربية كبيرة في الشمال). وقبل عشر سنوات أبطل قاضي محكمة شرعية بالعاصمة زينة بين شاب وشابة . بحجة عدم الكفاءة بدعوى أن أصول الشاب من غير «الأحرار» أو حسب المصطلح الشائع «فيه عرق» مما يعني اختلاط «دمائه» من خلال التسري مثلاً . وعدم التزاوج لا يتم لأسباب دينية بل عنصرية بحتة . إذ لا توجد زيجات مختلطة حتى بين أفراد الجماعات الإسلامية السياسية رغم كل شعارات المساواة وإنما المؤمنون إخوة ، هنا تطغى العادات والتقاليد والقبول الاجتماعي على التدين والرابطة الخزبية . كذلك ما زلنا نسمع عليه الدين والوعاظ يرددون في الأحاديث الدينية أحكاماً في كفاراة

J.S. TRIMINGHAM, *Islam in the Sudan*, Frank Cass & Co., London 1965, p. 23 n. ٣

الصيام مثل «إطعام ستين مسكيناً أو عتق رقبة». وما زالت المناهج التعليمية تدرس قصيدة التبني في كافور :

لا تشرِّ العبد إلَّا والعصا معه
إن العبيد لأنجاس مناكيد
أو
العبد ليس لحر صالح وأخ لو أنه في ثياب الحر مولود

ورغم كل الكوابح الدينية والقرارات القانونية والمواقف السياسية والبرامج الخزبية تشغل ثقافة الرق والعبودية فضاء العلاقات الاجتماعية السائدة ، وتظل الثقافة المهيمنة طالما يقوم بترسيخها ونشرها وترويجها العنصر العربي - الإسلامي والذي يسيطر أيضاً على السلطة والثروة. لذلك فالصراع ليس ثقافياً فقط ، أي بينعروبة والإسلام من جهة والإفريقية والمسيحية والأديان الإحيائية من جهة ثانية ، ولكنه أكثر تعقيداً بينما محور وبؤرة الصراع هو تحديد الهوية وبالتالي يبرز الثقافي ليدعم العوامل الأخرى .

سوسيولوجية العنف والجهاد والفتنة

انعكست هذه النظرة العنصرية على طريقة إدارة الصراع بين الشمالين والجنوبين ، ووصلت درجة العنف الشامل وال الحرب المدمرة لسنوات طويلة نظرّ لها من تمرد الحامية الجنوبية في أغسطس ١٩٥٥ وحتى قصف مدينة جوبا الحالي وحصار مدينة بور. هذه النظرة العنصرية تقسم الوطن عملياً إلى مجموعة داخلية وجماعة خارجية تكون هدفاً للعدوانية وكبس قداء لكل إحباطات وأخطاء وانكسارات الجماعة الداخلية/المهيمنة فالشماليون مثلاً يرجعون كل أسباب تخلف السودان إلى مشكلة الجنوب والتي ليست مستعصية الحل لو أراد القادة السياسيون ذلك بصدق ، ولكن عدم الحل ينبع إلى عناد وتعصب الجنوبين. وفي حالة السلم يتم لهم الجنوبين بأنهم السبب في استنزاف موارد الشمال وعدم المساهمة في الاقتصاد الوطني بسبب كسل الزنج - كما يعتقد الشماليون. آلية إلصاق التهمة بالجماعة الخارجية وتحميلها كل مسؤوليات الفشل والخطايا ، عرفناها عند النازيين ضد اليهود ، وعند بيض جنوب إفريقيا ضد السود ، والصهاينة ضد العرب ، وفي غرب أوروبا الرأسمالية ضد العمال المهاجرين . وهذه خطوة أساسية نحو جعل العداونية سلوكاً عادياً ومرغوباً بقصد تطهير وتنقية

المجتمع من عناصرهم بمثابة التلوث أو الجرائم في جسم الأمة مما يستوجب القضاء عليها دون تأنيب ضمير ، بل العكس يصبح ذلك واجباً مقدساً وهذا ما يسميه حجازي : فك الارتباط العاطفي مع الآخر بقصد تبرير السلوك التدميري ، حيث تنهار روابط الألفة والحبة والتعاطف على المستوى الفردي ، «كما تنهار روابط المواطنة أو المشاركة في المصير وكل ما عدتها من الروابط التي تحمي حياة الآخر وتدفعنا إلى احترامها . تحل محل تلك الروابط مشاعر الغربة والعداء والاضطهاد ، مما يؤدي إلى بروز الأنانية والتلقوّع على الذات أو الجماعة المرجعية»^٤ وهنا تم أيضاً عملية تحثير للآخر ثم اعتباره خطراً على الجميع وبالتالي يصبح القتل سلوكاً طبيعياً فرضته الظروف بهدف «الدفاع عن الذات وكرامتها وقدسيتها أو الدفاع عن الجماعة وقيمها ، أو حتى الدفاع عن الحضارة الإنسانية من العناصر المخربة المدamaة . وهكذا يbedo العنف التدميري كضرورة مبررة»^٥ وهذا يسبب تصرفات العنف والإبادة ذات الطابع السياسي التي تنجم عن فك الارتباط أو الانفصال الإنساني بين الجماعتين.

هذه الحالة العدوانية نجدها بامتياز في حرب الشمال والجنوب وأضيف لها أخيراً بعداً دينياً حيث تسمى حرب الإبادة التي تدور في الجنوب جهاداً كما يظهر في الصحف الحكومية وفي التعليق السياسي الذي يقدمه يومياً أحد الضباط برتبة رائد . ويلاحظ التركيز على آيات مثل : «فاقتلو المشركين حيث وجدتهم» (سورة التوبه آية ٣٣) أو «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله» (التوبه آية ٢٩) أو «إذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أخذتهموا ، فشدوا الوثاق ، فإذا منا بعد ، وإنما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها» (سورة محمد الآية ٤) وتسمى المعارك باسم ذات طابع ديني أو أخلاقي مثل حملة (المضريات صبحاً) ، وسميت حملة انتقامية قام بها الجيش الشمالي (غضبة الحلم) . وفي تقرير لجنة السلام نقرأ عن الآثار المدمرة للحرب : «في الخسائر البشرية وهي أدنى خسائرنا استشهد من أبناء القوات المسلحة ٤٥٩٣ ، وبلغت خسائر الأطراف ٢٥٩٥ - وخسائر الخوارج ٧٣٣،٢٧ نلاحظ رغم أن الحديث بصيغة الجمع ، يفرق بين شهداء وخوارج . وأنثناء مفاوضات تمهدية لعقد

٤. مصطفى حجازي ، التخلف الاجتماعي - سيكولوجية الإنسان المقهور ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، الطبعة الخامسة ١٩٨٩ ، ص ٢٠٠.

٥. المصدر السابق ، ص ٢٠١.

٦. التقرير الختامي والتوصيات - لجنة تسيير الحوار الوطني حول قضيّاً السلام ، ٩ سبتمبر ٢١ أكتوبر ١٩٨٩ ، ص ٩.

مؤتمر للسلام قدمت الحركة الشعبية لتحرير السودان (SPLM) قائمة بأسماء أسرى الحرب الذين تحتفظ بهم في معسكياتها وطالبت الحكومة السودانية بأن تقدم قائمة مماثلة فعجزت الحكومة عن ذلك مما يعني القضاء على الأسرى مباشرة . فهذه حرب إبادة شاملة بين المواطنين في القطر الواحد ولكن يفصل بينهم الأصل والثقافة ، وهذا يفسر المذاييع الدورية بين الجنوبيين الأبراء بقصد إراها بهم ومنعهم - تحوتاً - من الانضمام للجيش الشعبي ومن هنا كانت مذبحة الجبلين وجوباً في نهاية عام ١٩٩٠ . ومن الملاحظ أن التعنيف يكون شاملًا خاصة وهذه المناطق بعيدة عن العاصمة . والحكومات السودانية - بما فيها المتخلفة ديمقراطياً - لا تهتم بإحصاء القتلى والجرحى من الجنوبيين في تلك المعارك طالما هي لا تسبب خطراً على المواطنين الشماليين . لذلك استاء النواب الجنوبيون حين قال الصادق المهدي بأن الحرب دخلت حدود السودان الاستراتيجية بعد معارك الكرمك عام ١٩٨٧ وهذه مدينة أكثر قرباً من الشمال وسألته زعيم المعارضة : « هل تتحدث كرئيس دولة لسودان واحد؟ أين حدودك؟ ألم يكن سقوط كبوينا والجيوكو ضمن حدود السودان؟ »^٧ هذا تقسيم ضمني للوطن الواحد إلى دار الإسلام ودار الحرب ، رغم أن تلك الحكومات لم تعلن أصوليتها الإسلامية مثلاً هو الواقع الآن . ومن هنا أصبحت حرب الجنوب تتخطى « أعراف » الحروب ، إذ من ناحية إجتماعية وإنسانية الجنود مطالبون بسلوك معين : « المحارب ينبغي ألا يستسلم لغائز القتل لديه ، حتى لا يتحول الجيش إلى مجموعة من السفاحين . الجندي يقتل ولكن يقتل ببرودة ، وبناءً لتصسيم للنظام يضعه على مسافة من ضحاياه »^٨ ولكن في الحروب المدنية وحين يحمل الجنود ريات مكتوب عليها إسم الله ، لا بد أن يختلف السلوك لأن هدف الحروب عادة كسر إرادة الطرف الآخر ، أما الحرب ذات الطابع الجهادي فتذهب أبعد من ذلك .

من أهم آليات تبرير وشرعنة العنف والجهاد تأكيد الصورة السيئة للطرف الآخر وحرمانه من مبررات الدفاع عن نفسه . ومن هذا المنطلق يستعمل الجانب الشمالي مفهوم الفتنة وما يتبعها من صفات الخيانة والتآمر والغدر . وهذه خصال ترتبط في الثقافة الشمالية

Management of the Crisis in the Sudan, Abdel Ghaffar M. Ahmed and Gunnar M. Sorbo, V U. of Bergen, 1989, p. 26.

.٨. ر. بدون وف. بوريكو، المعجم النقطي لعلم الاجتماع ، ترجمة سليم حداد ، المؤسسة الجامعية ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص ٤٠١ .

الإسلامية - العربية بأخلاق العبيد خلافاً لأخلاق السادة ، حسب منطق ثقافة الرق السائدة . لذلك تردد مثل هذه المفاهيم والصفات في تحليلات الشماليين - من السياسيين أو الأكاديميين وباختلاف انتهاةاتهم وتكوينهم على سبيل المثال يكتب أستاذ علوم سياسية متخصص في مشكلة الجنوب عن أحداث ١٩٥٥ في الجنوب على هذا النحو : - «لكن الحكومة الوطنية القائمة آنذاك شأنها شأن الحكومات البريطانية التي أعقبتها لم تنجح تماماً في اقتلاع جذور الفتنة ، وانحصرت جهودها في تدبير المزيد من ضروب التنمية الاقتصادية والاجتماعية»^٩ ويتحدث الشيخ الترابي بلغة أخرى تؤكد المضمون أكثر ، عن الاحتراز اللازم من نزع الشيطان الاستعماري الماكر وغولية التعصبية العمياء»^{١٠} ويلاحظ في تحليل الصراع التأكيد الواضح على دور العامل الخارجي أو التدخل الأجنبي ، والهدف من ذلك نزع القدرة من الجنوبيين أنفسهم على فهم أوضاعهم ومحاولة حلها . وهذه نظرة لا تخفي من رؤية بصورة أخرى . المحصلة النهاية مثل هذا العجز هو وقوع الفتنة أو غواية العصبية ، وهذا ما يبرر تنفيذ الآية : «قاتلواهم حتى لا تكون فتنة» .

الآثار الاجتماعية للحرب الأهلية

رغم محاولات الشماليين أن تقتصر آثار الحرب المدمرة على الجنوبيين فقط ولكن الدائرة تناشرت إلى أقصى القطر ومست أغلب قطاعات وفئات الشعب السوداني ، وهذا ما يجعلنا ن Hiro على الحديث عن أكثر من ظاهرة سوسيولوجية ناتجة عن الحرب الأهلية أو ذات صلة ما بذلك الصراع . ومن أهم هذه الظواهر التهجير والهجرة والإغاثة وال搬away وبروز الأقليات أو بالأصح وعيها بأنها أقليات والتحولات السياسية والاقتصادية التي عجلت بها الحرب . نتيجة الحرب والتصحر والجفاف بعد عام ١٩٨٣ عرف السودان ما يسمى بمنظمات الإغاثة الدولية والإقليمية التي تقوم بتقديم الخدمات الصحية والغذاء وإعادة توطين النازحين ، وكانت وزارة باسم وزارة الإغاثة والنازحين . قامت هذه المنظمات بجهود إنسانية مقدرة من أهمها ما دعي برنامج (شريان الحياة) في عام ١٩٨٩ لنقل الطعام إلى المواطنين الجنوبيين في مناطق القتال حسب اتفاق بين الحكومة والجيش الشعبي يسمح بمرور قوافل

.٩. مدثر عبد الرحيم ، مشكلة الجنوب الدار السودانية ، الخرطوم ١٩٧٠ ، ص ١٣٦ .
١٠. حسن الترابي ، مقابلة في مجلة (الحرس الوطني) السعودية ، أغسطس ١٩٩٠ .

الإغاثة وطائرات البرنامج. أخذ البعض على هذه البرامج بأنها خلقت نوعاً من الاتكالية والاعتماد على الغير وأن مجموعات كبيرة من الريفيين السودانيين تركوا الزراعة واعتمدوا على الإغاثة حتى في المناطق التي لم ت redund فيها معارك. وينطبق الشيء نفسه على مناطق الجفاف والتصرّح. يؤخذ على هذه البرامج عدم تدريب الناس على إنتاج طعامهم وابتكار وسائل تكيف بديلة وجديدة. وتهتم الحكومة وبعض المنظمات ذات الأسس الدينية في تنظيمها بأنها تستعمل الطعام كسلاح في الحرب وذلك بتوزيعه على مناطق بعيدة أو منع الطائرات من توصيل الطعام إلى مجموعات محددة بدوعي الأمان. وفي الانتخابات التي جرت عام ١٩٨٦ تدخلت بعض منظمات الإغاثة الإسلامية مثل الوكالة الأفريقية الإسلامية ومنظمة الدعوة الإسلامية في عمليات التصويت - كما ادعى بعض الصحف ولم تستطع تلك المنظمات نفي ذلك. من جانب آخر تهم الحكومة الوكالات والمنظمات الأجنبية بمساعدة «المتمردين» الجنوبيين. وهكذا أصبحت المؤسسة الجديدة التي تسمى الإغاثة مركزاً لعلاقات اجتماعية متتشابكة وظهور قيم جديدة وسلوك مختلف واتجاهات جديدة نحو العمل والقبيلة والأجنبي والمواطنة والنقود والسلع والترفيه.

تسبّبت الحرب الأهلية في نزوح هائل إلى الشمال وتزامن ذلك مع المخاعة والجفاف فعرفت العاصمة ومناطق النيل الأوسط والجزيرة هجرات إجبارية. أحاطت العاصمة المثلثة بمدن الصفيح والكرتون - كما تسمى - مما نتج عنه تزايد في العدوانية إذ وجد الشماليون الصحيحة التي تحمل كل شرور ومشكلات المجتمع. فكل الجرائم والسرقات وانتشار الأوبئة مثل الملاريا والتيفوئيد تنسّب مباشرة إلى تلك المجموعات والتي تسمى بالنازحين وليس المهاجرين لأن سكان العاصمة هم أصلاً مهاجرون من مناطق ريفية ولكن من الشمال والوسط وعربية - مسلمة ، ويتحدث المتعصبون عن «الخطر الزنجي» في الشمال ، لذلك ابتكرت السلطات حملات أمنية يطلق عليها اسم (الكشة) حيث يقوم رجال الشرطة والمخالس البلدية بتوقيف المواطنين حسب أشكالهم ومظهرهم الخارجي ثم جمعهم في شاحنات وإبعادهم خارج العاصمة. وتوجه حملات (الكشة) غالباً نحو العناصر التي يبدو عليها أنها غير عربية. وفي الفترة أخذت شكلاً آخر يسمى (نقل العاطلين والنازحين إلى مناطق الإنتاج) وهذا الترحيل يتم بصورة لا تحرّم حقوق الإنسان وهو ترحيل قسري ، كما أن المواطن السوداني له حق التنقل في أي منطقة يختارها داخل وطنه. ينقل هؤلاء المواطنون إلى

مناطق لم تعد فيها زراعة أو إنتاج ويتركون دون أي وسائل للحياة بالذات في مناطق الجنوب الغربي بين بابنوسة ووواو.

يعيش المهاجرون أو النازحون ظروف سيئة لا تتوفر فيها أدنى الحاجات الأساسية وينشر بينهم الموت البخاني والذي لا يظهر في إحصائيات وزارة الصحة. ومع نقص الأدوية وغلاء أسعارها وفي الوقت نفسه تدهور الطب الوقائي والصحة العامة. هناك أغنية شعبية باللهجة التي تسمى (عربي جوبا) تلخص مأساة وجود هذه الجماعات في الشمال وهي تقول :

عيشة في دنيا بقى غالي كمان كلامو نموتو مسكيين
رغيفة في دنيا بقى ما في كمان نموتو كلامو جياعانين
دوا في دنيا بقى ما في كمان نموتو كلامو عيانين
صابونه في دنيا بقى ما في كمان نموتو كلامو وسخانين

عيشة في دنيا بقى غالي كمان كلامو نموتو مسكيين
رغيفة في دنيا بقى ما في كمان نموتو كلامو جياعانين
دوا في دنيا بقى ما في كمان نموتو كلامو عيانين
صابونه في دنيا بقى ما في كمان نموتو كلامو وسخانين

وصارت المحاكم تعج بالجنوبيين المتهمين بالجرائم وتطبق عليهم عقوبات رادعة بسبب سوء التفاهم وعجز اللغة وعدم معرفة القانون ووجود محامين بالإضافة لهدف تخويف الآخرين. وقد ظهر أن أغلب الذين بُررت أطرافهم تطبيقاً لقوانين سبتمبر ١٩٨٣ الإسلامية كانوا من الجنوبيين وكُونوا (جمعية المبتورين) وتسجل رواية (طائر الشؤم) لفرنسيس دينف مثل هذه المحاكمات التي يتحدث فيها القاضي والمتهم دون فهم وفي سياق قيم اجتماعية مختلفة، وبخت القاضي :

- إن المحكمة تجدك مذنباً بجريمة السرقة وتحكم عليك بقطع اليد اليمنى من الكف. ثم هم لنفسه بصوت مسموع :
- ليدفع العبد الثمن بمحمه بين السرقة وإساءة المحكمة ... إلى القضية التالية^{١١} :

١١. فرنسيس مادينق دينف، طائر الشؤم، ترجمة عبد الله أحمد النعيم، الناشر ميدلايت، القاهرة ١٩٩١، ص .٢٣٦

وبسبب الظروف الإقتصادية امتهن عدد كبير من النازحات الدعاارة وصناعة الخمور البلدية الممنوعة صحيًا وشرعياً ، وهنا يبرز الحكم العنصري الشائع بين الشماليين الذي يعتبر هذا السلوك جزءاً من الشخصية المنطوية «للعيid». وهنا تجد اتهامات تلك المجموعات بتسبيب الانحلال الخلقي بعض مبرراتها .

من نتائج هذه الحرب على المجتمع السوداني زيادة عسکرة الحياة ، ظهرت ميليشيات خاصة بالقبائل التي تسكن ما يسمى بمناطق التماس أو ذات الحدود مع الجنوب . إذ تم تسجيلاها من قبل الحكومات الشمالية المتعاقبة لكي تدافع عن نفسها وهي قبائل عربية أو مستعربة تشتراك مع القبائل الجنوبية في الأراضي والمراعي والري والشرب . ودخلت البلاد خلال السنوات الأخيرة كميات كبيرة من الأسلحة مع وجود مناخ عدم أمن تشهه الدولة نفسها لتعبئة الشعور ضد الجنوبيين وغير العرب والمسلمين عموماً . انعكس نمو العسکرة على الحياة السياسية وأصبح الجيش هو القوة الرئيسية في حل الصراعات السياسية من خلال التدخل والقيام بالإنتقلابات أو التهديد بها أو استعراض القوة . ورغم أن الحرب تعتبر واجب ووظيفة العسكريين اعتبروها امتيازاً ومكانة وتضحية تستحق المكافأة بأشكالها المختلفة .

خاتمة : ضرورة التعددية

يتميز السودان بتنوعه الثقافي والذي يمكن أن يكون مظهراً للخصوصية والإمكانات غير المحدودة لو أفرغ من تناقضاته الصراعية وأخذ شكل التكامل والتسامح والقبول المتبادل . ففي السودان حوالي ١١٥ لغة للتواصل باستخدامها المجموعات السودانية ، منها ٢٦ لغة يتواصل بكل واحدة منها أكثر من ١٠٠,٠٠٠ نسمة . ويدين بالإسلام ٧٠٪ من مجموع السكان وحوالي ٤٪ من السكان مسيحيين ويمارس الباقى ديانات تقليدية . وهناك ١٩ مجموعة إثنية رئيسية وحوالي ٥٩٧ مجموعة فرعية . وتمثل المجموعات التي تدعى الأصول العربية حوالي ٤٠٪ ويمثل الدينكا من جنوب السودان ١٢٪ من المجموع الكلي للسكان والبجا وهي مجموعات مسلمة وغير عربية في شرق السودان ٧٪ بينما تمثل المجموعات المسلمة وغير العربية في غرب السودان ٦٪ من السكان^{١٢} هذا التعدد في اللغة والدين والأصل لا بد أن يحد

١٢. عبد الغفار محمد أحمد، قضايا للنقاش - في إطار إفريقياً السودان وعروبتها ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، ١٩٨٨ ، ص ٢٠ - ١٦.

صيغة تعايش تعرف به كواقع سياسي واجتماعي يتمثل في ديمقراطية تمكّن كل هذه العناصر والأجزاء من المشاركة في السلطة والتنمية إنتاجاً وتوزيعاً واستهلاكاً عادلاً. وتصبح كل محاولات الدمج القسري مجرد عنصرية سافرة وغير مجديّة، وينطبق نفسه على محاولات الدمج التدريجي القائم على التبشير والأسلحة والتعرّيف من خلال الإغراء والترغيب. رغبة هذه المجموعات الثقافية في التعبير ليست مظهراً للفتنة والإنقسام أو نتيجة مؤامرة خارجية صلبيّة أو غربية أو عالمية، هذا تطور وحق طبيعي لأي مجموعة بشرية الحل من خلال دولة دينية في السودان يعني بالضرورة عدم الاعتراف بهذا التعدد والتباين لأن الدولة الدينية تقوم على فضيلة العقيدة وليس حق المواطن المتساوية. لم يكن غريباً أن ترتفع هذه الأيام بحدة وإصرار أكثر دعوة فصل الجنوب لأنّه يمثل عقبة في سبيل التطبيق الكامل لقوانين الشريعة الإسلامية كما تطالب بها بعض الجماعات السياسية – الدينية السودان يمكن أن يكون نموذجاً جيداً للوحدة في التنوع ومحلاً لتعايش الثقافات بالذات العربية والإفريقية وليس مجرد جسر بين هذه الثقافات.

تعقيب د. أحمد بعلبكي على محاضرة للدكتور حيدر إبراهيم علي - السودان
القاهرة في ندوة «الحرب والمجتمع»
التي نظمتها الرابطة العربية لعلم الاجتماع في بيروت
كانون الثاني ١٩٩٢

كانت قراءتنا لنص الدكتور حيدر إبراهيم علي عن «الحرب الأهلية في السودان» مناسبة سمحت لنا بتجاوز حالة تعايشنا الوجدي مع الحرب اللبنانية لتعود من ثم إلى التأمل فيها كحالة بين حالات الحروب الأهلية التي يشهدها العالم المعاصر ولا سيما في جنوبه المتغير. فوجدنا أنفسنا أمام ضرورات تصنيف هذه الحروب وأمام فضولٍ يغوياناً لتلمس ما يمكن أن نسميه القوانيين الموضوعية المفسّرة لنشوبها واستعارتها وخطورتها.

كانت محاولة الدكتور حيدر علي قد لبّت فضولنا على صعيد الوصف لما أوردته من مواقف وظواهر وسلوكيات تفصيلية تدلّل على خطورة «الإمتيازات» التي يحظى بها الشمال العربي الإسلامي وعلى هيمنته

في استغلال وإستبعاد الجماعات الجنوبيّة غير العربية فأبرزت ومنذ الصحفتين الأولىين نجح الباحث في التمييز بين ما يعتبره أسباباً اقتصادية سياسية محددة موضوعياً وبين ما يعتبره أسباباً ثقافية دينية مهيمنة وظائفياً في إعادة إنتاج الت unconصر والقتال. وظلّ الباحث يتحرّك على امتداد البحث سعياً لتحليل الت unconصر الإيديولوجي وربطه بالإمتياز الموضوعي حتى نهاية البحث فقرأنا الشواهد الحية على فعل الذاكرة الجمعية القائمة على ثقافة الرق التي تداولها الأجيال السودانية رغم مرور قرن على إنثار هذه الثقافة التي نزعت إلى شرعة الت unconصر عندما أشاعت أن طبيعة الخلق وجواهر الخلق لدى الزنوج يؤهّلهم للإسترقاق. ويؤكد هذه الشرعة والتأهل لقبوّلها أن قرارات إلغاء العبودية التي ضغطت الحاكم العام الإنكليزي كتشنر (عام ١٨٩٩) لتنفيذها لم يتحفّز لها المعنيون بها من الأفرقاء بسبب حاجتهم للعمل وتأمين كفاية عيشهم.

كما وتبّر في الإيديولوجيا المهيمنة معالم الت unconصر من خلال تحويل الجنوبيّين غير العرب وغير المسلمين منهم خاصّة مسؤولية التخلف كلّها سواء بطبعتهم الكسلة الخامولة أم بسبب تواطؤ قيادتهم مع الخارج الصليبي كما في الخطاب الإسلامي أو مع الخارج الإمبريالي كما في الخطاب القومي المشرقي. وفي الثلث الأخير من البحث عمد الدكتور حيدر علي إلى إبراز الآثار الإجتماعية للحرب الأهلية وفي طليعتها التهجير والإغاثة والمجاعة وبروز الأقليات.

لاحظ أن الحرب ولدت في ما ولدته نزوغاً لتكييف المزارعين مع مفاسيلها الداخلية والخارجية فتوقف الكثير منهم عن الزراعة واعتمد في توفير كفافاته المعاشرية على التوزيعات الإغاثية التي تنظمها مؤسسات إنسانية دولية سيراً وقد لمس الفلاحون نظامية هذه التوزيعات. وهنا يشير الباحث إلى تورط قيادات الشمال في الجيش والإدارة في الإفادة عن مآسي الحرب وتجلّدها وذلك من خلال التحكم بتوزيع الطعام الذي أصبح في ظروف التشرد توزيعاً للصمود على مناطق دون أخرى وتوزيعاً لمغانم سهلة.

وفي سياق التهميش والعزل للأعرق غير الإسلامية (٣٠٪) واستناداً إلى الإيديولوجيا التي تحدد الحرب والمغانم يعمد قادة الشمال ليس إلى تسهيل دفق المهاجرين من الجنوب إلى مدن الشمال وتخليصهم من سلطة الجنوب بل إلى صدّهم وترحيلهم قسراً في شاحنات باتجاه مناطق نائية في الجنوب الغربي لا حياة فيها (الأختيّة الشعبيّة المعبرة عن هذا التشريد واردة في الصفحة ١٥ من النص) كما وتعتمد محاكم الشمال في سبيل ردع التشرد والدعاارة لدى المهاجرين الجنوبيين إلى محاكمتهم بلغة لا يفهمونها والحاكم عليهم وفقاً للقوانين الإسلامية وأحياناً كثيرة بيت أيديهم وقد شاعت هذه الظاهرة إلى حد أمكن معه تكون جمعية للمبتررين.

وأخيراً يشير الباحث إلى تأثير الحرب على عسكرة الحياة في القبائل العربية المتاخمة للجنوب والتي شجّعتها الدولة على السلاح لصد الجنوبيين بعد هذا العرض الموجز لنجح الباحث وسياق البحث والذي اضطررنا لأن يكون نص تعقيباً عليه مستقلاً نسبياً نتوقف أمام المسائل التالية :

أولاً : في مسألة المنج

إذا كانت المقاربة الأنثروبولوجية الاقتصادية الماركسية التي نتبناها نحن أيضاً تميّز بين المستوى الإنتاجي المحدّد موضوعياً والمستوى الثقافي المهيمن أيديولوجيًا قد أفادت صاحبنا الباحث في عَرْبِ الطواهر إلى أفعال من الشمال وردود فعلٍ من الجنوب إلا أن هذه المقاربة يجب أن توحّي أيضاً بقدرة الأسباب الثقافية الإيديولوجية على تجديد الحرب أكثر من الأسباب الاقتصادية في السودان خاصة وإن الشمال الذي يعني من تدهور اقتصاده وضمور زراعته وفشلـه في استقطاب الرساميل العربية والأجنبية ومن التضخم أيضاً لم يؤدّ في هذا التغير الاقتصادي الموضوعي ومنذ عقود على حرب تستنزفه إلى تغيير باتجاه هيمنة ثقافة مختلفة نوعياً لا بل انتهى الأمر أخيراً إلى تعزز هيمنة الثقافة الإسلامية التي تنزع اليوم إلى التخلل من الجنوب أكثر من نزوعها إلى حل مسألة الأقليات في الجنوب . وهذا يستغرب أن يُغفل الباحث هيمنة منطق هذا السياق الثقافي التعنصي الذي يشير إليه في آخر مقطع من الخاتمة ، لا بل يسارع في أول سطر من الخاتمة كما في آخر سطّر فيها ليوحـي بإمكانية الحل «الديمقراطي» الذي يجعل من «التعدد الثقافي مظهراً للخصوصية ... لو أفرغ السودان من تناقضاته الصراعية وأخذ شكل التكامل والتسامح والقبول المتبادل ... فيصل إلى صيغة تعايش تعرف به كواقع سياسي واجتماعي يتمثل في ديموقراطية تمكن كل هذه العناصر والأجزاء من المشاركة في السلطة والتنمية إنتاجاً وتوزيعاً واستهلاكاً عادلاً...».

إلى مقاربة الباحث الأنثروبولوجية الاقتصادية المترسكة عجزت عن تفسير تعطل عامل التجديد في الاقتصاد المتدهور نوعياً وفي تفسير تجذّر هيمنة الثقافي الإيديولوجي في تجديد الحرب واقتصاد الحرب . كما وعجزت عن الجهد في بلورة السياق الذي يمكن أن تدرج فيه وإليه صيف الأحلام التي تصبو إلى «إفراغ السودان من تناقضاته» وإلى جعله متكاملاً متساماً ديموقراطياً في الإنتاج والتوزيع والاستهلاك . إن إغفاء الباحثين الماركسيين لأنفسهم من جهد تلمس السيرة التاريخية للمجتمع والاقتصاد الانتقاليين وتحوّلـهم عن الجهد المتجه إلى الحلم سمح للبرجوازيات أن تستعيد نظامها عبر النزوح البروقراطية المستغلة لهذه الأحلام الإيديولوجية .

ثم أليس من الضروري وفي زمن التهميش والإفتقار الذي تعانيها مجتمعات الجنوب أن نخلص إلى صعوبة صمود المجتمعات المتعددة دينياً إلى هذا الحد؟ والتي هي على هذا المستوى من الإنكار - الاقتصادي وال الغذائي؟ وهذا المستوى من التدخل الأميركي على أصعدة كثيرة (مالية - نقدية - تكنولوجية - إعلامية) ويصبح هذا التدخل هو العامل المحدّد وليس التحول الداخلي؟
أجل لم يعد يكفي الاستناد إلى مبدأ التنوع داخل الوحدة . فالتنوع داخل مجتمعات الجنوب بات ديناميته في مهب الرياح الخارجية وإن الخروج من هذا المهب يفترض سقوطاً مكلفاً ومكلفاً جداً للكثير من القيم والأوهام .

ثانياً : في تأويل الواقع

أشرنا في مستهل تعقيبنا إلى أنناقرأ نص الدكتور حيدر علي بعيون لبنانية شغوفة تروغ بين قراءة الواقع في السودان وبين التأمل في ما عشناه وقرأناه أو كتبناه عن الحروب اللبنانية وتملكتا مثله قلق النفاد من المهيمن المعاش إلى المحدد الكامن وقلق مهابية حدود التماطل والتفارق بين المجتمعين العربين المتبعين دينياً وعمرانياً أعني السودان ولبنان وللذين يشهدان حروباً أهلية ترجح فيها أوليات إستعارها على النوايا المخلصة في إخدادها.

وكانت فضيلة هذا النص أنه بلور لدينا فرضيات جديدة ترى :

- ان الحروب الأهلية الدائرة في بعض المجتمعات الفقيرة المتعددة دينياً والمتخلفة لأسباب تاريخية أو اجتماعية - عمرانية شتى هي حروب لا تنتهي إلاّ بانتهاء موجباتها التي تتحدد على المسارح الإقليمية وإن الاختلاف الإثنى - الديني الذي يتجاذل في منطوق الأنثروبولوجيا الاقتصادية مع الاختلاف العماري - الإجتماعي يمكن أن يتحول إلى اختلال كافٍ لتجدد الحروب الأهلية عقوداً طويلة سيراً وان التهميش والتتجويع يجعل الإنسان العدم في هذه المجتمعات من أرخص الكائنات الحية وبهذا الاعتبار تفلت الحرب من عقلاها ويصبح الخارج ماسكاً لزمامها . كما ونرى ان النمو العماري - الإجتماعي لم يوقف الحروب الدينية - الإثنية الإيرلنديمة المتمادية عقوداً ان لم نقل قرونًا . أجل إن بعض المجتمعات المتعددة تردد انكشافاً على التدخل الخارجي المحدد لمصائرها وان تحصينها يفترض أول ما يفترض جهداً نظرياً يحكل ثوابت الاستقطاب الإيديولوجي ويكشف الأوليات المحددة للتشكل والتغير اللذين يتجاذبان الحرب وهذا ما يفهم في إنارة أفضل على المسرح الكبير الذي يُدار اليوم في القرية العالمية التي تختنق فيها كل المعارضات الفاعلة والمنفعلة .

أما بشأن أشكال التماطل بين مجتمعي الحرب في كل من السودان ولبنان ومع تقديمها لعمق الاختلافات بين الشكليتين الإجتماعيةين . فقد لاحظنا :

- ميلاً لدى العصبية العربية الإسلامية المتميزة في السودان للترفع عن الإندماج في هوية البلد وحصر تسمية السوداني بالفنان غير العربية المعارضة المتمة بالإرتباط بالخارج وهذا ما يذهب بعكس ميل العصبية المارونية المتميزة في لبنان إلى حصر جوهر الانتماء اللبناني بها ومحجه عن المعارضات الإسلامية واليسارية المتممة بالإرتباط بالخارج .

- وهذا ما يجعل العصبيتين المتميزتين في لبنان والسودان تميلان إلى المساومة مع هذا الخارج القوي المحدد حتى لا تساوم مع الفريق الداخلي المعارض إيديولوجيًّا . وهذا ما يجعل مساومتها أكثر قبولاً إيديولوجياً لدى العوام فيها ولذلك تبقى تلك المساومة مهددة .

كما لاحظنا في وصف الدكتور حيدر علي كيف يبرز التعالي الإثنى - الديني من خلال رفض المصاهرة مع الذكور الجنوبيين كما ويزع هذا التعالي في الميل إلى عدم الجاورة في السكن .

وكنا نتمنى أن نرى في نص صاحبنا الباحث ما إذا كان هناك اختلاف بين الفئات الاجتماعية في مسألي المعاشرة والجوار . وقد لاحظنا شخصياً في دراسة ميدانية أجريناها على ٤٠٠ أسرة في ضاحية في غرب بيروت (النحاج) متعددة طائفياً وإنيناً (سبعة ، فلسطينيون ، عشائر عرب المسلم وأكراد) ان الجماعات فيها تتعايش وتتجاور وتتألف وتقبل اختلافاتها بسبب التشابه الكبير بين أوضاعها المعيشية البائسة . انه تشابه يخفف عنها صعوبات التكيف والتسامح . وهذا ما يعيشه من تكبد تكاليف التعصب والسكن المكلف في مناطق طوائفها المتقاولة وخاصة بعد عام ١٩٨٥ . فالرکون إلى العصبية يفترض حدًّا أدنى من اليسر . فهل يلاحظ الباحث هذا النوع من الاندماج في ضواحي البؤس حول المدن السودانية؟ وما هي حدود القبول والتآلف والمعاشرة في المهاجر السودانية؟

ويزداد شغفنا بقراءة النص عندما يشير الباحث إلى عسكرة الحياة وكم كنا نتمنى لو عرض لأشكال هذه العسكرة في الحياة اليومية وفي المناطق المختلفة ولا سيما منها فئات الشبيبة التي لا تعرف العصر وحضارة السلم وما هي أشكال التعويض النفسي الإجتماعية التي نجحت عن التعبئة المتعنقرة التي تستنفرها دائمًا؟ ويمكننا أن نشير هنا إلى خصوبة اختلاف مقاعيل الحرب على الشبيبات المختلفة في المناطق اللبنانية المختلفة حيث يبرز اختلاف أنواع التعبئة الفكرية والدينية واختلاف الآفات التي تراوح بين المخدرات ونبي المعاشرة والتمرد على كل أنواع المؤسس الاجتماعي الناظم للحياة الإنسانية وقد بلغ النبي حدًّا بتنا معه نتساءل عما إذا كانت عودة الحرب لدى الكثير من الشباب أسهل من قبول السلم الإجتماعي الصعب الذي يعرف الحرية بأنها وعي للضرورة وأنها حرية الآخر دائمًا.

نشاطات المعهد

كلمة مدير معهد العلوم الاجتماعية

- الفرع الأول -

في الاحتفال بصدور العدد الأول

من مجلة المعهد :

حضره رئيس الجامعة اللبنانية

حضرات العمداء والمديرين وأساتذة ، السادة الضيوف

من دواعي سرورنا في معهد العلوم الاجتماعية ، إدارة وأساتذة أن نستقبل في رحاب المعهد هذا الجمهور المميز من أهل العلم والفكر والثقافة والإعلام ، لنحتفل معاً ، بولادة مجلة المعهد « العلوم الاجتماعية - بيروت » ، هذا الحدث العلمي والثقافي البارز الذي يخص الجامعة والوطن بمقدار ما يخصنا ويعيننا .

وإذا كانت مجلتنا ، ثقافية وإعلامياً ، هي حدت باعتبارها أول مجلة سوسنولوجية متخصصة في لبنان ، والثالثة أو الرابعة في العالم العربي وفق ما بلغنا .

فإنها كذلك حدت بالمعنى الوطني ، فهي تلتقي والذكرى الأربعين لتأسيس جامعتنا الوطنية ، والتي نحتفل بها بعد أقل من شهرين ، ف تكون مجلتنا بذلك هي الهدية العلمية التي تليق بالجامعة التي يجب أن تكون قد دخلت ، زمنياً ، سن الرشد .

وهي أخيراً حدت بالمعنى الأكاديمي والعلمي ، إذ إن أبسط شروط قيام الجامعات والكليات والمعاهد تقتضي وجود مجالات أكاديمية وعلمية متخصصة تردد هذه الصروح العلمية آخر وأعمق ما بلغه العلم والثقافة وتكون في الآن نفسه منابر رصينة وموضوعية يتمظهر من خلالها حجمنا الثقافي الحقيقي وحدود إسهامنا في الثقافة العلمية . وإذا كنا في العالم العربي بأسره لا ننشر أكثر من واحد في المئة مما تنشره اليابان علمياً ، وواحد بالألف مما تنشره أوروبا وأميركا ، فليس مستغرباً بالتالي أن لا يشكل إنتاجنا الصناعي في العالم العربي بأسره أكثر من ٨٦٪ من الإنتاج الصناعي العالمي . أي أقل من إنتاج بلجيكا وحدها الذي يبلغ ٩٥٪ من الإنتاج الصناعي العالمي .

هذا أية السادة هو الارتباط الإيجابي والثابت بين الإنتاج العلمي والثقافي وبين الإنتاج الصناعي والمادي عموماً. فعثنا نبحث عن تصنيع أو تقدم أو تنمية أو حداثة إذا لم يكن لنا مراكز أبحاث و محلات علمية و مؤسسات ثقافية و جامعات كبرى بالمعنى المادي والعلمي والثقافي . وهذا تحديداً ترصد الدول الكبرى الحريصة على حاضرها و مستقبلها ، المبالغ الطائلة للجامعات و مراكز الأبحاث باعتبارها استثماراً وطنياً من الدرجة الأولى ، وكذا تفعل الشركات الكبرى التي تخصص نسبة ثابتة من موازناتها السنوية تبلغ أحياناً ملايين الدولارات لتنمية قطاع البحث والاكتشاف والنشر ، وفي مجالات تبدو أحياناً بعيدة كلّاً عن مجال اختصاص هذه الشركات أو ميدان عملها المباشر.

وفي مقابل ذلك هل لنا أن نسأل عن المبالغ التي تخصصها دولتنا لقطاع البحث والاكتشاف ؟ وهل لنا أن نسأل عن المبالغ التي تخصصها جامعتنا لقطاع البحث العلمي والثقافي فيها ؟ وعلى نحو أعم ، هل لنا أن نسأل ما هي المبالغ التي تخصصها الدولة لجامعةنا الوطنية والتي لا تبلغ نسبة ١,٥٪ من الموازنة العامة ؟ بل هل يعقل أن تكون موازنة جامعةنا الوطنية التي تضم ٤٥٠٠٠ طالب هي نفسها تقريباً موازنة جامعة خاصة لا تضم أكثر من ٤٥٠٠ طالب ؟.

هي ذي أية السادة الهواجس التي تشغelnَا ونحن نختلف بالعدد الأول من مجلة « العلوم الاجتماعية - بيروت » ، وإذا كانت صحيحاً أن الجامعات لا تقوم بـ مراكز الأبحاث فقط ، فإن الصحيح كذلك هو أن الجامعات لا تقوم من دون مراكز أبحاث وعلماء وباحثين وكتاب و محلات دوريات ... وإلاً فما معنى الجامعة من دون ذلك ؟ وما الذي يميزها بعد ذلك عن أية مدرسة عامة أو خاصة تكتفي بنقل معارف قديمة مجروحة ومكرورة ، تتبع أو تعيد إنتاج المتعلمين أو أنصاف المتعلمين وأنصاف مثقفين ينضافون إلى الطوابير الطويلة التي تنتظر تأشيرات الهجرة أو لوائح الاستيعاب .

أية السادة في الذكرى الأربعين لجامعةنا نطمئن أو نحلم بجامعة كبرى ومحترمة تكون طليعة مجتمعها وليس مجرد مرآة له ، وتكون عقلاً لوطنه ولحالة اتصاله بالإنسانية والعالم الأرحب في الحاضر والمستقبل .

وأخيراً فن باب العرفان بالجميل ، تقديم خالص الشكر لكل الذين أسهموا بولادة هذا العمل أخص منهم بالذكر الكتاب والباحثين ، والزملاء العاملين الإداريين الذين كانوا خير معين ، وأخص بالشكر عميد هذا المعهد ورئيس الجامعة اليوم الدكتور هاشم حيدر والذي لولا تشجيعه وتأييده لما أمكن لهذا العمل أن يرى النور .

أيها السادة

لا نملك نحن من هذه الجللة غير فضل المبادرة وما فيها من تجربة ومحاولة وأخطاء ، أما إذا عثرتم فيها على شيء إيجابي فهو يعود بالتأكيد لعميق علم أستاذة جامعتنا وكتابها ، فهم الأستاذة المرموقة والبحاثة المخلون إن أحسننا الإفادة من إمكانياتهم ، وعلى الجامعة أن تفعل ذلك بالتأكيد .

عاشت الجامعة اللبنانية

د. محمد شيا
مدير معهد العلوم الاجتماعية ، الفرع الأول

نقاش اطروحة دكتوراه في معهد العلوم الاجتماعية (الفرع الأول)

صاحب الاطروحة: فضل ضاهر
الاستاذ المشرف: د. هاشم حيدر

تمهيد صاحب الأطروحة

لقد بحثت كثيراً عن عنوان أوجز به مسار هذا البحث في مخاضه الطويل فلم أجد أبلغ من كلمتين اثنتين التحدى أو الرهان الصعب.

ولقد تدرجت مع هذا التحدى في مستويات تلزمت مع كل مرحلة من مراحل العمل الذي جعلني أُمَرَّس باجتياز الحاجز واحداً تلو الآخر ، بعد أن آمنت مع الكثيرين منكم بأن الإرادة هي القوة وان الفشل الحقيقي يمكن ، كما قال فوش : «في مجرد القبول بفكرة الفشل» ، Accepter l'idée d'une défaite, c'est déjà être vaincu .

في البدء كان بي نوع من الميل إلى الدراسات الجنائية النظرية لإرتباطها بواقع إنحرافى في قوى الأمن الداخلى ، ولجاجة دفعت بي إلى هذا العلم مفتشاً عن نظرية حديثة قد أطبقها في عملي سعياً وراء نجاح عابر ، إنطلاقاً من حب للتميز أو قل من أناانية مشروعة لا أخال أحداً يتذكر لها في مجال التنافس الوظيفي . وبالفعل فقد كان في بعض الحالات التطبيقية التي حققتها مع العناصر في فصائل شرطة ميناء الحصن وزقاق البلاط والمصيطبة خير مثال على ذلك لا سيما بجهة المساهمة في إنشاء الحدائق العامة كحديقة شارع المصيطبة وصيانة الحدائق القائمة كحديقة التلفزيون ، وكذلك بجهة السعي لدى الجمعيات والمدارس لتجسيم الأولاد المهملين والمسردين في الشوارع ورعايتهم ، إلى آخر ما هنالك من تجارب عملية كان لها أثر واضح فيربط أواصر علاقة متينة بين رجال هذه القطاعات والمواطنين فيها ، انعكست احتراماً متبادلاً وآداءً أفضل وإنجاً جيداً في ظروف صعبة وغير مؤاتية لا تخفي على أحد . ثم كان لي بعدها دراسة في جامعة باريس الثانية كلية الحقوق والعلوم السياسية حيث سمحت لي الظروف بزيارة مبني المنظمة الدولية للبوليس الجنائي Interpol ، في مراكزها القديم في

سان كلود St Cloud لأشاهد بأم العين ، وبمرارة ، إن واجهة العرض عند مدخلها لا تضمّ في خزائنها ما يشير إلى لبنان سوى رزمتين أو ثلاث من حشيشة الكيف في أكياس من الخام عليها أرزتنا الوطنية . وقد عجبت واستنكرت ، إلا أنه أسقط في يدي عند قول محمدثي من الأمانة العامة للمنظمة أن هذه الأخيرة لا تملك أية معطيات علمية عن واقع الأمن الاجتماعي وأجهزته وأدواته في لبنان عموماً ، وعن واقع الجريمة وتطور معدلاتها على وجه التحديد . واني أقول ملخصاً أنه في تلك اللحظة بالذات عزّمت التصدي لهذه المهمة — التحدي .

فور عودتي ، إنصرفت إلى تجميع ما تيسر من إحصائيات حول معدلات الإجرام الظاهر Criminalité Apparente في لبنان من خلال نتائج أعمال قوى الأمن الداخلي وكان ذلك عملاً مضنياً يحتاج إلى جهد فريق كامل وليس فرد ، وقد خرجت الجداول واحداً بعد الآخر إلى أن بلغت ما ينوف على المئة صفحة ، وبمساحات كبيرة جداً بحيث بلغ أحدها المتر والنصف طولاً والمتر عرضاً ، وهو الجدول الأساسي الذي تناول تطور معدلات الجرائم في لبنان بين عامي ١٩٧٤ و ١٩٨٤ أي خلال عشرة أعوام مع بيان ما أسفرت عنه هذه الجرائم من قتل وجرحى بعد أن تم تبويبها — أي الجرائم — تماماً كما وردت في قانون العقوبات اللبناني ، وذلك في سبيل جعل هذه الدراسة ذات منفعة مرجعية لأية دراسة حقوقية لاحقة في هذا المجال .

أما سائر الجداول ، فقد تناولت تباعاً تطور معدلات الجرائم تبعاً للمحافظات والأقضية ثم تبعاً لأشهر السنة كما تناولت توزُّع نسب الجرميين وفقاً لجنساتهم وجنسيتهم وفئات أعمارهم فضلاً عن دراستين ميدانيتين حول أعداد المكرّرين Récidivistes وفئات أعمارهم انطلاقاً من تحليل عينة بحث عشوائية من ثلاثة مكرر وأخرى عشوائية كذلك من مالية وثمان وثمانين سجين محكوم . وكان الدافع لذلك ، إظهار مواضع فشل مؤسسات الضبط الاجتماعي في آداء مهامها تمهيداً لإصلاح ما أمكن عن طريق التوصية الواقعية بتقويم اعوجاج ما هو موجود وليس ابتداع ما لا طاقة للمجتمع على إيجاده .
إلا أن كل ذلك ، ووجه بصعوبة جديدة ترتبط بالنقد العلمي الموجه عادةً إلى أية دراسة إحصائية تصويرية .

يعنى أن تراكم الأرقام ظلّ عاجزاً عن تحليل الواقع المعاش وإظهار دينامية العلاقة المتعددة الجوانب بين تطوير معدلات هذه الأرقام والمجتمع الذي تحصل داخله ، سيما إذا

كان هذا المجتمع ذا وضع استثنائي منذ البدء ، وير باليالي بأوضاع مقلبة جداً استثنائية بدورها أغرب ما فيها أن جميع المواطنين يتوحدون في تحمل نتائج تقبلتها العشوائية ، في الوقت الذي يتناقرون في اختلاف النظرية إلى حقيقتها .

لذلك ولزيادة من التوضيح لمدلول هذه الأرقام ، كان لا بد من مقارنتها مع الإحصائيات العائدية لعام ١٩٧٤ منفردة ، وذلك بهدف استقراء مدى تأثير الحرب على أنماط الإجرام نوعاً «وكما» ، قياساً لما كان عليه واقعها قبل سني الحرب ، ومقارنة مع النسب الإقليمية والعالمية المتداولة .

وحقيقة الأمر ، أنه وإن تكن الجريمة ظاهرة إجتماعية لا حدود زمنية وجغرافية لها ، بحيث يصعب الحديث مثلاً عن أسباب الجريمة في لبنان خلال السنوات العشر الأخيرة ، فإنه يمكن مع ذلك تلمس مسارها خلال هذه الفترة الزمنية وتحليل المتغيرات التي طرأت عليها .

وهنا نستطيع الجزم أن تطورات مهمّةً وجوهريةً دخلت على معدلات الاجرام ونوعيته في لبنان وذلك بعد أن تضاعفت الدوافع نتيجة الحرب وزادت الوسائل وفراً وسهولةً في الاستعمال وانعدمت إلى حدٍ كبير الحاجز النفسي والأهم لردع المجرم ، الا وهو تيقنه من حتمية العقوبة التي ستطاله ، فيما لو انحرف عن القوانين والقواعد المعمول بها في المجتمع . ولعلّ أبرز ما يمكن ملاحظته في هذا المجال التحول الحاصل في المجتمع اللبناني من مصدرٍ للخشيشة ومحطةٍ تراثيزت لغيرها من المخدرات إلى مصنّع لأنواعٍ رديئةٍ من هذه السموم ومستهلك لها وللخشيشة التي تزرع فيه ، بشكل ملفت ومأساوي ، سيما أن الإحصائيات أظهرت نسبة ٦٥٪ من المدمنين والمعاطفين في أعمار تتراوح بين ٢٠ و ٤٠ سنة بمعنى أن الخطر المباشر لهذا الوباء ، يضرب العصب الشاب بمجتمعنا الفتى ، أي أنه يصيب مقتلاً من القوة العاملة في بلدنا فيما لو استمر الأمر على هذا المنوال من اللامبالاة والتلهي . إلى جانب ذلك ، يطالعنا تأثير الحرب الواضح في ازدياد المعدلات من جهة وفي نوعية الجرائم من جهة ثانية ، فنسبة جرائم القتل الناجز مقارنة بمحاولات القتل ارتفعت كثيراً ، كما ارتفعت نسبة جرائم العنف المرتبطة بالمخدرات وبالإعتداء على الملكية العامة والفردية بصورة ظاهرة . رب قائلٍ ، ما جدوى هذه الإستنتاجات طالما أنّ لكل مجتمع ضريبيَّة التي يدفعها بسبب مجرميَّه أو مجرميَّن الوافدين إليه من أقطار أخرى بعد أن سهل التطور العلمي في مجالات النقل والاتصال عملية إنتقال الجريمة خارج الحدود الجغرافية للبلدان . إلا أن

الواقع يؤكّد ضرورتها لإجراء أية مقارنة هادفة لتحديد موقعنا بين الأمم . والثابت هنا أن معدلات الجريمة في لبنان قبل الحرب كانت تظهر بلدنا أقرب إلى المجتمعات الصناعية بجهة D'astuce et contre le الملكية patrimoine في حين أن معدلات ما بعد الحرب توازي معدلات بلدان العالم الثالث بجهة ازدياد جرائم العنف أو الدم Crimes de sang لا بل تزيد عنها في بعض الجرائم . إلاّ أنها نجدها مسرعين إلى القول أن الحرب لا تحمل وحدها كامل المسؤولية عن هذا الوضع ، بل إنه يمكننا الجزم بتدخل وتصافر مجموعة عوامل من فردية نفسية إلى اجتماعية ثقافية اقتصادية سياسية ... الخ بحيث شكّلت عنصراً ضاغطاً في اتجاه ازدياد حالات الإجرام ، التي حاولت تخليلها بعد ، تبيانها ، وفي منظور شامل ومتعدد الأبعاد ، إنطلاقاً من الواقع النظرية الأمنية ، إذا شئتم ، المتوصّلة بواقع عملي وليس من خلال نظرية غالبة واحدة ، حقوقية كانت ، أم تحليلية عيادية ، أم إجتماعية صرفة . وهو لعمري ما يتافق مع حقيقة ما أجمع عليه العلماء من اعتبار أن دوافع الإجرام المتعددة كلّ لا يتجزأ رغم الاختلافات التقليدية بين مدارس العلم الجنائي من حيث التركيز على عامل دون آخر وإعطاء أولوية للدافع قبل غيره .

عاماً بعد عام ، كان السير في هذا العمل يجد بي قدماً بالرغم مما هو قائم من قلة المراجع العربية وصعوبة الحصول على المراجع الأجنبية ، وعدم انتظام في الاتصال مع الأستاذ المشرف في السوربون البروفسور J. LAUTMAN الذي ، لطالما أبدى إعجاباً وتعجباً من معاودة اتصالي به وسط ما كان يصله عبر وسائل الإعلام من أنباء عن إقتتال ودمار لا قيمة بعدهما ، للدرجة أنه استهلّ أحدي رسائله لي ذات يوم بالقول أنه سعيد لمعرفة أنني لا زلت على قيد الحياة . content de vous savoir en vie إلى أن كان الإنقطاع نهائياً بحيث تحولت مع دراستي إلى جامعتنا الوطنية مع إصرار على إيقاعها باللغة الفرنسية خدمةً للهدف التي وُضعت من أجله وتسهيلاً لنشرها مستقبلاً حيث نعتقد أنها أجدى وأفعع للوطن ، وكان ذلك بدعمٍ وإشراف من الدكتور مصطفى العوجي في البدء ثم بتوجيهه وموازرة وإشراف من الدكتور هاشم حيدر فيما بعد ، إثر اعتذار الدكتور العوجي لانتدابه بمهمة طويلة الأمد إلى مصر .

والواقع أنني شخصياً ، كثيراً ما مررت بحالات تساؤل عن جدوى ما أقوم به من عمل لإظهار مدى التفاعل العلائي بين مجتمعنا وأنمط الجريمة فيه في ظل حرب أهلية طاحنة ،

وعن صوابية أو جواز التحدث عن تصور لعمل وقائي هو أشبه بالأوتوبيا utopie وسط حمى القصف المتبادل والخطف والسلب والقتل والتشنيع والتقطيع وفي ظل غياب أي تحطيط جدي للمكافحة والتأهيل قبل الوقاية ، إلا أنني ، وبفعل إيمانِ بوطني لا حدود له ، وبفعل قناعة لدى بأن في أصل نشوء العلوم وتطورها ، فكرة تفاؤلية ونظرة مستقبلية وفقاً لما قاله أحد الفلسفه La Science est futuriste ويفعل يقين لدى بأن في عادات وتقاليد مجتمعنا ، وارتباط قسم كبير من هذا الشعب بقيمه الروحية والدينية الحقة ما منع في بلدنا ، حصولَ ما شهدته نيويورك في ساعات قليلة من انقطاع التيار الكهربائي ، رغم مسلسل الإنقطاع الدائم في لبنان للكهرباء والماء والهواتف وحتى مواد الغذاء في معظم فترات الحرب التي عشناها .

بفعل كل هذا ثابتت بعزم وعناد ، متجاهلاً نقد كثيرين حولي وتندر آخرين من سيئي النية وكان شعاري في ذلك أنه أثناء مراوحة الخطى في الأوحال لا بد من بروز من يحاول التقدم ولو أمثراً معدودة ، وبذلك يكون النجاح .

على أي حال ، بقدر ما هو رجائي كبير بأن يكون زمن الحرب في وطني ولـى إلى غير رجعة بقدر ما هو إيماني بأن بلدنا يظل مشروعًا رابحاً للمرأة في مختلف المجالات ، بدليل أن ما من بلد قريب أو بعيد في منطقة الشرق الأوسط ، استطاع أن يلعب بنجاح دوره في استقطاب الرساميل والمشاريع الغربية والعربية والتي تتطلع تثبيت قواعد الأمن الاجتماعي لتتجدد باتجاهه الخطى .

من هنا أهمية ما تقدمه هذه الأطروحة من دراسة إحصائية تحليلية ذات منهجية علمية واضحة ترتكز في جانب كبير منها على الخبرة العملية التي وفرتها لي عشرون سنة من الخدمة الفعلية في قطاعات قوى الأمن الداخلي من الدرك ، إلى شرطة بيروت ، إلى المعهد ، فالشرطة القضائية ، ووحدة أمن السفارات . ولقد تعمدت في سبيل جعلها تطبيقية تضمينا دراستين معمقتين متخصصتين ، الأولى حول مشكلة المخدرات في لبنان للأسباب التي مر ذكرها ، والثانية حول دور قوى الأمن الداخلي ، الخاص والمميز ، بين مجموعة المؤسسات الرئيسية الفاعلة في تحقيق الأمن الاجتماعي ، من قضاء ومؤسسات عقابية ومؤسسات أمنية بوليسية ، ولعلي في هذا المجال ، معترف أنني بالغت في تصور هذه المؤسسات وقد أشيدت بالمفهوم الحديث ، القائم على إبراز وظيفتها الإجتماعية في المقام الأول مما قد لا يرضي الحقوقين حماة القوانين الوضعية ، إلا أنني ، رغم ذلك ولشدة إيماني بوجوب اللحاق بركب

الدول المتطورة الساعية إلى تخلص الإنسان من نزعة الإجرام ومؤثراته بدلاً من حذفه والخلص منه ، ولفرط إعتراضي بالمؤسسة التي أنتهي إليها وحبي لجميع العاملين فيها على اختلاف رتبهم مؤمن بأن عنف الأفراد لا يحابه بعنف السلطة ولو اقتضاها الأمر حزماً وصراحةً مشرعين ، ومؤمن بأن النقد الذي أصحاب قوى الأمن في بعض الواقع ، والشروط القاسية التي سرتها حولها يشكلان قواعد الخد الأدنى لديومتها واستمرار تطورها نحو الأفضل ، جسماً حيوياً فاعلاً وناشطاً في خدمة المواطن والوطن .

حضره الرئيس
أيها الحضور الكرام

لست أدعّي أن عملي هذا كامل بالضرورة ولكنني فخور به ، وفخور لكونه حاز شرف الخضوع لميّض هذه اللجنة بالذات وجميع من فيها هم بين الاعلام الأول كل في حقل اختصاصه ، وفخور لأن نوعية الحضور الكرام وعددهم أزواجاً عندى اعتقاداً خاطئاً بأني كنت أعزف إيقاعاً قليلاً مريدوه فإذا بي أمام نخبة يُشجعني حضورها على الإستمرار في العمل والعطاء .

فصل صاهر



